

كتاب الجمهورية

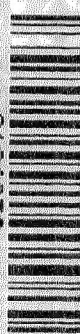
قصص الأنبياء

للإمام ابن كثير

الجزء الثالث

- الياس عليه السلام
- داود عليه السلام
- سليمان عليه السلام
- زكوى ويحيى عليهما السلام
- عيسى عليه السلام

0126839



Bibliotheca Alexandrina

كتاب الجمهورية

يصدر عن

دار التحرير للطبع والنشر

رئيس مجلس الإدارة

سمير رجب

المشرف على التحرير

فاروق فهمى

امتياز الاعلانات :

شركة الاعلانات المصرية

٥ شارع نجيب الريحاني

ت : ٧٤٤١٦٦

التوزيع :

شركة التوزيع المتحدة

٢١ شارع قصر النيل

ت : ٣٩٢٣٧٤٩

المراسلات :

كتاب الجمهورية ٢٤ شارع

زكريا أحمد ت : ٧٥١٥١١

كتاب الجمهورية

قصص الأنبياء للإمام ابن كثير

الجزء الثالث

- إتياس عليه السلام
- داود عليه السلام
- سليمان عليه السلام
- زكريا ويحيى عليهما السلام
- عيسى عليه السلام

تصميم الغلاف : الفنان ياسين درشه

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِينَ
الْغَافِلِينَ ﴾ ^(١) .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رِسَالًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ
عَلَيْكَ .. ﴾ ^(٢) .

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ .. ﴾ ^(٣) .

﴿ وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ، وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ
وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ^(٤)

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ، وَمَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي
بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهَدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ ^(٥) .

﴿ ... فَاقْصُصْ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ ^(٦) .

﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ ، نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ ، إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ
عَلِيمٌ * وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ، كُلًّا هَدَيْنَا ، وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ ، وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ
وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ ، وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى
وإِلْيَاسَ ، كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُوسُفَ وَلُوطًا ، وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ ^(٧)

﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ ، وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ،
وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ
بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَيَنْهَضُ مِنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ ، وَلَوْ شَاءَ
اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ ^(٨) .

(١) يوسف ١١١ .

(٢) الأعراف ١٧٦ .

(٣) الأنعام ٨٣ - ٨٦ .

(٤) البقرة ٢٥٣ .

(١) يوسف ٣ .

(٢) عامر ٧٨ .

(٣) الكهف ١٣ .

(٤) هود ٢٠ .

الياس عليه السلام

اليسع عليه السلام

شمويل عليه السلام

داود عليه السلام

سليمان عليه السلام

زكريا عليه السلام

يحيى عليه السلام

قال الله تعالى بعد قصة موسى وهارون من سورة الصافات : ﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ * أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ * اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ * فَكَذَّبُوا فَأَنَّهُمْ لَا مَحْضَرُونَ * إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ * وَكَرَّكُنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ * سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ * إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١) .

قال علماء النسب هو : إلياس النشبي ، ويقال : ابن ياسين ابن فنحاص بن العيزار بن هارون . وقيل : إلياس بن العازر بن العيزار ابن هارون بن عمران .

قالوا وكان إرساله إلى أهل بعلبك غربي دمشق ، فدعاهم إلى الله عز وجل وأن يتركوا عبادة صنم لهم كانوا يسمونه « بعل » وقيل كانت امرأة اسمها « بعل » والله أعلم .

والأول أصح ولهذا قال لهم : ﴿ أَلَا تَتَّقُونَ * أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ * اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ .

فكذبوا وخالفوه وأرادوا قتله . فيقال : إنه هرب منهم واختفى عنهم ، قال أبو يعقوب الأذري ، عن يزيد بن عبد الصمد ، عن هشام بن عمار قال : سمعت من يذكر عن كعب الأحبار أنه قال : إن إلياس اختفى من ملك قومه في الغار الذي تحت الدم عشرين سنين ، حتى أهلك الله الملك وولى غيره ، فأتاه إلياس فعرض عليه الإسلام ، وأسلم من قومه خلق عظيم غير عشرة آلاف منهم ، فأمر بهم فقتلوا عن آخرهم .

وقال ابن أبي الدنيا : حدثني أبو محمد القاسم بن هشام ، حدثنا عمر بن سعيد الدمشقي ، حدثنا سعيد بن عبد العزيز عن بعض مشيخة دمشق قال : أقام إلياس عليه السلام هارباً من قومه في كهف جبل عشرين ليلة - أو قال أربعين الليلة - تأتيه الغربان برزقه .

وقال محمد بن سعد كاتب الواقدي : أنبأنا هشام بن محمد بن السائب الكلبي ، عن أبيه قال : أول نبي بعث إدريس ، ثم نوح ثم إبراهيم ، ثم إسماعيل وإسحاق ، ثم يعقوب ثم يوسف ثم لوط ثم هو ثم صالح ثم شعيب ، ثم موسى وهارون ابنا عمران ، ثم إلياس النشبي بن العازر بن هارون ابن عمران بن قاهث بن لاوي بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام .

(١) الصافات الآيات ١٢٣ - ١٣٢

هكذا قال : وفي هذا الترتيب نظر .

وقال مكحول عن كعب : أربعة أنبياء أحياء : اثنان في الأرض إلياس والخضر ، واثنان في السماء : إدريس وعيسى عليهما السلام .

وقد قدمنا قول من ذكر أن إلياس والخضر يجتمعان في كل عام في شهر رمضان ببيت المقدس ، وأنها يحجان كل سنة ويشربان من زمزم شربة تكفيهما إلى مثلها من العام المقبل . وأوردنا الحديث الذي فيه أنها يجتمعان بعرفات كل سنة .

وبينا أنه لم يصح شيء من ذلك ، وأن الذي يقوم عليه الدليل : أن الخضر مات ، وكذلك إلياس عليهما السلام .

وما ذكره وهب بن منبه وغيره : أنه لما دعا ربه عز وجل أن يقبضه إليه لما كذبوه وأذوه ، فجاءته دابة لونها لون النار فركبها ، وجعل الله له ريشاً وألبسه النور ، وقطع عنه لذة الطعام والمشرب وصار ملكياً بشرياً سماوياً أرضياً ، وأوصى إلى اليسع بن أخطوب ، ففي هذا نظر . وهو من الإسرائيليات التي لاتصدق ولا تكذب ، بل الظاهر أن صحتها بعيدة .. والله أعلم .

فأما الحديث الذي رواه الحافظ أبو بكر كالبهقي : أخبرنا أبو عبد الله الحافظ ، حدثني أبو العباس أحمد بن سعيد المعداني البخاري ، حدثنا عبد الله بن محمود : حدثنا عبدان بن سنان ، حدثني أحمد بن عبد الله البرقي ، حدثنا يزيد بن يزيد البلوي ، حدثنا أبو إسحاق الفزاري ، عن الأوزاعي ، عن مكحول ، عن أنس بن مالك قال : كنا مع رسول الله ﷺ في سفر ، فنزلنا منزلاً فإذا رجل في الوادي يقول : اللهم اجعلني من أمة محمد ﷺ المرحومة المغفورة المتاب لها قال : فأشرقت على الوادي فإذا رجل طوله أكثر من ثلاثمائة ذراع ، فقال لي : من أنت ؟ فقلت : أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ ، قال : فأين هو ؟ قلت : هو ذا يسمع كلامك ، قال : فأتته فأقرئته من السلام ، وقل له : أخوك إلياس يقرئك السلام . قال : فأتيت النبي ﷺ فأخبرته ، فجاء حتى لقيه فعانقه وسلم ، ثم قعدا يتحادثان فقال له : يا رسول الله .. إني ما أكل في السنة إلا يوماً ، وهذا يوم فطري فأكل أنا وأنت . قال : فنزلت عليها مائدة من السماء ، عليها خبز وحوت وكرفس ، فأكلنا وأطعمنا وصلينا العصر ، ثم وعده ورأيه مره في السحاب نحو السماء .

فقد كفانا البهقي أمره ، وقال : هذا حديث ضعيف بكرة .

والعجب أن الحاكم أبا عبد الله النيسابوري أخرجه في مستدركه على الصحيحين ، وهذا مما يستدرك به على المستدرك : فإنه حديث موضوع مخالف للأحاديث الصحاح من وجوه ومعناه لا يصح . أيضاً فقد تقدم في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله خلق آدم طوله ستون ذراعاً في السماء - إلى أن قال - : ثم لم يزل الخلق ينقص حتى الآن » .

وفيه أنه لم يأت رسول الله ﷺ حتى كان هو الذي ذهب إليه ، وهذا لا يصح ، لأنه كان أحق بالسعي إلى بين يدي خاتم الأنبياء . وفيه أنه يأكل في السنة مرة ، وقد تقدم عن وهب أنه سلبه الله لذة المطعم والمشرب ، وفيما تقدم عن بعضهم : أنه يشرب من زمزم كل سنة شربة تكفيه إلى مثلها من الحول الآخر .

وهذه أشياء متعارضة وكلها باطلة لا يصح شيء منها .

وقد ساق ابن عساكر هذا الحديث من طريق أخرى واعترف بضعفها وهذا عجب منه ، كيف تكلم عليه ؟ فإنه أورده من طريق حسين بن عرفة ، عن هانئ بن الحسن ، عن بقية ، عن الأوزاعي ، عن مكحول ، عن واثلة ، عن ابن الأسقع ، فذكر نحو هذا مطولاً . وفيه أن ذلك كان في غزوة تبوك ، وأنه بعث إليه رسول الله ﷺ أنس بن مالك وحذيفة بن اليمان ، قالا : فإذا هو أعلى جسماً منا بذراعين أو ثلاثة ، واعتذر بعدم قدرته لثلاث تنفر الإبل ، وفيه أنه لما اجتمع به رسول الله ﷺ أكلوا من طعام الجنة ، وقال : إن لي في كل أربعين يوماً أكلة ، وفي المائدة خبز من عنب وموز ورطب وبقل ، ماعدا الكراث . وفيه أن رسول الله ﷺ سأله عن الخضر فقال : عهدي به عام أول ، وقال لي : إنك ستلقاه قبلي فأقرئه مني السلام .

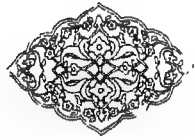
وهذا يدل على أن الخضر وإلياس ، بتقدير وجودهما وصحة هذا الحديث لم يجتمعا به إلى سنة تسع من الهجرة ، وهذا لا يسوغ شرعاً . وهذا موضوع أيضاً .

وقد أورد ابن عساكر طرقاتاً فبين اجتماع بإلياس من العباد ، وكلها لا يفرح بها ، لضعف إسنادها أو لجهالة المسند إليه فيها ، ومن أحسنها ما قاله أبو بكر بن أبي الدنيا : حدثني بشر ابن معاذ : حدثنا حماد بن واقد ، عن ثابت قال : كنا مع مصعب بن الزبير بسواد الكوفة ، فدخلت حائطاً أصلي فيه ركعتين فافتتحت : ﴿ حَمْدُكَ * تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطُّلُوعِ ﴾ ^(١) فإذا رجل من خلفي على

(١) سورة غافر آيات ١ - ٣

بعلة شهباء ، عليه مقطعات يمنية فقال لي : إذا قلت : ﴿ غَافِرِ الذَّنْبِ ﴾ فقل : يا غافر الذنب اغفر لي ذنبي ، وإذا قلت : ﴿ قَابِلِ التَّوْبِ ﴾ فقل : يا قابل التوب تقبل توبتي ، وإذا قلت : ﴿ شَدِيدِ الْعِقَابِ ﴾ فقل : يا شديد العقاب لاتعاقبني ، وإذا قلت : ﴿ ذِي الطُّولِ ﴾ فقل : يا ذا الطول تطول على برحة ، فالتفت فإذا لا أحد . وخرجت فسألت : مر بكم رجل على بغلة شهباء عليه مقطعات يمنية ؟ فقالوا : مامر بنا أحد . فكانوا لا يرون إلا أنه إلياس .

وقوله تعالى : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَنَاهَهُم مِّنْهُ لِيُتَذَكَّرُوا ﴾ أي للعذاب ، أما في الدنيا والآخرة ، أو في الآخرة . والأول أظهر على ما ذكره المفسرون والمؤرخون وقوله : ﴿ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ أي إلا من آمن منهم . وقوله : ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴾ أي أبقينا بعده ذكراً حسناً له في العالمين فلا يذكر إلا بخير ، ولهذا قال : ﴿ سَلَامٌ عَلَى الْيَاسِينَ ﴾ أي سلام على إلياس والعرب تلحق النون في أسماء كثيرة وتبدلها من غيرها كما قالوا : إسماعيل وإسماعين ، وإسرائيل وإسرائيلين ، وإلياس وإلياسين ، وقد قرئ : سلام على آل ياسين ، أي على آل محمد ، وقرأ ابن مسعود وعيره : سلام على إدراسين ، ونقل عنه من طريق إسحاق عن عبيدة بن ربيعة عن ابن مسعود أنه قال : إلياس هو إدريس . وإليه ذهب الضحاك بن مزاحم ، وحكاه قتادة ومحمد بن إسحاق . والصحيح أنه غيره كما تقدم .. والله أعلم .



أنبياء بني إسرائيل بعد موسى عليه السلام

قال ابن جرير في تاريخه : لاختلاف بين أهل العلم بأخبار الماضين وأمور السالفين من أمتنا وغيرهم أن القائم بأمور بني إسرائيل بعد يوشع : كالب بن يوفنا ، يعني أحد أصحاب موسى عليه السلام وهو زوج اخته مريم ، وهو أحد الرجلين اللذين ممن يخافون الله ، وهما يوشع وكالب ، وهما القائلان لبني إسرائيل حين نكلوا عن الجهاد : ﴿ ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ ، وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنَّ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ ^(١) .

قال ابن جرير : ثم من بعده كان القائم بأمور بني إسرائيل حزقيال ابن بوذي وهو الذي دعا الله فأحيا الذين أخرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت .

(١) سورة المائدة الآية ٢٣ .

قصة حزقييل

قال الله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ ، إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ (١) .

قال محمد بن إسحاق عن وهب بن منبه : إن كالب بن يوفنا لما قبضه الله إليه بعد يوشع خلف في بني إسرائيل حزقييل بن بوذي ، وهو ابن العجوز ، وهو الذي دعا للقوم الذين ذكرهم الله في كتابه فيما بلغنا .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ ﴾ قال ابن إسحاق : فروا من الوباء فنزلوا بصعيد من الأرض فقال لهم الله : موتوا ، فماتوا جميعاً فحظروا عليهم حظيرة دون السباع ، فضت عليهم دهور طويلة فر بهم حزقييل عليه السلام فوقف عليهم متفكراً فقيل له : أتحب أن يبعثهم الله وأنت تنظر ؟ فقال : نعم . فأمر أن يدعوا تلك العظام أن تكتسي لحماً وأن يتصل العصب ببعضه ببعض فناداهم عن أمر الله له وبذلك ، فقال القوم أجمعون وكبروا تكبيرة رجل واحد .

وقال أسباط عن السدي عن أبي مالك ، وعن أبي صالح ، عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن أناس من الصحابة في قوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ ﴾ قالوا : كانت قرية يقال لها داوردان قبل واسط وقع بها الطاعون ، فهرب عامة أهلها فنزلوا ناحية منها فهلك من بقي في القرية وسلم الآخرون فلم يمت منهم كثير ، فلما ارتفع الطاعون رجعوا سالمين فقال الذين بقوا : أصحابنا هؤلاء كانوا أحزم منا لو صنعنا كما صنعوا بقينا ولكن وقع الطاعون ثانية لنخرجن معهم ، فوقع في قابل ، فهربوا وهم بضعة وثلاثون ألفاً حتى نزلوا ذلك المكان وهو واد أفيج ، فناداهم ملك من أسفل الوادي وآخر من أعلاه : أن موتوا . فماتوا حتى إذا هلكوا وبقيت أجسادهم مر بهم نبي يقال له حزقييل ، فلما رآهم وقف عليهم فجعل يتفكر فيهم ويلوي شذقيه وأصابه ، فأوحى الله إليه ، تريد أن أريك كيف أحْيِيهم ؟ قال : نعم ، وإنما كان تفكيره أنه تعجب من قدرة الله عليهم ، فقيل له : ناد ، فنادي : يا أيها العظام .. إن الله يأمرك أن تجتمعي . فجعلت

(١) سورة البقرة الآية ٢٤٣ .

العظام يطير بعضها إلى بعض ، حتي كانت أجساداً من عظام ، ثم أوحى الله إليه . أن ناد : ياأيته العظام إن الله يأمرك أن تكتسي لحماً ، فاكثت لحماً و ثيابها التي ماتت فيها . ثم قيل له : ناد . فنادى : يا أيته الأجساد إن الله يأمرك أن تقومى .. فقاموا .

قال أسباط : فرغم منصور عن مجاهد أنهم قالوا حين أحيوا : « سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت » فرجعوا إلى قومهم أحياء يعرفون أنهم كانوا موتى ، سحنة الموت على وجوههم لا يلبسون ثوباً إلا عدا رسماً ، حتى ماتوا لأجلهم التي كتبت لهم .

وعن ابن عباس أنهم كانوا أربعة آلاف ، وعنه ثمانية آلاف ، وعن أبي صالح سبعة آلاف ، وعن ابن عباس أيضاً كانوا أربعين ألفاً ، وعن سعيد بن عبد العزيز كانوا من أهل أذرعات .

وقال ابن جريج عن عطاء : هذا مثل . يعنى أنه سيق مثلاً مبيناً أنه لن يغني حذر من قدر !

وقول الجمهور أقوى من هذا وقع .

وقد روى الإمام أحمد وصاحب الصحيح من طريق الزهري عن عبد الحميد بن عبد الرحمن ابن زيد بن الخطاب ، عن عبد الله بن الحارث بن نوفل ، عن عبد الله بن عباس ، أن عمر بن الخطاب خرج إلى الشام حتى إذا كان بسرغ لقيه أمراء الأجناد أبو عبيدة بن الجراح وأصحابه فأخبروه أن الوباء وقع بالشام . فذكر الحديث . يعنى في مشاورته المهاجرين والأنصار فاختلفوا عليه ، فجاءه عبد الرحمن بن عوف وكان متغيباً ببعض حاجته فقال : إن عندي من هذا علماً سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إذا كان بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه وإذا سئمت به بأرض فلا تقدموا عليه » فحمد الله عمر ثم انصرف .

وقال الإمام : حدثنا حجاج ويزيد المفي قالوا : حدثنا ابن أبي ذؤيب عن الزهري ، عن سالم ، عن عبد الله بن عامر بن ربيعة ، أن عبد الرحمن بن عوف أخبر عمر وهو في الشام عن النبي ﷺ أن هذا السقم عذب به الأمم قبلكم ، فإذا سئمت به في أرض فلا تدخلوها وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه . قال : فرجع عمر من الشام .

وأخرجاه من حديث مالك عن الزهري بنحوه .

قال محمد بن إسحاق : ولم يذكر لنا مدة لبث حزقيل في بني إسرائيل ثم إن الله قبضه إليه ،

فلما قبض نسي بنو إسرائيل عهد الله إليهم وعظمت فيهم الأحداث وعدوا الأوثان وكان في جملة ما يعبدونه من الأصنام صنم يقال له « بعل » فبعث الله إليهم إلياس بن ياسين بن فنحاص بن العيزار بن هارون بن عمران .

قلت : وقد قدمنا قصة إلياس تبعاً لقصة الخضر لأنها يقرنان في الذكر غالباً ، ولأجل أنها بعد قصة موسى في سورة الصافات فتعجلنا قصته لذلك .. والله أعلم .

قال محمد بن إسحاق فيما ذكر له عن وهب بن منبه قال : ثم تنبأ فيهم بعد إلياس وصيه اليسع بن أخطوب عليه السلام .



قصة اليسع عليه السلام

وقد ذكره الله تعالى مع الأنبياء في سورة الأنعام في قوله : ﴿ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُوشَعَ وَحُوتًا ، وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ ^(١) وقال تعالى في سورة ص : ﴿ وَادْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ ، وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ ﴾ ^(٢) قال ابن إسحاق : حدثنا بشر أبو حذيفة ، أنبأنا سعيد ، عن قتادة عن الحسن ، قال : كان بعد إلياس اليسع عليهما السلام ، فكث ما شاء الله أن يكث يدعوهم إلى الله مستمسكاً بمنهاج إلياس وشريعته حتى قبضه الله عز وجل إليه ، ثم خلف فيهم الخلوفاً وعظمت فيهم الأحداث والخطايا وكثرت الجبابرة وقتلوا الأنبياء ، وكان فيهم ملك عنيد طاغ ، ويقال إنه الذي تكفل له ذو الكفل إن هو تاب ورجع دخل الجنة فسمي ذا الكفل .

قال محمد بن إسحاق : هو اليسع بن أخطوب .

وقال الحافظ أبو القاسم بن عساكر في حرف « الياء » من تاريخه : اليسع وهو الأسباط بن عدي بن شوتلم بن أفرائيم بن يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل . ويقال هو ابن عم إلياس النبي عليهما السلام ، ويقال كان مستخفياً معه بجبل قاسيون من ملك بعلبك ثم ذهب معه إليها فلما رفع إلياس خلفه اليسع في قومه ونبأه الله بعده .

ذكر ذلك عبد المنعم بن إدريس بن سنان عن أبيه ، عن وهب ابن منبه ، قال وقال غيره : وكان الأسباط بيانياً .

ثم ذكر ابن عساكر قراءة من قرأ اليسع بالتخفيف والتشديد ومن قرأ واليسع وهو اسم واحد لنبي من الأنبياء .

قلت : قد قدمنا قصة ذا الكفل بعد قصة أيوب عليه السلام لأنه قد قيل إنه ابن أيوب .. فالله تعالى أعلم .

(٢) سورة ص الآية ٤٨ .

(١) سورة الأنعام الآية ٨٦ .

قال ابن جرير وعيره : ثم مرج أمر بني إسرائيل وعظمت منهم الخطوب والخطايا وقتلوا من قتلوا من الأنبياء ، وسلط الله عليهم بدل الأنبياء ملوكاً جبارين يظلمونهم ويسفكون دماءهم . وسلط الله عليهم الأعداء من غيرهم أيضاً ، وكانوا إذا قاتلوا أحداً من الأعداء يكون معهم تابوت الميثاق الذي كان فيه قبة الزمان . كما تقدم ذكره . فكانوا ينصرون ببركته وبما جعل الله فيه من السكينة والبقية مما ترك آل موسى وآل هارون .

فلما كان في بعض حروبهم من أهل غزة وعسقلان علبوهم وقهروهم على أخذه فانتزعوه من أيديهم . فلما علم بذلك ملك بني إسرائيل في ذلك الزمان مالت عنقه فمات كمدأ .

وبقي بنو إسرائيل كالغنم بلا راع حتى بعث الله فيهم نبياً من الأنبياء يقال له شمويل ، فطلبوا منه أن يقيم لهم ملكاً ليقاتلوا معه الأعداء ، فكان من أمرهم ما سنذكره مما قص الله في كتابه .

قال ابن جرير : فكان من وفاة يوشع بن نون إلى أن بعث الله عز وجل شمويل بن بالي أربعائة سنة وستون سنة ، ثم ذكر تفصيلها بمدد الملوك الذي ملكوا عليهم وسباهم واحداً واحداً وتركنا ذكرهم قصداً .



فصة شمويل عليه السلام

هو شمويل - ويقال أشمويل - بن بالي بن علقمة بن يرخام بن اليهو ابن تهو بن صوف بن علقمة بن ماث بن عموصا بن عزريا .

قال مقاتل : وهو من ورثة هارون . وقال مجاهد : هو أشمويل ابن هلفاقا ، ولم يرفع في نسبة أكثر من هذا .. والله أعلم .

حكى السدي بإسناده عن ابن عباس وابن مسعود وأناس من الصحابة والثعلبي وغيرهم : أنه لما غلبت العمالة من أرض غزة وعسقلان على بني إسرائيل ، وقتلوا منهم خلقاً كثيراً وسبوا من أبنائهم جمعاً كثيراً وانقطعت النبوة من بسط لاوى ولم يبق فيهم إلا امرأة حبلى ، فجعلت تدعو الله عز وجل أن يرزقها ولداً ذكراً ، فولدت غلاماً فسمته أشمويل ، ومعناه بالعبرانية إسماعيل ، أي سمع الله دعائي .

فلما ترعرع بعثته إلى المسجد وأسلمته عند رجل صالح فيه يكون عنده ليتعلم من خيره وعبادته . فكان عنده فلما بلغ أشده بينا هو ذات ليلة نائم إذا صوت يأتيه من ناحية المسجد فانتبه مذعوراً ، فظنه الشيخ يدعوه فسأله : أدعوتني ؟ فكره أن يفرعه فقال : نعم .. نم . فنام

ثم ناداه الثانية فكذلك ثم الثالثة فإذا جبريل يدعوه ، فجاءه فقال : إن ربك قد بعثك إلى قومك . فكان من أمره معهم ما قص الله في كتابه .

قال الله تعالى في كتابه العزيز : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدَ مُوسَى إِذْ قَالُوا لَنَبِيِّ لَّهُمْ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نَقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا ، قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أَخْرَجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأُنْسَانِنَا ، فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ * وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ، قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ ، وَلَمْ يَأْتِ سَعَةً مِنَ الْمَالِ ، قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ ، وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ، وَاللَّهُ يُؤْتِي مَلَكَهُ مَنْ يَشَاءُ ﴾

يَشَاءُ ، وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ * فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ، فَشَرَبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ، فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ، قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُّلاقُوا اللَّهَ كَمِ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ * وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبَّتْ أَقْدَامُنَا وَأَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ * فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مَا يَشَاءُ ، وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١﴾

قال أكثر المفسدين : كان نبي هؤلاء القوم المذكورين في هذه القصة هو شمويل . وقيل شمعون وقيل هما واحد . وقيل يوشع ، وهذا بعيد لما ذكره الإمام أبو جعفر بن جرير في تاريخه : أن بين موت يوشع وبعثه شمويل أربعائة سنة وستين سنة .. فאלله أعلم .

والمقصود أن هؤلاء القوم لما أنهكتهم الحروب وقهرهم الأعداء سألوا نبي الله في ذلك الزمان وطلبوا منه أن ينصب لهم ملكاً يكونون تحت طاعته ليقاتلوا من ورائه ومعه وبين يديه الأعداء . فقال لهم : ﴿ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا ، قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أي وأي شيء يمنعنا من القتال ﴿ وَقَدْ أَخْرَجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا ﴾ ويقولون نحن محروبون موتورون ، فحقيق لنا أن نقاتل عن أبنائنا المنهولين المستضعفين فيهم المأسورين في قبضتهم .

قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ كما ذكر في آخر القصة أنه لم يجاوز النهر مع الملك إلا القليل الباقيون رجعوا ونكلوا عن القتال .

﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلَكًا ﴾ قال الثعلبي : وهو طالوت بن قيش ابن أفيال بن صارو بن تحورت بن أفيح بن أنيس بن بنيامين بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل .

قال عكرمة والسدي : كان سقاء ! وقال وهب بن منبه : كان دباعاً وقيل غير ذلك .. والله أعلم .

ولهذا ﴿ قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ ﴾ ولقد ذكروا أن النبوة كانت في سبط لاوى وأن الملك كان في سبط يهوذا ، فلما كان هذا من سبط بنيامين نفروا منه وطعنوا في إمارته عليهم وقالوا نحن أحق بالملك منه وقد ذكروا أنه فقير لا سعة من المال معه فكيف يكون مثل هذا ملكاً .

﴿ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ﴾ . قيل : كان الله قد أوحى إلى شمويل أن بني إسرائيل كان طوله على طول هذه العصا إذا حضر عندك يفوز هذا القرن الذي فيه من دهن القدس فهو ملكهم . فجعلوا يدخلون ويقيسون أنفسهم بتلك العصا فلم يكن أحد منهم على طولها سوى طالوت ولما حضر عند شمويل فاز ذلك القرن فدهنه منه وعينه للملك عليهم وقال لهم : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ ﴾ قيل في أمر الحروب وقيل بل مطلقاً ﴿ وَالْجِسْمِ ﴾ قيل الطول وقيل الجمال ، والظاهر من السياق أنه كان أجملهم وأعلمهم بعد نبيهم عليه السلام ﴿ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ ﴾ فله الحكم وله الخلق والأمر ﴿ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ .

﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ وهذا أيضاً من بركة ولاية هذا الرجل الصالح عليهم وضمنه عليهم أن يرد الله عليهم التابوت الذي كان سلب منهم ، وقهرهم الأعداء عليه ، وقد كانوا ينصرون على أعدائهم بسببه ﴿ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ قيل طست من ذهب كان يغسل فيه صدور الأنبياء ، وقيل السكينة مثل الريح الخجوج . وقيل صورتها مثل الهرة إذا صرخت في حال الحرب أيقن بنو إسرائيل بالنصر ﴿ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ ﴾ قيل كان فيه رضاء الألوح وشيء من المن الذي كان نزل عليهم بالتيه ﴿ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ ﴾ أي تأتيكم به الملائكة يحملونه وأنت ترون ذلك عياناً ليكون آية لله عليكم وحجة باهرة على صدق ما أقوله لكم وعلى صحة ولاية هذا الملك الصالح عليكم . ولهذا قال : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ .

وقيل : إنه لما غلب العالقة على هذا التابوت وكان فيه ما ذكر من السكينة والبقية المباركة وقيل كان فيه التوراة أيضاً فلما استقر في أيديهم وضعوه تحت صنم لهم بأرضهم فلما أصبحوا إذا

التابوت على رأس الصنم فوضّعه تحته فلما كان اليوم الثاني إذا التابوت فوق الصنم ، فلما تكرر هذا علموا أن هذا أمر من الله تعالى فأخرجوه من بلدهم وجعلوه في قرية من قراهم ، فأخذهم داء في رقابهم فلما طال عليهم هذا جعلوه في عجلة وربطوها في بقرتين وأرسلوها ، فيقال إن الملائكة ساقتها حتى جاءوا بها ملأً بني إسرائيل وهم ينظرون كما أخبرهم النبي بذلك ، فالله أعلم على أي صفة جاءت به الملائكة ، والظاهر أن الملائكة كانت تحمله بأنفسهم كما هو المفهوم من الآية والله أعلم ، وإن كان الأول قد ذكره كثير من المفسرين أو أكثرهم .

﴿ فَلَمَّا قَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنْ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ﴾ .

قال ابن عباس وكثير من المفسرين : هذا النهر هو نهر الأردن ، وهو المسمى بالشريرة فكان من أمر طالوت بجنوده عند هذا النهر عن أمر نبي الله له ، عن أمر الله له اختباراً وامتحاناً : أن من شرب من هذا النهر فلا يصحني في هذه الغزوة ، ولا يصحني إلا من لم يطعمه إلا غرفة بيده .

قال الله تعالى : ﴿ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ﴾ .

قال السدي : كان الجيش ثمانين ألفاً فشرب منه ستة وسبعون ألفاً ، فبقى معه أربعة آلاف . كذا قال ..

وقد روى البخاري في صحيحه من حديث إسرائيل وزهير والثوري ، عن أبي إسحاق عن البراء بن عازب قال : كنا أصحاب محمد ﷺ نتحدث أن عدة أصحاب بدر عدة أصحاب طالوت الذين جاوزوا منه النهر ولم يجاوز معه إلا بضعة عشر وثلاثمائة مؤمن . وقول السدي إن عدة الجيش كانوا ثمانين ألفاً فيه نظر ، لأن أرض بيت المقدس لا تحتمل أن يجتمع فيها جيش مقاتله يبلغون ثمانين ألفاً .. والله أعلم .

قال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَاوُوتَ وَجُنُودِهِ ﴾ أي استقلوا أنفسهم واستضعفوها عن مقاومة أعدائهم بالنسبة إلى قتلهم وكثرة عدد عدوهم ﴿ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ يعني ثبتهم الشجعان منهم والفرسان أهل الإيمان والإيقان الصابرون على الجلال والجدال والطعان .

﴿ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبُّنَا أَخْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبَّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ طلبوا من الله أن يفرغ عليهم الصبر أي يغمرهم به من فوقهم فتستقر قلوبهم ولا تقلق ، وأن يثبت أقدامهم في مجال الحرب ومعتك الأبطال وحومة الوغي والدعاء إلى النزال فسألوا التثبيت الظاهر والباطن وأن ينزل عليهم النصر على أعدائهم وأعدائه من الكافرين الجاحدين بآياته وآلائه ، فأجابهم العظيم القدير السميع البصير الحكيم الخبير إلى ما سألوا وأنالهم ما إليه فيه رغبوا .

ولهذا قال : ﴿ فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ أي بحول الله وقوته لا بحولهم ، وبقوة الله ونصره لا بقوتهم وعددهم ، مع كثرة أعدائهم وكال عددهم ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ ، فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُشْكُرُونَ ﴾ ^(١) .

وقوله تعالى : ﴿ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مَا يَشَاءُ ﴾ فيه دلالة على شجاعة داود عليه السلام وأنه قتله قتلاً أذل به جنده وكسر جيشه ، ولا أعظم من غزوة يقتل فيها ملك عدوه فيغتم بسبب ذلك الأموال الجزيلة ويأسر الأبطال والشجعان والأقران ، وتعلو كلمة الإيمان على الأوثان ويدال لأولياء الله على أعدائه ، ويظهر الدين الحق على الباطل وأوليائه .

وقد ذكر السدي فيما يرويه أن داود عليه السلام كان أصغر أولاد أبيه وكانوا ثلاثة عشر ذكراً ، كان سمع طالوت ملك بني إسرائيل وهو يحرض بني إسرائيل على قتل جالوت وجنوده وهو يقول : من قتل جالوت زوجته بابنتي وأشركته في ملكي ، وكان داود عليه السلام يرمي بالقذافة وهو المقلع رمية عظيمة ، فبينما هو سائر مع بني إسرائيل إذ ناداه حجر أن خذني فإن بي تقتل جالوت . فأخذه ثم حجر آخر كذلك ثم آخر كذلك ، فأخذ الثلاثة في مغلته فلما تواجه الصفان برز جالوت ودعا إلى نفسه فتقدم إليه داود فقال له : ارجع فإنني أكره قتلك . فقال : لكنني أحب قتلك . وأخذ تلك الأحجار الثلاثة فوضعها في القذافة ثم أدارها فصارت الثلاثة حجراً واحداً . ثم رمى بها جالوت ففلق رأسه وفر جيشه مهزوماً ، فوفى له طالوت بما وعده فزوجه ابنته وأجرى حكمه في ملكه وعظم داود عليه السلام عند بني إسرائيل وأحبوه ومالوا إليه أكثر من طالوت ، فذكروا أن طالوت حسده وأراد قتله واحتال على ذلك ولم يصل إليه ، وجعل العلماء ينهاون طالوت عن قتل داود فتسلط عليهم فقتلهم حتى لم يبق منهم إلا

(١) سورة آل عمران الآية ١٦٣ .

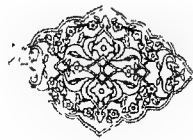
القليل . ثم حصل له تابوت وندم وإقلاع عما سلف منه ، وجعل يكثر من السكاء و يخرج إلى الجبانة فيسكي حتى يبيل الثرى بدموعه فنودى ذات يوم من الجبانة : أرى ياطالوت .. قتلنا ونحن أحياء وأذيتنا ونحن أموات . فازداد لذلك بكاءه وخوفه واشتد وجله ثم جعل يسأل عن عالم يسأل عن أمره وهل له من توبة ، فقيل له : وهل أبقيت عالماً ؟! حتى دل على امرأة من العابدات فأخذته فذهبت به إلى قبر يوشع عليه السلام . قالوا : فدعت الله فقام يوشع من قبره فقال : أقامت القيامة ؟ فقالت : لا ، ولكن هذا طالوت يسألك : هل له من توبة ؟ فقال : نعم ينخلع من الملك ويذهب فيقاتل في سبيل الله حتى يقتل . ثم عاد ميتاً .

فترك الملك لداود عليه السلام وذهب ومعه ثلاثة عشر من أولاده فقاتلوا في سبيل الله حتى قتلوا . قالوا : فذلك قوله : # وَأَتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ # .

هكذا ذكره ابن جرير في تاريخه من طريق السدي بإسناده . وفي بعض هذا نظر ونكارة .. والله أعلم .

وقال محمد بن إسحاق : النبي الذي بعث فأخبر طالوت بتوبته هو اليسع بن أخطوب . حكاه ابن جرير أيضاً .

وذكر الثعلبي أنها أتت به إلى قبر شمويل فعاتبته على ما صنع بعده من الأمور ، وهذا أنسب . ولعله إنما في النوم لا أنه قام من القبر حياً ، فإن هذا إنما يكون معجزة لنبي ، وتلك المرأة لم تكن نبيه .. والله أعلم . قال ابن جرير : وزعم أهل التوراة أن مدة ملك طالوت إلى أن قتل مع أولاده أربعون سنة .. فإله أعلم .



قصة داود عليه السلام

هو داود بن إيشا بن عويد بن عابر بن مسلمون بن نحشون بن عوينادب بن إرم بن حصرون بن فرص بن يهوذا بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عبد الله ونبيه وخليفته في أرض بيت المقدس .

قال محمد بن إسحاق عن بعض أهل العلم عن وهب بن منبه : كان داود عليه السلام قصيراً أزرق العينين قليل الشعر طاهر القلب وتقيه .

تقدم أنه لما قتل جالوت وكان قتله له فيما ذكر ابن عساكر عند قصر أم حكيم بقرب مرج الصفر ، فأحبته بنو إسرائيل ومالوا إليه وإلى ملكه عليهم ، فكان من أمر طالوت ما كان وصار الملك إلى داود عليه السلام ، وجمع الله له بين الملك والنبوة ، بين خير الدنيا والآخرة ، وكان الملك يكون في سبط والنبوة في آخر فاجتبا في داود هذا .

وهذا كما قال تعالى : ﴿ وَكَتَلُ دَاوُدَ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مَا يَشَاءُ ، وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بِبُغْضِهِمْ لِبُغْضِ لَفْسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ ^(١) أي لولا إقامة الملوك حكماً على الناس لأكل قوى الناس ضعيفهم . ولهذا جاء في بعض الأمثلة « السلطان ظل الله في أرضه » . وقال أمير المؤمنين عثمان بن عفان : « إن الله لينزع بالسلطان ما لا ينزع بالقرآن » .

وقد ذكر ابن جرير في تاريخه أن جالوت لما بارز طالوت فقال له : اخرج إلي وأخرج إليك ، فندب طالوت الناس فانتدب داود فقتل جالوت .

قال وهب بن منبه : قال الناس إلى داود حتى لم يكن لطالوت ذكر ، وخلصوا طالوت ولولوا عليهم داود . وقيل إن ذلك عن أمر شمويل حتى قال بعضهم إنه ولاء قبل الوقعة .

(١) سورة البقرة الآية ٥

قال ابن جرير : والذي عليه الجمهور أنه إنما ولى ذلك بعد قتل جالوت .. والله أعلم ،
وروى ابن عساكر عن سعيد بن عبد العزيز : أن قتله جالوت كان عند قصر أم حكيم وأن
النهر الذي هناك هو المذكور في الآية .. فאלله أعلم .

وقال تعالى : ﴿ وَتَقَدَّ أَتَيْنَا دَاوُدَ مِّنَّا فَضْلًا ، يَاجِبَالُ أَوْبَىٰ مَعَهُ الطَّيْرُ ، وَأَلْنَا لَهُ
الْحَدِيدَ * أَنْ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ ، وَاعْلَمُوا صَالِحًا ، إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (١)
وقال تعالى : ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ ، وَكُنَّا فَاعِلِينَ * وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ
لَبُوسٍ لَّكُمْ لِيَتَخَصَّصَ مِنْ بَاسِكُمْ ، فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴾ (٢) .

أعانه الله على عمل الدروع من الحديد ليحصن المقاتلة من الأعداء وأرشده إلى صنعها
وكيفيتها فقال : ﴿ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ ﴾ أي لا تدق المسار فيفلق ولا تغلظه فيفصم . قاله مجاهد
وقتادة والحكم وعكرمة .

قال الحسن البصري وقتادة والأعشى : كان الله قد ألان له الحديد حتى كان يفتله بيده لا
يحتاج إلى نار ولا مطرقة . قال قتادة : فكان أول من عمل الدروع من زرد وإنما كانت قبل
ذلك من صفائح . قال ابن شاذب : كان يعمل كل يوم درعاً يبيعها بستة آلاف درهم .
وقد ثبت في الحديد أن أطيب ما أكل الرجل من كسبه وأن نبي الله داود كان يأكل من
كسب يده .

وقال تعالى : ﴿ وَادْكُرْ عَبْدُنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ * إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ
بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ * وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً ، كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ * وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ
الْخِطَابِ ﴾ (٣) .

قال ابن عباس ومجاهد : الأيد القوة في الطاعة . يعني ذا قوة في العبادة والعمل الصالح .

(١) سبأ الآيات ١٠ ، ١١

(٢) الأنبياء الآيات ٧٩ ، ٨٠ .

(٣) ص الآيات ١٧ - ٢٠

قال قتادة : أعطى قوة في العبادة وفقها في إسلام قال : وقد ذكر لنا أنه كان يقوم الليل
ويصوم نصف الدهر .

وقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « أحب الصلاة إلى صلاة داود ، وأحب
الصيام إلى الله صيام داود كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه ، وكان يصوم يوماً
ويفطر يوماً ولا يفر إذا لاقى » .

وقوله : ﴿ إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعُشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴾ وَالطَّيْرُ مَعْشُورَةٌ ، كُلُّ لَهْ
أَوَّابٍ ﴿ يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرُ ﴾ أي سبّحى معه . قاله ابن عباس ومجاهد
وغير واحد في تفسير هذه الآية ﴿ إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعُشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴾ أي عند
آخر النهار وأوله ، وذلك أنه كان الله تعالى قد وهبه من الصوت العظيم ما لم يعطه أحد بحيث
إنه كان إذا ترنم بقراءة كتابه يقف الطير في الهواء يرجع بترجيعة ويسبح بتسبيحه وكذلك
الجبال تجيبه وتسبح معه كلما سبّح بكرة وعشياً ، صلوات الله وسلامه عليه .

وقال الأوزاعي : حدثني عبد الله بن عامر قال : أعطى داود من حسن الصوت ما لم يعط
أحد قط ، حتى إن كان الطير والوحش ينكف حول حوله حتى يموت عطشاً وجوعاً وحتى إن
الأنهار لتقف ! وقال وهب ابن منبه : كان لا يسمعه أحد إلا حجل كهية الرقص ، وكان يقرأ
الزبور بصوت لم تسمع الآذان بمثله ، فيعكف الجن والإنس والطير والدواب على صوته حتى
يهلك بعضها جوعاً . وقال أبو عوانة الأسفراييني : حدثنا أبو بكر بن أبي الدنيا ، حدثنا محمد
ابن منصور الطوسي سمعت صبيحاً أبا تراب رحمه الله قال أبو عوانة : حدثني أبو العباس
المدني ، حدثنا بن محمد بن صالح العدوي ، حدثنا سيار هو ابن حاتم عن جعفر ، عن مالك ،
قال : كان داود عليه السلام إذا أخذ في قراءة الزبور تفتقت العذارى .. وهذا غريب .

وقال عبد الرزاق عن ابن جريج ، سألت عطاء عن القراءة على الغناء فقال : وما بأس
بذلك ؟ سمعت عبيد بن عمر يقول : كان داود عليه السلام يأخذ المعزفة فيضرب بها فيقرأ
عليها فترد عليه صوته يريد بذلك أن يبكي وتبكي .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر ، عن الزهري ، عن عروة ، عن
عائشة قالت : سمع رسول الله ﷺ صوت أبي موسى الأشعري وهو يقرأ فقال : « لقد أوتي أبي
موسى من مزامير آل داود » .

وهذا على شرط الشيخين ولم يخرجاه من هذا الوجه .

وقال أحمد : حدثنا حسن ، حدثنا حمادة بن سلمة ، عن محمد بن عمر ، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « لقد أعطى أبو موسى من مزامير داود » . على شرط مسلم .

وقد روينا عن أبي عثمان النهدي أنه قال : لقد سمعت البربط والمزمار ، فما سمعت صوتاً أحسن من صوت أبي موسى الأشعري .

وقد كان مع هذا الصوت الرخيم سريع القراءة لكتابة الزبور ، كما قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا عمر ، عن همام عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « خفف على داود القراءة ، فكان يأمر بدابته فتسرج فكان يقرأ القرآن من قبل أن تسرج دابته ، وكان لا يأكل إلا من عمل يديه » .

وكذلك رواه البخاري منفرداً به عن عبد الله بن محمد ، عن عبد الرزاق به . ولفظه : « خفف على داود القرآن فكان يأمر بدوابه فتسرج فيقرأ القرآن قبل أن تسرج دوابه ، ولا يأكل إلا من عمل يديه » .

ثم قال البخاري : ورواه موسى بن عقبة ، عن صفوان ، هو ابن سليم ، عن عطاء بن يسار ، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ .

وقد أسنده ابن عساكر في ترجمة داود عليه السلام في تاريخه من طرق عن إبراهيم بن طهمان ، عن موسى بن عقبة ، ومن طرق أبي عاصم عن أبي بكر السبري ، عن صفوان بن سليم به .

والمراد بالقرآن ها هنا الزبور الذي أنزله الله عليه وأوحاه إليه ، وذكر رواية أشبه أن يكون محفوظاً فإنه كان ملكاً له أتباع ، فكان يقرأ الزبور بمقدار ما تسرج الدواب ، وهذا أمر سريع مع التدبير والترنم والتغني به على وجه التخشع ، صلوات الله وسلامه عليه .

وقد قال الله تعالى : ﴿ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ۖ ﴾ ^(١) والزبور كتاب مشهور وذكرنا في التفسير الحديث الذي رواه أحمد وغيره أنه أنزل في شهر رمضان ، وفيه من المواعظ والحكم ما هو

(١) سورة الساء الآية ١٦٣ ، والإسراء الآية ٥٥ .

معروف لمن نظر فيه .

وقوله : ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخِطَابَ ﴾ أي أعطيناه ملكاً عظيماً وحكماً نافذاً .

روى ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس أن رجلين تداعيا إلى داود عليه السلام في بقر ادعى أحدهما على الآخر أنه اغتصبها منه . فأنكر المدعى عليه فأرجأ أمرها إلى الليل ، فلما كان الليل أوحى الله إليه أن يقتل المدعى ، فلما أصبح قال له داود : إن الله قد أوحى إلي أن أقتلك فأنا قاتلك لا محالة ، فما خبرك فيما ادعيتك على هذا ؟ قال : والله يانبي الله إني لحق فيما ادعيت عليه ، ولكنني كنت اغتلت أباه قبل هذا . فأمر به داود فقتل . فعظم أمر داود في بني إسرائيل جدا وخضعوا له خضوعاً عظيماً . قال ابن عباس : وهو قوله تعالى : ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ ﴾ أي النبوة ﴿ وَفَصَّلَ الْخِطَابَ ﴾ قال شريح والشعبي وقتادة وأبو عبد الرحمن السلمي وغيرهم : فصل الخطاب الشهود والأيمان يعنون بذلك : « البينة على المدعى واليمين على من أنكر » وقال مجاهد : والسدي : هو إصابة القضاء وفهمه . وقال مجاهد : وهو الفصل في الكلام وفي الحكم . واختاره ابن جرير .

وهذا لا ينافي ما روى عن أبي موسى أنه قول : « أما بعد » .

وقال وهب بن منبه : لما كثرت الشر وشهادات الزور في بني إسرائيل أعطى داود سلسلة لفصل القضاء . فكانت ممدودة من السماء إلى صخرة بيت المقدس ، وكانت من ذهب ، فإذا تشاجر الرجلان في حق فأيهما كان محقاً نالها والآخر لا يصل إليها . فلم تزل كذلك حتى أودع رجلاً للؤلؤة فجحدها منه وأخذ عكازاً وأودعها فيه ، فلما حضرا عند الصخرة تناولها المدعى فلما قيل للآخر خذها بيدك عمد إلى العكاز فأعطاه المدعى وفيه تلك اللؤلؤة ، وقال : اللهم إنك تعلم أي دفعتهما إليه . ثم تناول السلسلة فناها . فأشكل أمرها على بني إسرائيل . ثم رفعت سريعاً من بينهم .

ذكره بمعناه غير واحد من المفسرين . وقد رواه إسحاق بن بشر عن إدريس بن سنان عن وهب به بمعناه .

﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَضُمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمُهْرَابَ ﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا

تَخَفُ ، خَضَمَانٌ بَقِيَ بِفَضْلِنَا عَلَى بَعْضٍ فَاخْتَمَ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطُ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ * إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعِجَةً وَلِيَ نَعِجَةً وَاحِدَةً فَقَالَ أَكْفَلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ * قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعِجَتِكَ إِلَى نِعَاجَةٍ ، وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ، وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّهُ قَتَلَهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ * فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ ، وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ ﴿١﴾ .

وقد ذكر كثير من المفسرين من السلف والخلف هاهنا قصصاً وأخباراً أكثرها إسرائيليّات ومنها ما هو مكذوب لا محالة . تركنا إيرادها في كتابنا قصداً اكتفاءً واقتصاراً على مجرد تلاوة القصة من القرآن العظيم ، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم .

وقد اختلف الأئمة في سجدة « ص » : هل هي من عزائم السجود أو إنما هي سجدة شكر ليست من عزائم السجود ؟ على قولين :

قال البخاري : حدثنا محمد بن عبد الله ، حدثنا محمد بن عبيد الطنافسي عن العوام ، قال : سألت مجاهداً في سجدة « ص » فقال : سألت ابن عباس من أين سجدت ؟ قال : أو ماتقراً : ﴿ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ ﴾ (٢) ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ، فَبِهِدَاهِمَ افْتَدِهِ ﴾ (٣) فكان داود من أمر نبيكم ﷺ أن يقتدي به فسجدها داود عليه السلام فسجدها رسول الله ﷺ .

وقد قال الإمام أحمد : حدثنا إسماعيل - هو ابن عليّة - عن أيوب ، عن عكرمة ، عن ابن عباس أنه قال : في السجود في « ص » ليست من عزائم السجود . وقد رأيت رسول الله ﷺ يسجد فيها .

وكذا رواه البخاري وأبو داود والترمذي والنسائي من حديث أيوب وقال الترمذي : حسن صحيح . وقال النسائي أخبرني إبراهيم ابن الحسن الملقبي ، حدثنا حجاج بن محمد ، عن عمر ابن ذر ، عن أبيه ، عن سعيد بن جبیر ، عن ابن عباس أن النبي ﷺ سجد في « ص » وقال : سجدها داود توبةً ونسجدها شكراً . تفرد به أحمد ورجاله ثقات .

وقال أبو داود : حدثنا أحمد بن صالح ، حدثنا ابن وهب ، أخبرني عمرو بن الحارث ، عن سعيد بن أبي هلال ، عن عياض بن عبد الله بن سعيد بن أبي سرح ، عن أبي سعيد الخدري ،

(٢) سورة الأنعام الآية ٨٤ .

(١) سورة ص الآية ٢١ - ٢٥ .

(٢) سورة الأنعام الآية ١٠ .

قال : قرأ رسول الله ﷺ وهو على المنبر « ص » فلما بلغ السجدة نزل فسجد وسجد معه الناس فلما كان يوم آخر قرأها فلما بلغ السجدة تشزن الناس للسجود فقال : « إنما هي توبة نبي ولكن رأيتم تشزنتم » فنزل وسجد . تفرد به أبو داود وإسناده على شرط الصحيح .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا يزيد بن زريع ، حدثنا حميد ، حدثنا بكر ، هو ابن عمر ، وأبو الصديق الناجي ، أنه أخبره أن أبا سعيد الخدري رأى رؤيا أنه يكتب « ص » فلما بلغ إلى التي يسجد بها رأى الدواة والقلم وكل شيء يحضرته انقلب ساجداً . قال فقصها على النبي ﷺ ، فلم يزل يسجد بها بعد ، تفرد به أحمد .

وروى الترمذي وابن ماجه من حديث محمد بن يزيد بن خنيس عن الحسن بن محمد بن عبيد الله بن أبي يزيد ، قال : قال لي ابن جريج : حدثني جدك عبيد الله بن أبي يزيد ، عن ابن عباس قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله .. إني رأيت فيما يرى النائم كأنني أصلي خلف شجرة ، فقرأت السجدة فسجدت الشجرة بسجودي ، فسمعتها تقول وهي ساجدة : « اللهم اكتب لي بها عندك أجراً واجعلها عندك ذخراً وضع عني بها وزراً ، واقبلها مني كما قبلت من عبدك داود » .

قال ابن عباس : فرأيت النبي ﷺ قام فقرأ السجدة ثم سجد فسمعتة يقول وهو ساجد كما حكى الرجل عن كلام الشجرة . ثم قال الترمذي : غريب لانعرفه إلا من هذا الوجه .

وقد ذكر بعض المفسرين أنه عليه السلام مكث ساجداً أربعين يوماً وقاله مجاهد والحسن وغيرهما وورد في ذلك حديث مرفوع ، لكنه من رواية يزيد الرقاشي وهو ضعيف متروك الرواية .

قال الله تعالى : ﴿ فَفَقَرْنَا لَهُ ذَلِكَ ، وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ أي إن له يوم القيامة لزلفى ، وهي القرية التي يقربه الله بها ويدنيه من حظيرة قدسه بسببها ، كما ثبت في حديث : « المقسطون على منابر من نور عن يمين الرحمن ، وكلتا يديه يمين ، الذين يقسطون في أهلهم وحكمهم وما ولوا » .

وقال الإمام أحمد في مسنده : حدثنا يحيى بن آدم ، حدثنا فضيل عن عطية ، عن أبي سعيد الخدري ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أحب الناس إلى الله يوم القيامة وأقربهم منه مجلساً إمام عادل ، وإن أبغض الناس إلى الله يوم القيامة وأشدهم عذاباً إمام جائر » .

وهكذا رواه الترمذي من حديث فضيل بن مرزوق الأغر به ، وقال : لانعرفه مرفوعاً إلا من هذا الوجه .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو زرعة ، حدثنا عبد الله بن أبي زياد ، حدثنا سيار ، حدثنا جعفر بن سليمان ، سمعت مالك بن دينار في قوله : ﴿ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ قال : يقوم داود عليه السلام يوم القيامة عند ساق العرش فيقول الله : يا داود .. مجدي اليوم بذلك الصوت الحسن الرخيم الذي كنت تمجديني في الدنيا ، فيقول : وكيف وقد سلبته . فيقول : إني أردته عليك اليوم . قال : فيرفع داود بصوت يستفرغ نعيم أهل الجنان .

﴿ يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ، إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾ ' هذا خطاب من الله تعالى مع داود ، والمراد ولاية الأمور وحكام الناس ، وأمرهم بالعدل واتباع الحق المنزل من الله ، لا ما سواه من الآراء والأهواء ، وتوعد من سلك غير ذلك وحكم بغير ذلك ، وقد كان داود عليه السلام هو المقتدى به في ذلك الزمان في العدل ، وكثرة العبادة ، وأنواع القربات ، حتى إنه كان لا يمضي ساعة من آناء الليل وأطراف النهار إلا وأهل بيته في عبادة ليلاً ونهاراً كما قال تعالى : ﴿ اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا ، وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ ﴾ (١) .

قال أبو بكر بن أبي الدنيا : حدثنا إسماعيل بن إبراهيم بن بسام ، حدثنا صالح المري ، عن أبي عمران الجولي ، عن أبي الجلد ، قال : قرأت في مسألة داود عليه السلام أنه قال : يارب .. كيف لي أن أشكرك وأنا لأصل إلى شكرك إلا بنعمتك ؟ قال : فأتاه الوحي : « أن يا داود أأست تعلم أن الذي بك من النعم مني ؟ قال : بلى يارب . قال : فإني أرضي بذلك منك » .

وقال البيهقي : أنبأنا أبو عبد الله الحافظ أنبأنا أبو بكر بن بالويه ، حدثنا محمد بن يونس القرشي ، حدثنا روح بن عبادة ، حدثني عبد الله بن لاحق ، عن ابن شهاب قال : قال داود : « الحمد لله كما ينبغي لكرم وجهه وعز جلاله ، فأوحى الله إليه : إنك أتعبت الحفظة يا داود !

ورواه أبو بكر بن أبي الدنيا عن علي بن الجعد ، عن الثوري مثله .

وقال عبد الله بن المبارك في كتاب « الزهد » أنبأنا سفيان الثوري ، عن رجل ، عن وهب

(١) سبأ الآية ١٣

ابن منبه قال : إن في حكمة آل داود : حق على العاقل ألا يغفل عن أربع ساعات : ساعة يناجي فيها ربه ، وساعة يحاسب فيها نفسه ، وساعة يفضي فيها إلى إخوانه الذي يخبرونه بعيوبه ويصدقونه عن نفسه ، وساعة يخلي بين نفسه وبين لذاتها فيما يحل ويجمل فإن هذه الساعة عون على هذه الساعات وإجمام للقلوب ، وحق على العاقل أن يعرف زمانه ويحفظ لسانه ويقبل على شأنه ، وحق على العاقل ألا يظعن إلا في إحدي ثلاث : زاد لمعاده ومرة لمعاشه ، ولذة في غير محرم .

وقد رواه أبو بكر بن أبي الدنيا ، عن أبي بكر بن أبي خيثمة ، عن ابن مهدي عن سفيان ، عن أبي الأغر ، عن وهب بن منبه ، فذكره . . ورواه أيضاً عن علي بن الجعد ، عن عمر بن الهيثم الرقاشي عن أبي الأغر ، عن وهب بن منبه فذكره ، وأبو الأغر هذا هو الذي أهدى ابن المبارك في روايته . قاله ابن عساكر .

وقال عبد الرزاق : أنبأنا بشر بن رافع ، حدثنا شيخ من أهل صنعاء يقال له : أبو عبد الله ، قال : سمعت وهب بن منبه ، فذكر مثله ، وقد أورد الحافظ بن عساكر في ترجمة داود عليه السلام أشياء كثيرة مليحة منها قوله : كن لليتيم كالأب الرحيم ، واعلم أنك كما تزرع كذلك تحصد .

وروى بسند غريب مرفوعاً قال داود : يازارع السيئات أنت تحصد شوكتها وحسكها .

وعن داود عليه السلام أنه قال : مثل الخطيب الأحق في نادي القوم كمثل المغني عند رأس الميت . وقال أيضاً : ما أقبح الفقر بعد الغني وأقبح من ذلك الضلالة بعد الهدى . وقال : انظر ماتكره أن يذكر عنك في نادي القوم فلا تفعله إذا خلوت .

وقال : لاتعدن أخاك بما لا تنجزه له فإن ذلك عداوة بينك وبينه .

وقال محمد بن سعد : أنبأنا محمد بن عمر الواقدي ، حدثني هشام بن سعيد ، عن عمر مولي عفرة ، قال : قالت يهود ، لما رأت رسول الله ﷺ يتزوج النساء ! انظروا إلى هذا الذي لا يشبع من الطعام ولا والله ماله همة إلا إلى النساء : حسدوه لكثرة نسائه وعابوه بذلك فقالوا : لو كان نبياً مارغب في النساء . وكان أشدهم في ذلك حي بن أخطب فأكذبهم الله وأخبرهم بفضل الله وسعته على نبيه صلوات الله وسلامه عليه فقال : ﴿ أَمْ يُحْسَدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ . يعني بالناس رسول الله ﷺ ﴿ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ ﴾ .

والحكمة وآتيناهم ملكاً عظيماً ۞ يعنى ما آتى الله سليمان بن داود كانت له ألف امرأة . سبعمائة مهريّة وثلاثمائة سريّة ، وكانت لداود عليه السلام مائة امرأة منهن امرأة أوريا أم سليمان بن داود التي تزوجها بعد الفتنة هذا أكثر مما لمحمد ﷺ . وقد ذكر الكلبي نحو هذا وأنه كان لداود عليه السلام مائة امرأة وسليمان ألف امرأة منهن ثلاثمائة سريّة .

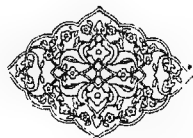
وروى الحافظ في تاريخه في ترجمة صدقة الدمشقي الذي يروى عن ابن عباس من طريق الفرّج بن فضالة الحمصي ، عن أبي هريرة الحمصي عن صدقة الدمشق ، أن رجلاً سأل ابن عباس عن الصيام فقال : لأحدثك بحديث كان عندي في البحث مخزوتاً ، إن شئت أنبأتك بصوم داود فإن كان صوْماً قوْماً وكان شجاعاً لا يفر إذا لاقى ، وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً ، وقال رسول الله ﷺ : « أفضل الصيام صيام داود » وكان يقرأ الزبور بسبعين صوتاً يُكوّن فيها ، وكانت له ركعة من الليل يبكي فيها نفسه ويبكي ببكائه كل شيء ويصرف بصوته المهوم والمحموّم .

وإن شئت أنبأتك بصوم ابنه سليمان فإنه كان يصوم من أول الشهر ثلاثة أيام ، ومن وسطه ثلاثة أيام ومن آخره ثلاثة أيام يستفتح الشهر بصيام ووسطه بصيام ويختمه بصيام .

وإن شئت أنبأتك بصوم ابن العذراء البتول عيسى ابن مريم ، فإنه كان يصوم الدهر ويأكل الشعير ويلبس الشعر ، ويأكل ما وجد ولا يسأل عما فقد ، ليس له ولد يموت ولا بيت يخرب ، وكان أينما أدركه الليل صف بين قدميه وقام يصلي حتى يصبح ، وكان رامياً لا يفوته صيد يريده ، وكان يمر بمجالس بني إسرائيل فيقضي لهم حوائجهم .

وإن شئت أنبأتك بصوم أمه مريم بنت عمران ، فإنها كانت تصوم يوماً وتفطر يومين .

وإن شئت أنبأتك بصوم النبي العربي الأمي محمد ﷺ فإنه كان يصوم من كل شهر ثلاثة أيام ويقول : إن ذلك صوم الدهر وقد روى الإمام أحمد عن أبي النضر ، عن فرج بن فضالة ، عن أبي هرم عن صدقة عن ابن عباس مرفوعاً في صوم داود .



حياته ووفاته

قد تقدم في ذكر الأحاديث الواردة في خلق آدم أن الله لما استخرج ذريته من ظهره فرأى فيهم الأنبياء عليهم السلام ورأى فيهم رجلاً يزهر فقال : أي رب .. من هذا ؟ قال : هذا ابنك داود . قال : أي رب .. كم عمره ؟ قال : ستون عاماً . قال : أي رب .. زد في عمره . قال : لا ، إلا أن أزيده من عمرك . وكان عمر آدم ألف عام فزاده أربعين عاماً فلما انقضى عمر آدم جاءه ملك الموت فقال : بقي من عمري أربعون سنة ونسي آدم ما كان وهبه لولده داود فأتمها الله لآدم ألف سنة ولداود مائة سنة .

رواه أحمد عن ابن عباس ، والترمذي وصححه عن أبي هريرة ، وابن خزيمة وابن حبان . وقال الحاكم : على شرط مسلم . وقد تقدم ذكر طريقه وألفاظه في قصة آدم .

قال ابن جرير ، وقد زعم أهل الكتاب أن عمر داود كان سبعاً وسبعين سنة . قلت : هذا غلط مردود عليهم ، قالوا : وكانت مدة ملكه أربعين سنة ، وهذا قد يقبل نقله لأنه ليس عندنا ما ينافيه ولا ما يقتضيه .

وأما وفاته عليه السلام فقال الإمام أحمد في مسنده : حدثنا قبيصة . حدثنا يعقوب بن عبد الرحمن بن محمد بن عمرو بن أبي عمرو ، عن المطلب ، عن أبي هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال : كان داود عليه السلام فيه غيرة شديدة فكان إذا خرج أغلق الأبواب فلم يدخل على أهله أحد حتى يرجع . قال : فخرج ذات يوم وغلقت الدار فأقبلت امرأته تطلع إلى الدار فإذا رجل قائم وسط الدار فقالت لمن في البيت : من أين دخل هذا الرجل والدار مغلقة ، والله لنفضحن بداود . فجاء داود فإذا الرجل قائم في وسط الدار فقال له داود : من أنت ؟ فقال : أنا الذي لا أهَاب الملوِك و لا أَمْنَع مِنَ الْحِجَاب ، فقال داود : أنت والله إذن ملك الموت مرحباً بأمر الله : ثم مكث حتى قبضت روحه فلما غسل وكفن و فرغ من شأنه طلعت عليه الشمس ، فقال سليمان للطير : أظلي على داود ، فأظلت الطير حتى أظلمت عليه الأرض ، فقال سليمان للطير : اقْبِضِي جَنَاحاً . قال أبو هريرة : فطفق رسول الله ﷺ يرينا كيف فعلت الطير ، وقبض رسول الله ﷺ بيده ، وغلبت عليه يومئذ المضحية .

انفرد بإخراجه الإمام أحمد وإسناده جيد قوي رجاله ثقات ، ومعنى قوله : وغلبت عليه

يومئذ المضرحية » أي وغلبت على التظليل عليه المضرحية وهي الصقوع الطوال الأجنحة واحدها مضرحي ، قال الجوهرى : هو الصقر الطويل الجناح .

وقال السدي عن أبي مالك ، عن ابن مالك ، عن ابن عباس قال مات داود عليه السلام فجاء وكان بسبت ، وكانت الطير تظله . وقال السدي أيضاً ، عن أبي مالك وعن سعيد بن جبير قال : مات داود عليه السلام يوم السبت فجأة .

وقال إسحاق بن بشر ، عن سعيد بن أبي عروبة ، عن قتادة عن الحسن ، قال : مات داود عليه السلام وهو ابن مائة سنة ومات يوم الأربعاء فجأة . وقال أبو السكن الهجري : مات إبراهيم الخليل فجأة وداود فجأة وابنه سليمان فجأة صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين . رواه ابن عساكر .

وروى عن بعضهم أن ملك الموت جاءه وهو نازل من محرابه فقال له : دعني أنزل أو أصعد ، فقال : يابني الله .. قد نقدت السنون والشهور والآثار والأرزاق ، قال : فخر ساجداً على مرقاة من تلك المراقي فقبضه وهو ساجد .

وقال إسحاق بن بشر : أنبأنا وافر بن سليمان ، عن أبي سلمان الفلسطيني عن وهب بن منبه قال : إن الناس حضروا جنازة داود عليه السلام فجلسوا في الشمس في يوم صائف قال : وكان قد شيع جنازته يومئذ أربعون ألف راهب عليهم البرانس سوى غيرهم من الناس ، ولم يمت في بني إسرائيل بعد موسى وهارون أحد كانت بنو إسرائيل أشد جزعاً عليه منهم على داود . قال : فأذاهم الحر فنادوا سليمان عليه السلام أن يعمل لهم وقاية لها أصابهم من الحر ، فخرج سليمان فنادى الطير فأجابت فأمرها أن تظل الناس ، فتراص بعضها إلى بعض من كل وجه ، حتى استسكت الريح فكاد الناس أن يهلكوا غما فصاحوا إلى سليمان عليه السلام من الغم ، فخرج سليمان فنادى الطير أن أظلي الناس من ناحية الشمس وتنحي عن ناحي الريح . ففعلت فكان الناس في ظل تهب عليهم الريح ، فكان ذلك أول مارأواه من ملك سليمان .

وقال الحافظ أبو يعلى : حدثنا أبو همام الوليد بن شجاع ، حدثني الوليد بن مسلم ، عن الهيثم بن حميد ، عن الوضين بن عطاء ، عن نصر بن علقمة ، عن جبير بن نفير ، عن أبي الدرداء . قال : قال رسول الله ﷺ : لقد قبض الله داود من بين أصحابه ما فتنوا ولا بدلوا ، ولقد مكث أصحاب المسيح على سننه وهديه مائتي سنة .

هذا حديث غريب وفي رفعه نظر ، والوضين بن عطاء كان ضعيفاً في الحديث .. والله أعلم .

قصة سليمان وداود عليهما السلام

قال الحافظ ابن عساكر : وهو سليمان بن داود بن إيشا بن عويد بن عابر بن سلمون بن نخشون بن عمينا أدا بن إرم بنحسرون ابن فارص بن يهوذا بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم أبي الربيع نبي الله بن نبي الله .

جاء في بعض الآثار أنه دخل دمشق . قال ابن ماكولا : فارص بالصاد المهملة ، وذكر نسبه قريباً مما ذكره ابن عساكر .

قال الله تعالى : ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلَّمْنَا مَنَظِقَ الطَّيْرِ وَأَوْتَيْنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ، إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴾ ^(١) أي ورثه في النبوة والملك ، وليس المراد ورثه في المال ، لأنه قد كان له بنون غيره ، فما كان ليخص بالمال دونهم ، ولأنه قد ثبت في الصحاح من غيوجه عن جماعة من الصحابة أن رسول الله ﷺ قال : « لانورث ما تركنا فهو صدقة » وفي لفظة : « نحن معاشر الأنبياء لانورث » فأخبر الصادق المصدوق أن الأنبياء لاتورث أموالهم عنهم كما يورث غيرهم ، بل تكون أموالهم صدقة من بعدهم على الفقراء والمحاويج لا يخصون بها أقربائهم ، لأن الدنيا كان أهون عليهم وأحقر عندهم من ذلك كما هي عند الذي أرسلهم واصطفاهم وفضلهم . وقال : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلَّمْنَا مَنَظِقَ الطَّيْرِ وَأَوْتَيْنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ يعني أنه عليه السلام كان يعرف ما يتخاطب به الطيور بلغاتها ويعبر للناس عن مقاصدها وإرادتها .

وقد قال الحافظ أبو بكر البيهقي : أنبأنا أبو عبد الله الحافظ أنبأنا علي بن حشاد ، حدثنا إسماعيل بن قتيبة ، حدثنا علي بن قدامة ، حدثنا أبو جعفر الأسواني ، يعني محمد بن عبد الرحمن : عن أبي يعقوب العمي ، حدثني أبو مالك ، قال : مر سليمان بن داود بعصفور يدور حول عصفورة فقال لأصحابه : أتدرون ما يقول ؟ قالوا : وما يقول يا نبي الله ؟ قال : يخطبها إلى نفسه ويقول زوجيني أسكنك أي غرف دمشق شئت ! قال سليمان عليه السلام : لأن غرف

(١) المل الآية ١٦

دمشق مبنية بالصخر لا يقدر أن يسكنها أحد ولكن كل خاطب كذاب !

رواه ابن عساكر عن أبي القاسم زاهر بن طاهر ، عن البيهقي به وكذلك ماعداها من الحيوانات وسائر صنوف المخلوقات ، والدليل على هذه قوله بعد هذا من الآيات : ﴿ وَأَوْتَيْنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ أي من كل ما يحتاج الملك إليه من العدد والآلات والجنود والجيش والجماعات والجماعات من الجن والإنس والطيور والوحوش والشياطين السارحات والعلوم والفهم والتعبير عن ضائر المخلوقات من الناطقات والصامتات ثم قال : ﴿ إِنَّ هَذَا لَهَوَ الْفَضْلِ الْمُبِينِ ﴾ أي من باري البريات وخالق الأرض والسماوات كما قال تعالى : ﴿ وَخَشَرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودَهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ * حتى إذا أتوا على وادي النمل قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون * فتبسم ضاحكاً من قولها وقال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحاً ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين ﴾ (١) .

يخبر تعالى عن عبده ونبيه وابن نبيه سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام أنه ركب يوماً في جيشه جميعه من الجن والإنس والطيور ، فالجن والإنس يسرون معه والطيور سائرة معه تظله بأجنحتها من الحر وغيره وعلى كل من هذه الجيوش الثلاثة وزعة - أي نقباء - يردون أوله على آخره . فلا يتقدم أحد عن موضعه الذي يسير فيه ولا يتأخر عنه قال الله تعالى : ﴿ وَحَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ فأمرت وحذرت واعتذرت عن سليمان وجنوده بعدم الشعور ، وقد ذكر وهب أنه مر وهو على البساط بواد بالطائف وأن هذه النملة كان اسمها جرسا ، وكانت من قبيلة يقال لها بنو الشيصبان وكانت عرجاء وكانت بقدر الذئب .

وذي هذا كله نظر ، بل في هذه السياق دليل على أنه كان في مركبه راكباً في خيوله وفروسانه ، لا كما زعم بعضهم من أنه كان إذا ذاك على البساط لأنه لو كان كذلك لم ينل النمل منه شيء ولا وطء ، لأن البساط كان عليه جميع ما يحتاجون إليه من الجيوش والخيول والجمال والأثقال والخيام والأنعام والطيور من فوق ذلك كله ، كما سنبينه بعد ذلك إن شاء الله تعالى .

والمقصود أن سليمان عليه السلام فهم ما خاطبت به تلك النملة لأمتها من الرأس السديد

(١) النمل الآيات ١٧ - ١٩

والأمر الحميد ، وتبسم من ذلك على وجه الاستبشار والفرح والسرور بما أطلعته الله عليه دون غيره ، وليس كما يقوله بعض الجهلة من أن الدواب كانت تنطق قبل سليمان وتخاطب الناس حتي أخذ عليهم سليمان بن داود العهد وألجها فلم تتكلم مع الناس بعد ذلك ، فإن هذا لا يقوله إلا الذين لا يعلمون ، ولو كان هذا هكذا لم يكن لسليمان في فهم مقالها مزية على غيره إذ قد كان الناس كلهم يفهمون ذلك ولو كان قد أخذ عليها العهد ألا تتكلم مع غيره وكان هو يفهمها لم يكن في هذا أيضاً فائدة يعول عليها ولهذا قال : ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِي ﴾ أي ألهمني وأرشدني ﴿ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴾ فطلب من الله أن يقيضه للشكر على ما أنعم به عليه وعلى ما خصه به من المزية على غيره وأن يسر عليه العمل الصالح وأن يحشره إذا توفاه مع عباده الصالحين وقد استجاب الله تعالى له .

والمراد بوالديه داود عليه السلام وأمه-، وكانت من العابدات الصالحات كما قال سنيد بن داود ، عن يوسف بن محمد بن المنكدر ، عن أبيه ، عن جابر ، عن النبي ﷺ قال : « قالت أم سليمان بن داود : يا بني .. لا تكثر النوم بالليل فإن كثرة النوم بالليل تدع العبد فقيراً يوم القيامة » . رواه ابن ماجه عن أربعة من مشايخه عنه به نحوه .

وقال عبد الرزاق ، عن معمر ، عن الزهري ، أن سليمان بن داود عليه السلام خرج هو وأصحابه يستسقون فرأى غلة قائمة رافعة إحدى قوائها تستسقي ، فقال لأصحابه : ارجعوا فقد سقيتم ، إن هذه الغلة استسقت فاستجيب لها .

قال ابن عساكر : وقد روى مرفوعاً ولم يذكر فيه سليمان ، ثم ساقه من طريق محمد بن عزيز ، عن سلامة بن روح بن خالد ، عن عقيل ، عن ابن شهاب حدثني أبو سلمة ، عن أبي هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « خرج نبي من الأنبياء بالناس يستسقون الله فإذا هم بغلة رافعة بعض قوائها إلى السماء فقال النبي : ارجعوا فقد استجيب لكم من أجل هذه الغلة » .

وقال السدي : أصاب الناس قحط على عهد سليمان عليه السلام . فأمر الناس فخرجوا فإذا بغلة قائمة على رجلها باسطة يديها وهي تقول : « اللهم أنا خلق من خلقك ولا غناء بنا عن فضلك » . قال : فصب الله عليهم المطر .

وقال الله تعالى : ﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهَدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴾ * لِأَعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لِيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ * فَكَثَّ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ ﴾ * إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ * وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ * أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾ * اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ * قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ * أَذْهَبَ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقَاهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴾ * قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴾ * إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ * أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَيَّ وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ * قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونَّ ﴾ * قَالُوا نَحْنُ أَوْلَى قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴾ * قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً ، وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ * وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهِدْيَةٍ فَنَاطِرَةٌ بِمِ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴾ * فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانُ قَالَ أَتَمَدُّونَنِي بِمَا لِي أُنَاقِي اللَّهَ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهِدْيَتِكُمْ قَفْرَاحُونَ ﴾ * ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَاقِبِلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿ ١١ ﴾ .

يذكر تعالى ما كان من أمر سليمان والهدهد ، وذلك أن الطيور كان على كل صنف منها مقدمون يقدمون بما يطلب منهم ويحضرون عنده بالنوبة كما هي عادة الجنود مع الملوك ، وكانت وظيفة الهدهد على ما ذكره ابن عباس وغيره أنهم كانوا إذا أعوزوا الماء في القفار في حال الأسفار يحجيء فينظر لهم هل بهذه البقاع من ماء ، وفيه من القوة التي أودعها الله تعالى فيه أن ينظر إلى الماء تحت تحنوم الأرض ، فإذا دهم عليه حفروا عنه واستنبطوه وأخرجوه واستعملوه لحاجتهم ، فلما تطلبه سليمان عليه السلام ذات يوم فقدته ولم يجده في موضعه من محل خدمته ﴿ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهَدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴾ أي ماله مفقود من هاهنا ، أو قد غاب عن بصري فلا أراه بحضرتي ﴿ لِأَعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ * توعده بنوع من العذاب يختلف المفسرون فيه ، والمقصود حاصل على تقدير ﴿ أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لِيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ أي بحجة تنجيه من هذه الورطة .

قال الله تعالى : ﴿ فَكَثَّ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ أي فغاب الهدهد غيبة ليست بطويلة ثم قدم منها

« فَقَالَ لِسُلَيْمَانَ : « أَحْضَرْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ » أَيِ اطَّلَعْتُ عَلَيَّ مَا لَمْ تَطَّلِعْ عَلَيْهِ » وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَأٍ بِنَبِيٍّ يَقِينٍ » أَيِ غَيْرِ صَادِقٍ » إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ » يَذْكُرُ مَا كَانَ عَلَيْهِ مَلُوكُ سَبَأٍ فِي بِلَادِ الْيَمَنِ مِنَ الْمَمْلَكَةِ الْعَظِيمَةِ وَالتَّيَابَعَةِ الْمُتَوَجِّينَ ، وَكَانَ الْمَلِكُ قَدْ آلَ فِي ذَلِكَ الرَّمَانَ إِلَى امْرَأَةٍ مِنْهُمْ اسْمُهَا مَلِكُهَا لَمْ يَخْلَفْ عِزَّهَا فَمَلِكُهَا عَلَيْهِمْ .

وذكر الثعلبي وغيره أن قومها ملكوا عليها بعد أبيها رحلاً فعم به الفساد ، فأرسلت إليه تحطبه فتزوجها فلما دخلت عليه سقته خمرأ ثم حزت رأسه ونصبته على باها ، فأقبل الناس عليها وملكوها عليهم وهي بلقيس بنت السريح وهو الهدهاد . وقيل سراحيل بن ذي جدن بن السريح بن الحارث بن قيس بن صيفي بن سبأ بن يتجب بن يعرب بن قحطان ، وكان أبوها من أكابر الملوك وكان قد تأبى أن يتزوج من أهل اليمن ، فيقال إنه تزوج امرأة من الحن اسمها ريحانة بنت السكن ، فولدت له هذه المرأة واسمها تلقيمة ويقال لها بلقيس .

وقد روى الثعلبي من طريق سعيد بن بشير عن قتادة ، عن النضر بن أنس ، عن بشير بن نهيك ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ أنه قال : كان أحد أبوي بلقيس جنيًا ، وهذا حديث غريب وفي سنده ضعف .

وقال الثعلبي : أخبرني أبو عبد الله بن قبحونة ، حدثنا أبو بكر بن حرجة ، حدثنا ابن أبي الليث ، حدثنا أبو كريب ، حدثنا أبو معاوية عن إسماعيل بن مسلم ، عن الحسن ، عن أبي بكرة ، قال ذكرت بلقيس عند رسول الله ﷺ فقال : « لا يفلح قوم ولو أمرهم امرأة » إسماعيل بن مسلم هذا هو المكي الضعيف .

وقد ثبت في صحيح البخاري من حديث عوف ، عن الحسن عن أبي بكرة أن رسول الله ﷺ لما بلغه أن أهل فارس ملكوا عليهم ابنة كسرى قال : « لن يفلح قوم ولو أمرهم امرأة » .

ورواه الترمذي والنسائي من حديث حميد ، عن الحسن ، عن أبي بكرة ، عن النبي ﷺ بثله وقال الترمذي : حسن صحيح . وقوله : « وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ » أَيِ مِمَّا مِنْ شَأْنِهِ أَنْ تَوْتَاهُ الْمُلُوكُ » وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ » يَعْنِي سَرِيرَ مَمْلَكَتِهَا كَانَ مَزْخَرَفًا بِأَنْوَاعِ الْجَوَاهِرِ وَاللَّائِي وَالذَّهَبِ وَالْحَلِيِّ الْبَاهِرِ .

ثم ذكر كفرهم بالله ، وعبادتهم الشمس من دون الله ، وإضلال الشيطان لهم ، وصدده إياهم عن عبادة الله تعالى وحده لا شريك له ، الذي يخرج الخبء في السموات والأرض ويعلم

ما يخفون وما يعلنون ، أي يعلم السرائر والظواهر من المحسوسات والمعنويات : ﴿ الله لا إله إلا هو ربُّ العرش العظيم ﴾ أي له العرش العظيم الذي لأعظم منه في المخلوقات .

فعند ذلك بعث سليمان عليه السلام كتابه يتضمن دعوته لهم إلى طاعة الله وطاعة رسوله والإنابة والإدعان إلى الدخول في الخضوع للملكه وسلطانه ولهذا قال لهم : ﴿ ألا تغفلوا عني ﴾ أي لاتستكبروا عن طاعتين وامثال أوامري ﴿ وأتوني مسلمين ﴾ أي واقدموا على سامعين مطيعين بلا معاودة ولا مراودة ، فلما جاءها الكتاب مع الطير ، ومن ثم اتخذ الناس البطائق ، ولكن أين الثريا من الثرى ، تلك البطاقة كانت مع سائر سامع مطيع فاهم عالم بما يقول ويقال له ، فذكر غير واحد من المفسرين وغيرهم أن الهدهد حمل الكتاب وجاء إلى قصرها فألقاه إليها وهي في خلوة لها ثم وقف ناحية ينتظر ما يكون من جوابها عن كتابها ، فجمعت أمراءها ووزراءها وأكابر دولتها إلى مشورتها ﴿ قالت يا أيُّها الملأُ إني أُلقي إليّ كتابٌ كريم ﴾ ثم قرأت عليهم عنوانه أولاً ﴿ إنَّه مِن سُلَيْمَانَ ﴾ ثم قرأته ﴿ وإنَّه بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ ألا تغفلوا عني وأتوني مسلمين ﴿ ثم شاورتهم في أمرها وما قد حل بها وتأدبت معهم وخاطبتهم وهم يسمعون : ﴿ قالت يا أيُّها الملأُ أفتوني في أمري ما كُنتُ قاطعةً أمراً حتَّى تشهدون ﴾ تعني ما كنت لأبت أمراً إلا وأنتم حاضرون ﴿ قالوا نحن أولوا قوَّةٍ وأولوا بأسٍ شديد ﴾ يعنون لنا قوة وقدرة على الجلال والقتال ومقاومة الأبطال ، فإن أردت منا ذلك فإننا عليه من القدارين ﴿ ومع هذا ﴾ الإمبرُ إليكَ فأنظري ماذا تأمرين ﴿ فبدلوا لها السمع والطاعة ، وأخبروها بما عندهم من الاستطاعة ، وفوضوا إليها في ذلك الأمر لترى فيه ما هو الأرشد لها ولهم .

فكان رأيها أتم وأشد من رأيهم ، وعلمت أن صاحب هذا الكتاب لا يغالب ولا يمانع ولا يخالف ولا يخادع ﴿ قالت إنَّ الملوك إذا دخلوا قريةً أَفسدوها وجعلوا أعزةً أهلها أذلةً ، وكذلك يفعلون ﴾ تقول برأيها السديد : إن هذا الملك لو قد غلب على هذه المملكة لم يخلص الأمر من بينكم إلا إليّ ولم تكن الحدة والشدة والسطوة البليغة إلا عليّ ﴿ وإني مُرسلةٌ إليهم بهديَّةٍ فناظرةٌ بهم يَرْجِعُ المرسلون ﴾ أرادت أن تصانع عن نفسها . وأهل مملكتها بهدية ترسلها وتحف تبعثها . ولم تعلم أن سليمان عليه السلام لا يقبل منهم والحالة هذه صرفاً ولا عدلاً ، لأنهم كافرون ، وهو وجنوده عليهم قادرون .

ولهذا : ﴿ لما جاء سُلَيْمَانُ قالَ آمَدُوتَنِي بِمَالٍ فَمَا آتَانِي اللهُ خَيْرَ مِمَّا آتَاكُم بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ

تَفْرَحُونَ ﴿^(١)﴾ هذا وقد كانت تلك الهدايا مشتملة على أمور عظيمة ، ذكره المفسرون .

ثم قال لرسولها إليه ووافدها الذي قدم عليه والناس حاضرون يسمعون : ﴿ ارجع إليهم قلنايتيئهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون ﴾ يقول ارجع بهديتك التي قدمت بها إلى من قد منّ بها فإن عندي مما قد أنعم الله على وأسداه إلى من الأموال والتحف والرجال ما هو أضعاف هذا وخير من هذا الذي أنتم تفرحون به وتفخرون على أبناء جنسكم بسببه ﴿ فلنايتيئهم بجنود لا قبل لهم بها ﴾ أي فلأبعث إليهم بجنود لا يستطيعون دفاعهم ولا نزالهم ولا ممانعتهم ولا قتالهم ، ولأخرجهم من بلادهم وحوزتهم ومعاملتهم ودولتهم أذلة ﴿ وهم صاغرون ﴾ عليهم الصغار والعار والدمار .

فلما بلغهم ذلك عن نبي الله لم يكن لهم بد من السمع والطاعة ، فبادروا إلى إجابته في تلك الساعة وأقبلوا صحبة الملكة أجمعين سامعين مطيعين خاطعين . فلما سمع بقدمهم عليه ووفودهم إليه قال لمن بين يديه من هو مسخر له من الجان ماقصه الله عنه في القرآن : ﴿ قال يا أيها الملأ أيتكم يأتيني بعرضها قبل أن يأتوني مسلمين ﴾ * قال عِفْرِيْتُ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ ، وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ * قال الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ، فَلَمَّا رَأَهُ مُسْتَقَرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ، وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ، وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ * قال نَكُرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ * فلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكَ ، قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ ، وَأَوْتَيْنَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ * وصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ * قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ ، فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا ، قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُسَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ ، قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿^(١)﴾ .

لما طلب سليمان من الجان أن يحضروا له عرش بلقيس ، وهو سرير مملكتها التي تجلس عليه وقت حكمها ، قبل قدومها عليه ﴿ قال عِفْرِيْتُ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ ﴾ يعني قبل أن ينقضي مجلس حكمك ، وكان فيما يقال من أول النهار إلى قريب الزوال يتصدى لمهمات بني إسرائيل وما لهم من الأشغال ﴿ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴾ أي وإني لندو قدرة على إحضاره إليه وأمانة على ما فيه من الجواهر النفسية لديك ﴿ قال الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ

(٢) سورة البمل آيات ٣٨ - ٤٤ .

(١) سورة البمل الآية ٣٦ .

الكتاب ۞ المشهور أنه آصف بن برخيا وهو ابن خالة سليمان . وقيل هو رجل من مؤمني الجان ، كان فيما يقال يحفظ الاسم الأعظم . وقيل رجل من بني إسرائيل من علمائهم وقيل : إنه سليمان ، وهذا غريب جداً . وضعفه السهيلي بأنه لا يصح في سياق الكلام . قال : وقد قيل فيه قول رابع وهو : جبريل : ﴿ أَتَيْكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾ قيل معناه قبل أن تبعث رسولاً إلى أقصى ما ينتهي إليه طرفك من الأرض ثم يعود إليك . وقيل قبل أن يصل إليك أبعد من تراه من الناس . وقيل قبل أن يكل طرفك إذا أدمت النظر به قبل أن تطبق جفنك . وقيل قبل أن يرجع إليك طرفك إذا نظرت به إلى أبعد غاية منك ثم أغمضته . وهذا أقرب ما قيل .

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ ﴾ أي فلما رأى عرش بلقيشاً عنده في هذه المدة القريبة من بلاد اليمن إلى بيت المقدس في طرفه عين ﴿ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ﴾ أي هذا من فضل الله على وفضله على عبده ليختبرهم على الشكر أو خلافه ﴿ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ﴾ أي إنما يعود نفع ذلك عليه ﴿ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾ أي غني عن شكر الشاكرين ولا يتضرر بكفر الكافرين .

ثم أمر سليمان عليه السلام أن يغير حلي هذا العرش وينكر لها لتختبر فهمها وعقلها ولهذا قال : ﴿ تَنْظُرُ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ فلما جاءت قيل أهكذا عرشك ، قالت كائنه هو ۞ وهذا من فطنتها وغزارة فهمها ، لأنها استبعدت أن يكون عرشها بلأنها خلفته وراءها بأرض اليمن ، ولم تكن تعلم أن أحداً يقدر على هذا الصنع العجيب الغريب ، قال الله تعالى إخباراً عن سليمان وقومه : ﴿ وَأَوْتَيْنَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴾ وصدها ما كانت تقبض من دون الله ، إنها كانت من قوم كافرين ۞ أي ومنعها عبادة الشمس التي كانت تسجد لها هي وقومها من دون الله اتباعاً لدين آبائهم وأسلافهم لا لدليل قادم إلى ذلك ولا حادهم على ذلك .

وكان سليمان قد أمر ببناء صح من زجاج وعمل في ممره ماء ، وجعل عليه سقفاً من زجاج ، وجعل فيه السمك وغيرها من داوب الماء ، وأمرت بدخول الصرح وسليمان جالس على سريره فيه ﴿ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا ﴾ قال إنه صرح ممره من قواريير ، قالت رب إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين ۞ وقد قيل إن الجن أرادوا أن يشعروا منظرها عند سليمان وأن تبسدى عن ساقها ليرى ما عليها من الشعر فينفروا ذلك

منها ، وخشوا أن يتزوجها لأن أمها من الجان فتسلط عليهم معه . وذكر بعضهم أن حاقرها كان كحافر الدابة وهذا ضعيف وفي الأول نظر .. والله أعلم .

إلا أن سليمان قيل إنه لما أراد إزالته حين عزم على تزوجها سأل الإنس عن زواله فذكروا له موسى ، فامتنت من ذلك فسأل الجان فصنعوا له النورة ، ووضعوا له الحمام ، فكان أول من دخل الحمام ، فلما وجد مسه قال : أوه من عذاب أوه قبل أن لاينفع أوه .

وقد ذكر الثعلبي وغيره أن سليمان لما تزوجها أقرها على مملكة الين وردها إليه ، كان يزورها في كل شهر مرة فيقيم عندها ثلاثة أيام ثم يعود على البساط ، وأمر الجان فبنوا له ثلاثة قصور بالين : غمدان وسالحين وبيتون .. فאלله أعلم .

وقد روى ابن إسحاق عن بعض أهل العلم عن وهب بن منبه أن سليمان لم يتزوجها بل زوجها بملك همدان وأقرها على ملك الين وسخر زوبعة ملك الين فبنى لها القصور الثلاثة التي ذكرناها بالين ، والأول أشهر وأظهر .. والله أعلم .

وقال تعالى في سورة ص : ﴿ وَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ ، نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ بِالْعَشيِّ الصَّافِنَاتِ الْجِيَادَ ﴿ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي ، حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴾ رَدُّهَا عَلَيَّ ، فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ ﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لَا يَنْبَغِي لِأَخِي مِنْ بَعْدِي ، إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾ فَسَخَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رِخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿ وَآخَرِينَ مَقْرَنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ ﴿ (١) .

يذكر تعالى أنه وهب لداود سليمان عليهما السلام ، ثم أثني الله تعالى عليه فقال : ﴿ نِعْمَ الْعَبْدُ ، إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ أي رجاع مطيع لله ، ثم ذكر تعالى ما كان من أمره في الخيل الصافنات وهي التي تقف على ثلاثة وطرف حافر الرابعة ، الجياد وهي المضرة السراع .

﴿ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي ، حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴾ يعني الشمس . وقيل الخيل على ما سنذكره من القولين ﴿ رَدُّهَا عَلَيَّ ، فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴾ قيل

(١) سورة ص آيات ٣٠ - ٤٠ .

مسح عراقيبها وأعناقها بالسيوف . وقيل مسح عنها العرق لما أجراها وسابق بينها بين يديه على القول الآخر .

والذي عليه أكثر السلف الأول ، فقالوا اشتغل بعرض تلك الخيول حتي خرج وقت العصر وغربت الشمس . وروى هذا عن علي بن أبي طالب وغيره . والذي يقطع به أنه لم يترك الصلاة عمداً من غير عذر ، اللهم إلا أن يقال إنه كان سائغاً في شريعتهم ، فأخر الصلاة لأجل أسباب الجهاد وعرض الخيل من ذلك .

وقد ادعي طائفة من العلماء في تأخير النبي ﷺ صلاة العصر يوم الخندق أن هذا كان مشروعاً إذ ذاك حتى نسخ بصلاة الخوف ، قاله الشافعي وغيره . وقال مكحول والأوزاعي : بل هو حكم محكم إلى اليوم أنه يجوز تأخيرها بعذر القتال الشديد ، كما ذكرنا تقرير ذلك في سورة النساء عند صلاة الخوف . وقال آخرون : بل كان تأخير النبي ﷺ صلاة العصر يوم الخندق نسياناً وعلى هذا فيحمل فعل سليمان عليه السلام على هذا .. والله أعلم .

وأما من قال : الضمير في قوله : ﴿ حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴾ عائد على الخيل وأنه لم تنته وقت صلاة وأن المراد بقوله : ﴿ رَدُّوْهَا عَلَيَّ ﴾ ، فطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴾ يعني مسح العرق عن عراقيبها وأعناقها ، فهذا القول اختاره ابن جرير ، ورواه الوالي عن ابن عباس في مسح العرق . ووجه هذا القول ابن جرير بأنه ما كان ليعذب الحيوان بالعرقبة ويهلك ما لا بلا سبب ولا ذنب لها ، وهذا الذي قاله فيه نظراً لأنه قد يكون هذا سائغاً في ملتهم وقد ذهب بعض علمائنا إلى أنه إذا خاف المسلمون أن يظفر الكفار على شيء من الحيوانات من أغنام ونحوها جاز ذبحها وإهلاكها لئلا يتقوا بها ، وعليه حمل صنيع جعفر بن أبي طالب يوم عقر فرسه بمؤنة . وقد قيل إنها كانت خيلاً عظيمة . قيل كانت عشرة آلاف فرس . وقيل كانت عشرين ألف فرس . وقيل كان فيها عشرون فرساً من ذوات الأجنحة .

وقد روي أبو داود في سننه : حدثنا محمد بن عوف ، حدثنا سعيد بن أبي مریم ، أنبأنا يحيى ابن أيوب ، حدثني عمارة بن غزية ، أن محمد بن إبراهيم حدثه عن محمد بن أبي سلمة بن عبد الرحمن ، عن عائشة قالت : قدم رسول الله ﷺ من غزوة تبوك أو خيبر وفي سهوتها . ستر ، فهبت الريح فكشفت ناحية الستر عن بنات لعائشة لعب فقال : « ما هذا يا عائشة ؟ » فقالت : بناتي . ورأى بينهن فرساً له جناحان من رقاع . فقال : « ما هذا الذي أرى »

وسطهن « ؟ قالت : فرس . قال : « وما الذي عليه هذا » ؟ قالت : جناحان . قال : « فرس له جناحان » ؟ قالت : أما سمعت أن لسليمان خيلاً لها أجنحة ؟ قالت : فضحك حتى رأيت نواجذه ﷺ .

قال بعض العلماء : لما ترك الخيل لله عوضه الله عنها بما هو خير له منها ، وهو الريح التي كانت غدوها شهر ورواحها شهر ، كما سيأتي الكلام عليها .

كما قال الإمام أحمد : حدثنا إسماعيل ، حدثنا سليمان بن المغيرة ، عن حميد بن هلال ، عن أبي قتادة وأبي الدهماء ، وكانا يكثران السفر نحو البيت قلاً : أتينا على رجل من أهل البادية فقال البدوي : أحذ بيدي رسول الله ﷺ فعل يعلمني مما علمه الله عز وجل وقال : « إنك لاتدع شيئاً اتقاء الله عز وجل إلا أعطاك الله خيراً منه » .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ ﴾ .

ذكر ابن جرير وابن أبي حاتم وغيرهما من المفسرين هاهنا آثاراً كثيرة عن جماعة من السلف ، وأكثرها أو كلها متعلقة من الإسرائيليات ، وفي كثير منها نكارة شديدة ، وقد بهنا على ذلك في كتابنا التفسير واقتصرنا هاهنا على مجرد التلاوة .

ومضون ما ذكره أن سليمان عليه السلام غاب عن سريره أربعين يوماً ثم عاد إليه ، ولما عاد أمر ببناء بيت المقدس فبناه بناء محكماً ، وقد قدمنا أنه جده وأن أول من جعله مسجداً إسرائيل عليه السلام ، كما ذكرنا ذلك عند قول أبي ذر . قلت : يارسول الله .. أي مسجد وضع أول ؟ قال : « المسجد الحرام » قلت : ثم أي ؟ قال : « مسجد بيت المقدس » ، قلت : كم بينهما ؟ قال : « أربعون سنة » .

ومعلوم أن بين إبراهيم الذي بني المسجد الحرام وبين سليمان بن داود عليهما السلام أزيد من ألف سنة دع أربعين سنة ، وكان سؤاله الملك الذي لا ينبغي لأحد من بعده إكمال البيت المقدس ؟ قال الإمام أحمد والنسائي وابن ماجه وابن خزيمة وابن حبان والحاكم بأسانيدهم عن عبد الله بن فيروز الديلمي ، عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، قال : قال رسول الله ﷺ : « ان سليمان لما بني بيت المقدس سأل ربه عز وجل خلافاً ثلاثاً ، فأعطاه اثنتين ، ونحن نرجو أن تكون لنا الثالثة : سألته حكماً يصادف حكمه ، فأعطاه إياه ، وسألته ملكاً لا ينبغي لأحد من

بعده فأعطاه إياه ، وسأله أيما رجل خرج من بيته لا يريد إلا الصلاة في هذه المسجد خرج من خطيئته مثل يوم ولدته أمه . فنحن نرجو أن يكون الله قد أعطانا إياها .

فأما الحكم الذي يوافق حكم الله تعالى فقد أثني الله تعالى عليه وعلى أبيه في قوله : ﴿ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَخُذَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتِ فِيهِ غَمُّ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴾ * فَفَهْمَانَهَا سُلَيْمَانَ ، وَكَلَّا أَتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴿ ^(١) وقد ذكر شريح القاضي وغير واحد من السلف أن هؤلاء القوم كان لهم كرم فنفتت فيه غم قوم آخرين ، أي رعته بالليل فأكلت شجرة فأكلت ، فتحاكوا إلى داود عليه السلام فحكم لأصحاب الكرم بقيته فلما خرجوا على سليمان قال : بم حكم لك نبي الله ؟ فقالوا : بكذا وكذا ، فقال : أما لو كنت أنا لما حكمت إلا بتسليم الغم إلى أصحاب الكرم فيستغلونها نتاجاً ودرأً حتى يصلح أصحاب الغم كرم أولئك ويردوه إلى ما كان عليه ، ثم يتسلموا عنهم ، فبلغ داود عليه السلام ذلك فحكم به .

وقريب من هذا ما ثبت في الصحيحين من حديث أبي الزناد ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « بينا امرأتان معهما ابناهما إذ عدا الذئب فاخذ ابن إحداهما فتنازعتا في الآخر فقالت الكبرى : إنما ذهب بابنك . وقالت الصغرى : بل إنما ذهب بابنك . فتحاكتا إلى داود فحكم به للكبرى ، فخرجتا على سليمان فقال : آتوني بالسكين أشقه نصفين لكل واحدة منك نصفه . فقالت الصغرى : يرحمك الله هو ابنها . فقضى به لها » .

ولعل كل من الحكمين كان سائفاً في شريعتهم ، ولكن ما قاله سليمان أرجح ، ولهذا أثني الله عليه بما ألهمه إياه بعد ذلك إياه فقال : ﴿ وَكَلَّا أَتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ، وَسَخَرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالِ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ ، وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ * وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُخَفِّضَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ ، قَهْلَ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴿ ^(٢) .

ثم قال : ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً ﴾ ^(٣) أي وسخرنا لسليمان الريح عاصفة ﴿ تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ، وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ ﴾ * وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَفُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ ، وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ ﴿ ^(٤) .

وقال في صورة ص : ﴿ فَسَخَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴾ * وَالشَّيَاطِينَ

(١) سورة الأنبياء آيتا ٧٨ ، ٧٩ .

(٢) الأنبياء الآيات ٧٩ ، ٨٠ .

(٣) الأنبياء الآية ٨١ .

(٤) الأنبياء الآية ٨٢ .

كُلُّ بَنَاءٍ وَغَوَّاصٍ * وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ * هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْنِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ *
وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ * ^(١) .

لما ترك الخيل ابتغاء وجه الله عوضه الله منها الريح التي هي أشرع سيراً وأقوى وأعظم ولا

كلفة عليه لها * تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ * أي حيث أراد من أي البلاد ، كان له بساط مركب من أخشاب بحيث إنه يسع جميع ما يحتاج إليه من الدور المبنية والقصور والخيام والأمتعة والخيول والجمال والأثقال والرجال من الإنس والجان ، وغير ذلك من الحيوانات والطيور فإذا أراد سافراً أو مستنزهاً أو قتال ملك أو أعداء من أي بلاد الله شاء ، فإذا حل هذه الأمور المذكورة على البساط أمر الريح فدخلت تحته فرفعته فإذا استقل بين السماء والأرض أمر الرخاء فسارت به ، فإن أراد أسرع من ذلك أمر العاصفة فحملته أسرع ما يكون فوضعت في أي مكان شاء ، بحيث إنه كان يرتحل في أول النهار من بيت المقدس فتغدو به الريح فتضعه ياصطخر مسيرة شهر فيقيم هناك إلى آخر النهار ، ثم يروح من آخره فترده إلى بيت المقدس .

كما قال تعالى : * وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحُ غَدُوها شَهْرٌ وَرَوَاحُها شَهْرٌ ، وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ ،
وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ ، وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ
السَّعِيرِ * يَفْعَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ ، عَمَلُوا
آلَ دَاوُدَ شُكْرًا ، وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ * ^(٢) .

قال الحسن البصري : كان يغدو من دمشق فينزل ياصطخر فيتغدى بها ويذهب رائحاً منها
فيبيت بكابل وبين دمشق وبين اصطخر مسيرة شهر وبين اصطخر وكابل مسيرة شهر .

قلت : قد ذكر المتكلمون على العمران والبلدان أن اصطخر بنتها الجان لسليمان وكان فيها
قرار مملكة الترك قديماً وكذلك غيرها من بلدان شتى كتدمر وبيت المقدس وباب جيرون
وباب البريد اللذان بدمشق على أحد الأقوال .

وأما القطر فقال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وقتادة وغير واحد : هو النحاس . قال قتادة

(١) ص الآيات ٣٦ - ٤٠

(٢) سآ الآيات ١٢ ، ١٣

وكانت بالين أنبعها الله له . قال السدي : ثلاثة أيام فقط أخذ منها جميع ما يحتاج إليه للبنائات وغيرها .

وقوله : ﴿ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَفْعَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ ، وَمَن يَزِغُ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾ أي وسخر الله له من الجن عمالاً يعملون له ما يشاء لا يفترون ولا يخرجون عن طاعته ومن خرج منهم عن الأمر عذبه ونكل به ﴿ يَفْعَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَّحَارِبٍ ﴾ وهي الأماكن الحسنة وصدور المجالس ﴿ وَتَمَائِيلَ ﴾ وهي الصور في الجدران ، وكان هذا سائغاً في شريعتهم وملتهم ﴿ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ ﴾ قال ابن عباس : الجفنة كالجوبة من الأرض ، وعنه كالخياض . وكذا قال مجاهد والحسن وقتادة والضحاك وغيرهم . وعلى هذه الرواية يكون الجواب جمع جابية وهي الحوض الذي يجي فيه الماء ، قال الأعتى :

تروح على ال الحلق جفنة كجابية الشيخ العراقي تفهق
وأما القدور الراسيات فقال عكرمة : أثافيها منها ، يعني أنهم ثوابت لا يزلن عن أماكنهن ، وهكذا قال مجاهد وغير واحد .

ولما كان هذا بصدد إطعام الطعام والإحسان إلى الخلق من إنسان وحيوان قال تعالى :
« اَعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا ، وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ .

وقال تعالى : « وَالشَّيَاطِينُ كُلٌّ بَنَاءٌ وَغَوَاصٍ » وآخرين مقررين في الأصْفَادِ ﴿ ^(١) أي قد عصوا فقيدوا مقررين اثنين اثنين في الأصْفَادِ وهي القيود ، وهذا كله من جملة ما هيأه الله وسخر له من الأشياء التي هي من تمام الملك الذي لا ينبغي لأحد من بعده ولم يكن أيضاً لمن كان قبله .

وقد قال البخاري : حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة ، عن محمد ابن زياد ، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « إن عفريتاً من الجن تفلت على الباسحة ليقطع على صلاتي فأمكنني الله منه فأخذته فأردت أن أربطه إلى سارية من سواري المسجد حتى تنظروا إليه كلكم فذكرت دعوة أخي سليمان : ﴿ رَبِّ اغْصِرْ لِي وَهْبٌ لِّي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي ﴾ ، فردته خاسئاً » .

(٢) سورة ص آيتا ٢٧ - ٢٨ .

وكذا رواه مسلم والنسائي من حديث شعبة .

وقال مسلم : حدثنا محمد بن سلمة المرادي ، حدثنا عبد الله بن وهب عن معاوية بن صالح ، حدثني ربيعة بن يزيد ، عن أبي إدريس يصلي فسمعناه يقول : « أعوذ بالله منك .. ألعنك بلعة الله » ثلاثاً ، وبسط يده كأنه يتناول شيئاً ، فلما فرغ من الصلاة قلنا : يا رسول الله .. قد سمعناك تقول في الصلاة شيئاً لم نسمعك تقوله قبل ذلك ، ورأيناك بسطت يدك قال : « إن عدو الله إبليس جاء بشهاب من نار ليضعه في وجهي فقلت : أعوذ بالله منك ثلاث مرات ، ثم قلت : ألعنك بلعة الله التامة . فلم يستأخر ثلاث مرات ، ثم أردت أخذه ، والله لولا دعوة أخينا سليمان لأصبح موثقاً يلعب به ولدان أهل المدينة » .

وكذا رواه النسائي عن محمد بن سلمة به .

وقال أحمد : حدثنا أبو أحمد ، حدثنا مرة بن معبد ، حدثنا أبو عبيد حاجب سليمان قال : رأيت عطاء بن يزيد الليثي قائماً يصلي ، فذهبت أمر بين يديه فردني ثم قال : حدثني أبو سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قام فصلّى صلاة الصبح وهو خلفه فقراً فالتبست عليه القراءة . فلما فرغ من صلاته قال : « لو رأيتموني وإبليس فأهويت بيدي فما زلت أختفه حتى وجدت برد لعابه بين أصبعي هاتين الإبهام والتي تليها ، ولولا دعوة أخي سليمان لأصبح مربوطاً بسارية من سواري المسجد يتلاعب به صبيان المدينة ، فن استطاع معكم ألا يحول بينه وبين القبلة أحد فليفعل » .

روى أبو داود منه « فن استطاع » إلى آخره عن أحمد بن سريج عن أحمد الزبيري به .

وقد ذكر غير واحد من السلف أنه كانت لسليمان من النساء ألف امرأة سبعائة بمههور وثلاثائة سراى . وقيل بالعكس ثلاثمائة حرائر وسبعائة من الإماء ، وقد كان يطيق من التمتع بالنساء أمراً عظيماً جداً .

قال البخاري : حدثنا خالد بن مخلد ، حدثنا مغيرة بن عبد الرحمن عن أبي الزناد ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : « قال سليمان بن داود : لأطوفن الليلة على سبعين امرأة تحمل كل امرأة فارساً يجاهد في سبيل الله فقال له صاحبه : إن شاء الله . فلم يقل فلم تحمل شيئاً إلا واحداً ساقطاً أحد شقيه » . فقال النبي ﷺ : « لو قالها لحاهدوا في سبيل الله » .

وقال شعيب وابن أبي الزناد : تسعين وهو أصح . تفرد به البخاري من هذا الوجه .

وقال أبو يعلى : حدثنا زهير ، حدثنا يزيد ، أنبأنا هشام بن حسان عن محمد ، عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « قال سليمان بن داود : لأطوفن الليلة على مائة امرأة كل امرأة منهن ولد غلاماً يضرب بالسيف في سبيل الله . ولم يقل إن شاء الله ، فطاف تلك الليلة على مائة امرأة فلم تلد منهن امرأة إلا امرأة ولدت نصف إنسان » فقال رسول الله ﷺ : « لو قال إن شاء الله لولدت كل امرأة منهن غلاماً يضرب بالسيف في سبيل الله عز وجل » .

إسناده على شرط الصحيح ولم يخرجوه من هذا الوجه .

وقال الإمام أحمد : حدثنا هشيم ، حدثنا هشام ، عن ابن سيرين ، عن أبي هريرة قال : قال سليمان بن داود : لأطوفن الليلة على مائة امرأة تلد كل واحدة منهن غلاماً يقاتل في سبيل الله ، ولم يستثن . فما ولدت إلا واحدة منهن بشق إنسان . قال : رسول الله ﷺ : « لو استثنى لولد له مائة غلام كلهم يقاتل في سبيل الله عز وجل » . تفرد به أحمد أيضاً .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، أنبأنا معمر ، عن ابن طاووس ، عن أبيه ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « قال سليمان بن داود : لأطوفن الليلة بمائة امرأة تلد كل امرأة منهن غلاماً يقاتل في سبيل الله ، قال : ونسى أن يقول إن شاء الله ، فأطاف بهن . قال : فلم تلد منهن امرأة إلا واحدة نصف إنسان » . فقال رسول الله ﷺ : « لو قال إن شاء الله لم يحنث وكان دركاً لحاجته » .

وهكذا أخرجاه في الصحيحين من حديث عبد الرزاق به مثله .

قال إسحاق بن بشر : أنبأنا مقاتل ، عن أبي الزناد ، وابن أبي الزناد عن أبيه ، عن عبد الرحمن ، عن أبي هريرة ، أن سليمان بن داود كان له أربع مائة امرأة وستائة سريّة فقال يوماً : لأطوفن الليلة على ألف امرأة فتحمل كل واحدة منهن بفارس يجاهد في سبيل الله . ولم يستثن ، فطاف عليهن فلم تحمل واحدة منهن إلا امرأة واحدة منهن جاءت بشق إنسان .

فقال النبي ﷺ : « والذي نفسي بيده لو استثنى فقال إن شاء الله لولد له ما قال فرسار ولجاهدوا في سبيل الله عز وجل » .

وهذا إسناد ضعيف لحال إسحاق بن بتر ، فإنه منكر الحديث ولا سيما وقد خالف الروايات الصحاح . .

وقد كان له عليه السلام من أمور الملك واتساع الدولة وكثرة الجنود وتنوعها ما لم يكن لأحد قبله ، ولا يعطيه الله أحداً بعده كما قال : ﴿ وَأَوْتَيْنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ ^(١) ، ﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي ، إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾ ^(٢) وقد أعطاه الله ذلك بنص الصادق المصدق .

ولما ذكر تعالى ما أنعم به عليه وأسده من النعم الكاملة العظيمة إليه قال : ﴿ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ أي أعط من شئت واحرم من شئت ، فلا حساب عليك أي تصرف في المال كيف شئت فإن الله قد سوغ لك ما تفعله من ذلك ولا يحاسبك على ذلك ، وهذا شأن النبي الملك بخلاف العبد الرسول ، فإن من شأنه ألا يعطي أحداً إلا بإذن الله له في ذلك .

وقد خير نبينا محمد صلوات الله وسلامه عليه بين هذين المقامين فاختر أن يكون عبداً رسولاً . وفي بعض الروايات أنه استشار جبريل في ذلك فأشار إليه أن تواضع . فاختر أن يكون عبداً رسولاً صلوات الله وسلامه عليه وقد جعل الله الخلافة والملك من بعده في أمته إلى يوم القيامة فلا تزال طائفة من أمته ظاهرين حتى تقوم الساعة .. فله الحمد والمهنة .

ولما ذكر تعالى ما وهبه لنبيه سليمان عليه السلام من خير الدنيا نبه على ما أعده له في الآخرة من الثواب الجزيل والأجر الجميل والقربة التي تقربه إليه والفوز العظيم والإكرام بين يديه ، وذلك يوم المعاد والحساب حيث يقول تعالى : ﴿ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ ^(٣) .

حياته ووفاته

قال الله تبارك وتعالى : ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ ، فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنَّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبِ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴾ ^(٤) .

(٢) سورة ص الآية ٢٥

(١) سورة المل الآية ١٦ .

(٣) سورة ساء الآية ١٤ :

روى ابن جرير وابن أبي حاتم وغيرهما من حديث إبراهيم ابن طهمان ، عن عطاء بن السائب ، عن سعيد بن جبيرة ، عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال : « كان سليمان نبي الله عليه السلام إذا صلى رأى شجرة نابتة بين يديه يقول لها : ما اسمك ؟ فتقول كذا . فيقول : لأي شيء أنت ؟ فإن كانت لغرس غرست وإن كانت لدواء أنبتت . فبينما هو يصلي ذات يوم إذ رأى شجرة بين يديه فقال لها : ما اسمك ؟ قالت : الخروب . قال : لأي شيء أنت ؟ قالت : لخراب هذا البيت . فقال سليمان : اللهم عمّ على الجن موتى حتى تعلم الإنس أن الجن لا يعلمون الغيب . فنحتها عصاً فتوكلت عليها حولاً والجن تعمل ، فأكلتها الأرضة فتبينت الإنس أن الجن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا حولاً في العذاب المهين . قال : - وكان ابن عباس يقرؤها كذلك - فشكرت الجن للأرضة فكانت تأتيها بالماء » .

لفظ ابن جرير . وعطاء الخرساني في حديثه نكارة .

وقد رواه الحافظ ابن عساكر من طريق سلمة بن كهيل ، عن سعيد بن جبيرة ، عن ابن عباس موقوفاً . وهو أشبه بالصواب .. والله أعلم .

وقال السدي في خبر ذكره عن أبي مالك وعن أبي صالح ، عن ابن عباس ، وعن أناس من الصحابة : كان سليمان عليه السلام يتجرد في بيت المقدس السنة والسنتين والشهر والشهرين وأقل من ذلك وأكثر يدخل طعامه وشرابه . فأدخله في المرة التي توفي فيها فكان بدء ذلك أنه لم يكن يوم يصبح فيه إلا نبتت في بيت المقدس شجرة فيأتيها فيسألها ما اسمك ؟ فتقول الشجرة : اسمي كذا وكذا . فيجعلها كذلك حتى نبتت شجرة يقال لها الخروبة ، فسألها ما اسمك ؟ فقالت : أنا الخروبة . فقال : ولأي شيء نبت ؟ فقالت : نبت لخراب هذا المسجد ، فقال سليمان : ما كان الله ليخربه وأنا حي ، أنت التي على وجهك هلاكي وخراب بيت المقدس . فنزعها وعرسها في حائط له . ثم دخل المخراب فقام يصلي متكئاً على عصاه فمات ولم تعلم به الشياطين . وهم في ذلك يعملون له يخافون أن يخرج فيعاقبهم ، وكانت الشياطين تجتمع حول المخراب ، وكان المخراب له كوى بين يديه وخلفه . فكان الشيطان الذي يريد أن يخلع يقول : أأست جليداً إن دخلت فخرجت من ذلك الجانب . فيدخل حتى يخرج من الجانب الآخر . فدخل شيطان من أولئك فرمى ولم يكن شيطان ينظر إلى سليمان عليه السلام وهو في المخراب إلا احترق ، فلم يسمع صوت سليمان ، ثم رجع فلم يسمع ثم رجع فوقع في البيت ولم يحترق ونظر إلى سليمان عليه السلام قد سقط ميتاً ، فخرج فأخبر الناس أن سليمان قد مات ،

ففتحوا عنه فأخرجوه ووجدوا منسأته - وهي العصا بلسان الحبشة - قد أكلتها الأرضة ولم يعلموا منذ كم مات فوضعوا الأرضة على العصا فأكلت منها يوماً وليلة ، ثم حسبوا على ذلك النحو فوجدوه قد مات منذ سنة ، وهي قراءة ابن مسعود : فكثوا يدأبون له من بعد موته حولا كاملاً فأيقن الناس عند ذلك أن الجن كانوا يكذبون ولو أنهم علموا الغيب لعلموا بموت سليمان ولم يلبثوا في العذاب سنة يعملون له ذلك ، وذلك قول الله عز وجل : ﴿ مَا ذَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ ، فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّو كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴾ يقول : تبين أمرهم للناس أنهم كانوا يكذبونهم ، ثم إن الشياطين قالوا للأرضة : لو كنت تأكلين الطعام لأتيناك بأطيب الطعام ، ولو كنت تشربين الشراب سقيناك أطيب الشراب ، ولكننا سننقل إليك الماء والطين . قال : فإنهم ينقلون إليها ذلك حيث كانت . قال : ألم تر إلى الطين الذي يكون في جوف الخشب فهو ما يأتيها به الشيطان تشكراً لها .

وهذا فيه من الإسرائيليات التي لا تصدق ولا تكذب .

وقال أبو داود في كتاب القدر : حدثنا عثمان بن أبي شيبة ، حدثنا قبيصة ، حدثنا سفيان ، عن الأعمش ، عن خيثمة ، قال : قال سليمان بن داود عليها السلام لملك الموت : إذا أردت أن تقبض روحي فأعلمني ، قال : ما أنا أعلم بذلك منك إنما هي كتب يلقي إلي فيها تسمية من يموت .

وقال أصبغ بن الفرج وعبد الله بن وهب ، عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قال : قال سليمان لملك الموت : إذا أمرت بي فأعلمني ، فأتاه فقال : يا سليمان .. قد أمرت بك قد بقيت لك سوية . فدعا الشياطين فبنوا عليه صرحاً من قوارير ليس له باب ، فقام يصلي فاتكأ على عصاه قال : فدخل عليه ملك الموت فقبض روحه وهو متوكئ على عصاه ولم يصنع ذلك فراراً من ملك الموت . قال والجن تعمل بين يديه وينظرون إليه يحسبون أنه حي ، قال : فبعث الله دابة الأرض - يعني إلى منسأته - فأكلتها حتى إذا أكلت جوف العصا ضعفت وثقل عليها فخر فلما رأت الجن ذلك انفضوا وذهبوا . قال : فذلك قوله : ﴿ مَا ذَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ ، فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّو كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴾ .

قال أصبغ : وبلغني عن غيره أنها مكثت سنة تأكل من منسأته حتى خر . وقد روى نحو هذا عن جماعة من السلف وغيرهم .. والله تعالى أعلم .

قال إسحاق بن بشر عن محمد بن إسحاق ، عن الزهري وغيره أن سليمان عليه السلام عاش اثنتين وخمسين سنة وكان ملكه أربعين سنة . وقال إسحاق : أنبأنا أبو روق ، عن عكرمة ، عن ابن عباس أن ملكه كان عشرين سنة .. والله أعلم . وقال ابن جرير : فكان جميع عمر سليمان ابن داود عليها السلام نيافاً وخمسين سنة . .

وفي سنة أربع من ملكه ابتداء ببناء المقدس فيما ذكر ثم ملك بعده ابنه رجبعام مدة سبع عشرة سنة فيما ذكره ابن جرير . وقال : ثم تفرقت بعده مملكة بني إسرائيل .



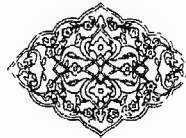
أنبياء بني إسرائيل عليهم السلام بعد داود عليه السلام

فنهض شعيا بن أمصيا . قال محمد بن إسحاق : وكان قبل زكريا ويحيى وهو من بشر بعيسى ومحمد عليهما السلام . وكان في زمانه ملك اسمه حزقيا على بني إسرائيل ببلاد بيت المقدس ، وكان سامعاً مطيعاً لشعيا فيما يأمره به وينهاه عنه من المصالح ، وكانت الأحداث قد عظمت في بني إسرائيل ، فرض الملك وخرجت في رجله قرحة ، وقصد بيت المقدس ملك بابل في ذلك الزمان وهو سنحاريب . قال ابن إسحاق : في ستائة ألف راية .

وفزع الناس فزعاً عظيماً شديداً . وقال الملك للنبي شعيا : ماذا أوحى الله إليك في أمر سنحاريب وجنوده ؟ فقال : لم يوح إليّ فيهم شيء بعد ، ثم نزل عليه الوحي بالأمر للملك حزقيا بأن يوصي وسيتخلف على ملكه يشاء ، فإنه قد اقترب أجله . فلما أخبره بذلك أقبل الملك على القبة فصلى وسبح ودعا وبكى فقال وهو يبكي ويتضرع إلى الله عز وجل بقلب مخلص وتوكل وصبر : اللهم رب الأرباب وإله الآلهة يارحمن يارحيم ، يامن لا تأخذه سنة ولا نوم اذكرني بعملِي وفعلِي وحسن قضائي على بني إسرائيل وذلك كله كان منك فأنت أعلم به من نفسي ، سري وإعلاني لك .

قال : فاستجاب الله له ورحمه وأوحى الله إلى شعيا أن يبشره بأنه قد رحم بكاءه وقد أخرج في أجله خمس عشرة سنة وأنجاه من عدوه سنحاريب فلما قال له ذلك ذهب منه الوجع وانقطع عنه الشر والحزن وخر ساجداً وقال في سجوده : اللهم أنت الذي تعطي الملك من تشاء ، وتنزعه ممن تشاء ، وتعز من تشاء ، عالم الغيب والشهادة ، فأنت الأول والآخر ، والظاهر والباطن ، وأنت ترحم وتستجيب دعوة المضطرين .

فلما رفع رأسه أوحى الله إلى شعيا أن يأمره أن يأخذ ماء التين فيجعله على قرحته فيشفى



ويصبح قد برئ . ففعل ذلك فشفي .

وأرسل الله على جيش سنحاريب الموت فأصبحوا وقد هلكوا كلهم سوى سنحاريب وخمسة من أصحابه منهم يختنصر أرسل ملك بني إسرائيل فجاء بهم فجعلهم في الأغلال وطاف بهم البلاد على وجه التنكيل بهم والإهانة لهم سبعين يوماً ، ويطعم كل واحد منهم كل يوم رغيفين من شعير ، ثم أودعهم السجن وأوحى الله تعالى إلى شعيا أن يأمر الملك بإرسالهم إلى بلادهم ليندروا قومهم ما قد حل بهم ، فلما رجعوا جمع سنحاريب قومه وأخبرهم بما قد كان من أمرهم فقال له السحرة والكهنة : إنا أخبرناك عن شأن ربهم وأنبيائهم فلم تطعنا ، وهي أمة لا يستطيعها أحد من ربهم فكان أمر سنحاريب مما خوفهم الله به . ثم مات سنحاريب بعد سبع سنين :

قال ابن إسحاق : ثم لما مات حزقيا ملك بني إسرائيل مرج أمرهم واختلطت أحداثهم ، وكثر شرهم ، فأوحى الله تعالى إلى شعيا فقام فيهم فوعظهم وذكرهم وأخبرهم عن الله بما هو أهله وأنذرهم بأسه وعقابه إن خالفوه وكذبوه . فلما فرغ من مقالته عدوا عليه وطلبوه ليقتلوه ، فهرب منهم فر بشجرة فانفلتت له فدخل فيها وأدركه الشيطان فأخذ بهدبة ثوبه فأبرزها فلما رأوا ذلك جاءوا بالمنشار فوضعوه على الشجرة فنشروها ونشروه معها ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ^(١) .

أرميا بن حلقيا

وقد قيل إنه الخضر . رواه الضحاك عن ابن عباس . وهو غريب وليس بصحيح .

قال ابن عسكر : جاء في بعض الآثار أنه وقف على دم يحيى بن زكريا وهو يفوز بدمشق فقال : أيها الدم .. فتننت الناس فاسكن . فسكن ورسب حتى غاب .

وقال أبو بكر بن أبي الدنيا : حدثني علي بن أبي مریم ، عن أحمد بن حباب ، عن عبد الله ابن عبد الرحمن قال : قال أرميا : أي رب .. أي عبادك أحب إليك ؟ قال : أكثرهم لي ذكراً ، الذين يشتغلون بذكى عن ذكر الخلائق ، الذي لا تعرض لهم وساوس الفناء ، ولا يحدثون أنفسهم بالبقاء ، الذين إذا عرض لهم عيش الدنيا قلوة وإذا زوى عنهم سروا بذلك ، أولئك أغلهم محبتي وأعطيتهم فوق غاياتهم .

خراب بيت المقدس

وقوله تعالى : ﴿ وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا * ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ، إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا * وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوقَكُنَّ * فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ ، وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا * ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا * إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ ، وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ، فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا * عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ ، وَإِنْ عُذْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ۝ (١) .

وقال وهب بن منبه : أوحى الله إلى نبي من أنبياء بني إسرائيل يقال له أرميا حين ظهرت فيهم المعاصي : أن قم بين ظهرائي قومك فأخبرهم أن لهم قلوباً ولا يفقهون ، وأعيناً ولا يبصرون وأذناً ولا يسمعون ، وإني تذكرت صلاح آبائهم فعطفني ذلك على أبنائهم . فسلهم كيف وجدوا غب طاعتي ، وهل سعد أحد من عصائي بمعصيتي ، وهل شقى أحد من أطاعني بطاعتي ؟ إن الدواب تذكر أوطانها فتزحف إليها وإن هؤلاء القوم تركوا الأمر الذي أكرمت عليه آباءهم والتسوا الكرامة من غير وجهها ، أما أحبارهم فأنكروا حقي ، وأما قراؤهم فعبدوا غيري ، وأما نساكهم فلم ينتفعوا بما علموا ، وأما ولاتهم فكذبوا علي وعلى رجلي ، خزنوا المكر في قلوبهم وعودوا الكذب ألسنتهم ، وإني أقسم بجلالي وعزتي لأهيجن عليهم جيوشاً لا يفقهون ألسنتهم ، ولا يعرفون وجوههم ولا يرحمون بكاءهم ، ولأبعثن فيهم ملكاً جباراً قاسياً له عساكر كقطع السحاب ، ومواكب كأمثال الفجاج ، كأن خفقان راياته طيران النور ، وكأن حمل فرسانه كر العقبان ، يعيدون العمران خراباً ويتركون القرى وحشة ، فياويل إليها وسكانها كيف أذلهم للقتل ، وأسلط عليهم السبا ، وأعيد بعد لجب الأعراس صرخاً ، وبعد صهيل الخيل عواء الذئاب ، وبعد شرفات القصور مساكن السباع ، وبعد ضوء السرج وهج العجاج ، وبالعز الذب وبالنعمة العبودية وأبدلن نساءهم بعد الطيب التراب ، وبالمشي على الزرابي الخشب ، ولأجعلن أجسادهم زبلاً للأرض ، وعظامهم ضاحية للشمس ، ولأدوسنهم بألوان العذاب ، ثم

(١) سورة الإسراء الآيات ٢ - ٨ .

لآمرن السماء فتكون طبقاً من حديد ، والأرض سبيكة من نحاس ، فإن أمطرت لم تنبت الأرض ، وإن أنبتت شيئاً في خلال ذلك فبرحتي للبهائم ، ثم أحبسه في زمان الزرع وأرسله في زمان الحصاد ، فإن زرعوا في خلال ذلك شيئاً سلطت عليه الآفة ، فإن خلس منه شيء نزعته منه البركة ، فإن دعوني لم أجبههم ، وإن سألوا لم أعطهم ، وإن بكوا لم أرحمهم ، وإن تضرعوا صرفت وجهي عنهم . رواه ابن عساكر بهذا اللفظ .

وقال إسحاق بن بشر : أنبأنا إدريس ، عن وهب بن منبه ، قال : إن الله تعالى لما بعث أرمياً إلى بني إسرائيل ، وذلك حين عظمت الأحداث فيهم فعملوا بالمعاصي ، وقتلوا الأنبياء ، طمع بختنصر فيهم وقذف الله في قلبه وحدث نفسه بالمسير إليهم لما أراد الله أن ينتقم به منهم ، فأوحى الله إلى أرميا : إني مهلك بني إسرائيل ومنتقم منهم ، فقم على صخرة بيت المقدس يأتبك أمري وحيي . فقام أرميا فشق ثيابه وجعل الرماد على رأسه وخر ساجداً وقال يارب .. وددت لو أن أمي لم تلدني حين جعلتني آخر أنبياء بني إسرائيل فيكون خراب بيت المقدس وبوار بني إسرائيل من أجلي ، فقال له : ارفع رأسك . فرفع رأسه فبكى ثم قال : يارب .. من تسلط عليهم ؟ فقال : عبدة النيران لا يخافون عقابي ، ولا يرجون ثوابي ، قم يا أرميا فاستمع وحيي أخبرك خبرك وخبر بني إسرائيل : من قبل أن أخلفك اخترتك ، ومن قبل أن أصورك في رحم أمك قدستك ، ومن قبل أن أخرجك من بطن أمك طهرتك ، ومن قبل أن تبلغ نبأتك ، ومن قبل أن تبلغ الأشد اخترتك ولأمر عظيم اجتنبتك ، فقم من الملك تسدده وترشده .

فكان مع الملك يسدده ويأتيه الوحي من الله حتى عظمت الأحداث ، ونسوا ما نجاهم الله به من عدوهم سنحاريب وجنوده ، فأوحى الله إلى أرميا : قم فاقصص عليهم ما أمرك به ، وذكرهم نعمتي عليهم ، وعرفهم أحداثهم . فقال أرميا : يارب .. إني ضعيف إن لم تقويني ، عاجز إن لم تبلغني ، مخطئ إن لم تسددني ، مخذول إن لم تنصرنني ، ذليل إن لم تعزني ، فقال الله تعالى : أو لم تعلم أن الأمور كلها تصدر عن مشيئتي ، وأن الخلق والأمر كله لي ، وأن القلوب والألسنة كلها بيدي فأقلبها كيف شئت فتطيعني ، فأنا الله الذي ليس شيء مثلي ، قامت السموات والأرض وما فيهن بكلمتي ، وأنه لا يخلص التوحيد ، ولم تتم القدرة إلا لي ، ولا يعلم ما عندي غيري ، وأنا الذي كلمت البحار ففهمت قولي ، وأمرتها ففعلت أمري ، وحددت عليها حدوداً فلا تعدو حدي ، وتأتي بأموال كالجبال فإذا بلغت حدي ألبيتها مذلة لطاعتي وخوفاً واعترافاً لأمري ، وإني معك ولن يصل إليك شيء معي ، وإني بعثتك إلى خلق عظيم من

خلقي لتبلغهم رسالاتي فتستوجب بذلك أجر من اتبعك ، ولا ينقص ذلك من أحورهم شيئاً
انطلق إلى قومك فقم فيهم وقل لهم : إن الله قد ذكركم بصلاح آبائكم فلذلك استبقاكم ،
يامعشر أبناء الأنبياء ، وكيف وجد آبائكم مغبة طاعتي وكيف وجدتم مغبة معصيني ، وهل
وجدوا أحداً عصاني فسعد بمعصيتي وهل علموا أحداً أطاعني فشقى بطاعتي ؟ إن الدواب إذا
ذكرت أوطانها الصالحة نزعت إليها ، وإن هؤلاء القوم رجعوا في مروج الهلكة وتركوا الأمر
الذي أكرمت به آبائهم ، وابتغوا الكرامة من غير وجهها . فأما أحبارهم ورهبانهم فاتخذوا عبادي
خولاً يتعبدونهم ، ويعملون فيهم بغير كتابي حتى أجهلهم أمري وأنسوهم ذكري وسنتي وغروهم
عني ، فدان لهم عبادي بالطاعة التي لا تنبغي إلا لي ، فهم يطيعونهم في معصيتي .

وأما ملوكهم وأمرأؤهم فبطروا نعمتي ، وأمنوا مكري ، وغرتهم الدنيا حتى نبذوا كتابي
ونسوا عهدي ، فهم يحرفون كتابي ، ويفترون على رسلي جرأة منهم على غرة بي ، فسبحان
جلالي وعلو مكاني وعظمة شأني ، هل ينبغي أن يكون لي شريك في ملكي ؟ وهل ينبغي
لبشر أن يطاع في معصيتي ؟ وهل ينبغي لي أن أخلق عبداً أجعلهم أرباباً من دوني ، أو أذن
لأحد بالطاعة لأحد وهي لا تنبغي إلا لي ؟!

وأما قراؤهم وفقهاؤهم فيدرسون ما يتخيرون ، فينقادون للملوك فيتابعونهم على البدع التي
يبتدعون في ديني ، ويطيعونهم في معصيتي ، ويوفون لهم بالعهود الناقضة لعهدي ، فهم جهلة
بما يعلمون لا ينتفعون بشيك مما علموا من كتابي .

وأما أولاد النبيين فقهورون ومفتونون ، يخوضون مع الخائضين يتمنون مثل نصرى آبائهم
والكرامة التي أكرمتهم بها ، ويزعمون أنه لا أحد أولى بذلك منهم بغير صدق منهم ولا تفكر ،
ولا يذكرون كيف كان صبر آبائهم وكيف كان جهدهم في أمري حين اغتر المغترون ، وكيف
بذلوا أنفسهم ودماءهم فضربوا وصدقوا حتى عز أمري وظهر ديني . فتأنيت هؤلاء القوم لعلهم
يستحيون مني ويرجعون ، فتطولت عليهم وصفت عنهم فأكثرتم ومددت لهم في العمر
وأعذرت لهم لعلهم يتذكرون . وكل ذلك أمطر عليهم السماء وأبنت لهم الأرض وألبسهم العافية
وأظهرهم على العدو ولا يزدادون إلا طغياناً وبعداً مني فحتى متى هذا ؟ أبي يسخرون أم بي
يتحرشون أم إياي يخادعون أم علي يجترئون .

فإني أقسم بعزتي لأتحنن عليهم فتنة يتحير فيها الحليم ويضل فيها رأي ذوى الرأي وحكمة
الحكيم ، ثم لأسلطن عليهم جباراً قاسياً عاتياً ألبسه الهيبة وأنزع من قلبه الرأفة والرحمة وآليت

أن يتبعه عدد وسواد مثل الليل المظلم ، له فيه عساكر مثل قطع السحاب ومواكب مثل العجاج ، وكأن خفيق راياته طيران النور وحل فرسانه كريد العقبان ، يعيدون العمران خراباً والقرى وحشاً ويعيشون في الأرض فساداً ويتبرون ما علو تتيبراً ، قاسية قلوبهم لا يكثرثون ولا يرقبون ، ولا يرحون ولا يبصرون ، ولا يسمعون ، يحولون في الأسواق بأصوات مرتفعة مثل زئير الأسد تقشعر من هيبتها الجلود ، وتطيش من سمعها الأحلال بالسنة لا يفقهونها ، ووجوه ظاهرها عليها المنكر لا يعرفونها فوعزتي لأعطلن بيوتهم من كتي وقديسي ، ولأخلين مجالسهم من حديثها ودروسها ، ولأوحشن مساكنهم من عمارها وزوارها الذين كانوا يتزينون بعمارها لغيري ، ويتعبدون فيها ويتعبدون لكسب الدنيا بالدين ، ويتفقهون فيها لغير الدين ، ويتعلمون فيها لغير العمل ، لأبدلن ملوكها بالعز الذل ، وبالأمن الخوف ، وبالغنى الفقر ، وبالنعمة الجوع ، وبطول العافية والرخاء ألوان البلاء ، وبلباس الדיباج والحريير مدارع الوبر والعباء ، وبالأرواح الطيبة والأذهان جيف القتلى ، وبلباس التيجان أطواق الحديد والسلاسل والأغلال ، ثم لأعيدن فيهم بعد القصور الواسعة والحصون الحصينة الخراب ، وبعد البروج المشيدة مساكن السباع وبعد سهيل الخيل عواء الذئب ، وبعد ضوء السراج دخان الحريق ، وبعد الأنس الوحشة والقفار .

ثم لأبدلن نساءها بالأسورة الأغلال ، وبقلائد الدر والياقوت سلاسل الحديد ، وبألوان الطيب والأذهان البنق والغبار ، وبالمشي على الزرابي عبور الأسواق والأنهار ، والخبب إلى الليل في بطون الأسواق ، والحدود والستور المحسور عن الوجوه والأسفار والأرواح السموم ثم لأدوسنهم بأنواع العذاب حتى لو كان الكائن منهم في حالق لوصل ذلك إليه ، إني إنما أكرم من أكرمني ، وإنما أهين من هان عليه أمري . ثم لأمرن السماء خلال ذلك فلتكون عليهم طبقاً من حديد ، ولأمرن الأرض فلتكون سبيكة من نحاس ، فلا سماء تمطر ، ولا أرض تنبت ، فإن أمطرت خلال ذلك شيئاً سلطت عليهم الآفة ، فإن خلص منه شيء نزعته منه البركة ، وإن دعوني لم أجبه ، وإن سألتوني لم أعظم ، وإن بكوا لم أرحمهم ، وإن تضرعوا إلي صرفت وجهي عنهم ، وإن قالوا : اللهم أنت الذي ابتدأتنا وآباءنا من قبلنا برحمتك وكرامتك ، وذلك بأنك اخترتنا لنفسك وجعلت فينا نبوتك وكتابك ومساجدك ، ثم مكنت لنا في البلاد واستخلفتنا فيها وريبتنا وآباءنا من قبلنا بنعمتك صغراً ، وحفظتنا وإياهم برحمتك كباراً فأنت أوفى النعمين وإن غيرنا ، ولا تبدل وإن بدلنا وأن تتم فضلك ومنك وطولك وإحسانك . فإن قالوا ذلك قلت لهم : إني أبتدئ عبادي برحمتي ونعمتي ، فإن قبلوا أتممت ، وإن استزادوا زدت ،

وإن شكروا ضاعفت ، وإن غيروا غيرت ، وإذا غيروا غضبت ، وإذا غضبت عذبت وليس يقوم شيء بغضبي .

قال كعب : فقال أرميا : بوجهك أصبحت أتعلم بين يديك ، وهل ينبغي ذلك لي وأنا أذل وأضعف من أن ينبغي لي أن أتكلم بين يديك ، ولكن برحمتك أبقيتني لهذا اليوم ، وليس أحد أحق أن يخاف هذا العذاب وهذا الوعيد مني بما رضيت به مني طويلاً ، والإقامة في دار الخاطئين وهم يعصونك حولي بغير نكر ولا تغيير مني ، فإن تعذبني فبذنبي ، وإن ترحمني فذلك ظني بك .

ثم قال : يارب .. سبحانه ومحمدك ، وتباركت ربنا وتعاليت ، أهلبك هذه القرية وما حولها وهي مساكن أنبيائك ومنازل وحيك ، يارب .. سبحانه ومحمدك وتباركت ربنا وتعاليت لمحرب هذا المسجد ، وما حوله من المساجد ، ومن البيوت التي رفعت لذكرك ، يارب .. سبحانه ومحمدك ، وتباركت وتعاليت لمقتل هذه الأمة ، وعذابك إياهم وهم من ولد إبراهيم خليلك ، وأمة موسى نبيك وقوم داود صفيك ، يارب .. أي القرى تأمن عقوبتك بعد . وأي العباد يأمنون سطوتك بعد ولد خليلك إبراهيم ، وأمة نبيك موسى ، وقوم خليفتك داود ، تسلط عليهم عبدة النيران ؟ قال الله تعالى : يا أرميا .. من عصاني فلا يستنكر نعمتي ، فإني إنما أكرمت هؤلاء القوم على طاعتي ، ولو أنهم عصوني لأنزلتهم دار العاصين ، إلا أن أئداركمهم برحمتي .

قال أرميا : يارب .. اتخذت إبراهيم خليلاً وحفظتنا به ، وموسى قربته نجياً فنسألك أن تحفظنا ولا تتخطفنا ولا تسلط علينا عدونا . فأوحى الله إليه : يا أرميا .. إني قدستك في بطن أمك ، وأخرتك إلى هذا اليوم ، فلو أن قومك حفظوا اليتامى والأرامل والمساكين وابن السبيل ، لكنت الداعم لهم ، وكانوا عندي بمنزلة جنة ناعم شجرها ، طاهر مأوها ، ولا يغور مأوها ولا تبور ثمارها ولا تنقطع ، ولكن سأشكو إليك بني إسرائيل : إني كنت لهم بمنزلة الراعي الشفيق ، أجنبهم كل قحط وكل عسرة ، وأتبع بهم الخصب حتى صاروا كباشاً ينطح بعضها بعضاً ، فيأويلهم ثم يأويلهم ؛ إنما أكرم من أكرمني ، وأهين من هان عليه أمري ، إن من كان قبل هؤلاء من القرون يستخفون بمعصيتي ، وإن هؤلاء القوم يتبرعون بمعصيتي تبرعاً فيظهرونها في المساجد والأسواق ، وعلى رؤوس الجبال وظلال الأشجار ، حتى عجت السماء إليهم ، وعجت الأرض والجبال نفرت منها الوجوش بأطراف الأرض وأقاصيها ، وفي كل ذلك لا

ينتهون ولا ينتفعون بما علموا من الكتاب .

قال : فلما بلغهم أرميا رسالة ربهم وسمعوا ما فيها من الوعيد والعذاب عصوه وكذبوه واتهموه وقالوا : كذبت وأعظمت على الله الفرية فتزعم أن الله معطل أرضه ومساجده من كتابه وعبادته وتوحيده ؟ فمن يعبده حين لا يبقى له في الأرض عابد ولا مسجد ولا كتاب ؟! لقد أعظمت الفرية على الله واعتراك الجنون . فأخذوه وقيدوه وسجنوه ، فعند ذلك بعث الله عليهم بختنصر فأقبل يسير بجنوده حتى نزل بساحتهم ثم حاصروهم فكان كما قال تعالى : ﴿ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ ﴾ قال : فلما طال بهم الحصر نزلوا على حكمة ، ففتحوا الأبواب وتخللوا الأزقة وذلك قوله : ﴿ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ ﴾ وحكم فيهم حكم الجاهلية وبطش الجبارين ، فقتل منهم الثلث وسي الثلث ، وترك الزماني والشيوخ والعجائز ، ثم وطئهم بالخيول وهدم بيت المقدس ، وساق الصبيان وأوقف النساء في الأسواق حاسرات ، وقتل المقاتلة وخرب الحصون وهدم المساجد وحرق التوراة ، وسأل عن دانيال الذي كان قد كتب له الكتاب فوجدوه قد مات ، وأخرج أهل بيته الكتاب إليه ، وكان فيهم دانيال بن حزقيل الأصغر ، وميشائيل وعزرائيل وميخائيل ، فأمضى لهم ذلك الكتاب .

وكان دانيال بن حزقيل خلفاً من دانيال الأكبر ، ودخل بختنصر بجنوده بيت المقدس ووطئ الشام كلها وقتل بني إسرائيل حتى أفنأهم ، فلما فرغ منها انصرف راجعاً وحمل الأموال التي كانت بها ، وساق السبايا فبلغ معه عدة صبيانهم من أبناء الأحرار والملوك تسعين ألف غلام ، وقذف الكناسات في بيت المقدس وذبح فيه الخنازير ، وكان الغلمان سبعة آلاف غلام من بيت داود ، وأحد عشر ألفاً من سبط يوسف بن يعقوب وأخيه بنيامين ، وثمانية آلاف من سبط ايشي بن يعقوب ، وأربعة عشر ألفاً من سبط زبالون ونفتالي ابني يعقوب ، وأربعة عشر ألفاً من سبط دان بن يعقوب ، وثمانية آلاف من سبط يستاخر بن يعقوب ، وألفين من سبط زيكون بن يعقوب ، وأربعة آلاف من سبط روبييل ولاوي ، واثنى عشر ألفاً من سائر بني إسرائيل . وانطلق حتى قدم أرض بابل .

قال إسحاق بن بشر : قال وهب بن منبه : فلما فعل ما فعل قيل له : كان لهم صاحب يحذرهم ما أصابهم ويصفك وخبرك لهم ويخبرهم أنك تقتل مقاتلتهم وتسبي ذرارهم وتهدم مساجدهم وتحرق كنائسهم ، فكذبوه واتهموه وضربوه وقيدوه وحبسوه . فأمر بختنصر فأخرج أرميا من السجن فقال له : أكنت تحذر هؤلاء القوم ما أصابهم ؟ قال : نعم . قال : فياني علمت ذلك ، قال : أرسلني الله إليهم فكذبوني . قال : كذبوك وضربوك وسجنوك ؟ قال : نعم .

قال : بئس القوم قوم كذبوا بنبههم وكذبوا رسالة ربهم ، فهل لك أن تلحق بي فأكرمك وأواسيك ، وإن أحببت أن تقيم في بلادك فقد أمنتك . قال له أرميا : إني لم أزل في أمان الله منذ كنت لم أخرج منه ساعة قط ، ولو أن بني إسرائيل لم يخرجوا منه لم يخافوك ولا غيرك ولم يكن لك عليهم سلطان . فلما سمع بختنصر هذا القول منه تركه فأقام أرميا مكانه بأرض إيليا .

وهذا سياق غريب ، وفيه حكم ومواعظ وأشياء مليحة ، وفيه من جهة التعريف غرابة .

وقال هشام بن محمد بن السائب الكلبي : كان بختنصر أصفهنا لما بين الأهواز إلى الروم للملك على الفرس وهو لهراسب ، وكان قد بني مدينة بلخ التي تلقب بالخنساء ، وقاتل الترك وألجأهم إلى أضيح الأماكن وبعث بختنصر لقتال بني إسرائيل بالشام فلما قدم الشام صالحه أهل دمشق ، وقد قيل إن السدي بعث بختنصر إنما هو بهمن ملك الفرس بعد بشتاسب بن لهراسب ، وذلك لتعدي بني إسرائيل على رسله إليهم .

وقد روى ابن جرير عن يونس بن عبد الأعلى ، عن ابن وهب عن سليمان بن بلال ، عن يحيى بن سعيد الأنصاري ، عن سعيد بن المسيب ، أن بختنصر لما قدم دمشق وجد بها دماً يغلي على كبا - يعني القمامة - فسألهم : ما هذا الدم ؟ فقالوا : أدركنا آبائنا على هذا وكلما ظهر عليه الكبا ظهر . قال : فقتل على ذلك سبعين ألفاً من المسلمين وغيرهم فسكن .

وهذا إسناد صحيح إلى سعيد بن المسيب ، وقد تقدم من كلام الحافظ ابن عساكر ما يدل على أن هذا دم يحيى بن زكريا ، وهذا لا يصح لأن يحيى بن زكريا بعد بختنصر بمدة ، والظاهر أن هذا دم نبي متقدم أو دم لبعض الصالحين أو لمن شاء الله من الله أعلم به .

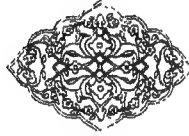
قال هشام بن الكلبي : قدم بختنصر بيت المقدس فصالحه ملكها وكان من آل داود وصانعه عن بني إسرائيل وأخذ منه بختنصر رهائن ورجع ، فلما بلغ طبرية بلغه أن بين إسرائيل ثاروا على ملكهم فقتلوه لأجل أنه صالحه ، ف ضرب رقاب من معه من الرهائن ورجع إليهم فأخذ المدينة عنوة ، وقتل المقاتلة وسبي الذرية .

قال : وبلغنا أنه وجد في السجن أرميا النبي فأخرجه وقص عليه ما كان من أمره إياهم وتحذيره لهم عن ذلك فكذبوه وسجنوه فقال بختنصر : بئس القوم قوم عصوا رسول الله وخلى سبيله وأحسن إليه وأجمع إليه من بقي من ضعفاء بني إسرائيل فقالوا : إنا قد أسأنا وظلمنا ونحن نتوب إلى الله عز وجل مما صنعنا ، فادع الله أن يقبل توبتنا ، فدعا ربه فأوحى الله إليه

أنه غير فاعل ، فإن كانوا صادقين فليقيموا معك بهذه البلدة . فأخبرهم ما أمره الله تعالى به ، فقالوا : كيف نقيم بهذه البلدة وقد خربت وقد غضب الله على أهلها ؟ فأبوا أن يقيموا .

قال ابن الكلبي : ومن ذلك الزمان تفرقت بنو إسرائيل في البلاد فنزلت طائفة منهم الحجاز وطائفة يثرب وطائفة وادي القرى ، وذهبت شذمة منهم إلى مصر ، فكتب يختنصر إلى ملكها يطلب منه من شرد منهم إليه فأبي عليه ، فركب في جيشه فقاتله وقهره وغلبه وسبي ذراريهم ثم ركب إلى بلاد المغرب حتى بلغ أقصى تلك الناحية . قال : ثم انصرف بسبي كثير من أرض المغرب ومصر وأهل بيت المقدس وأرض فلسطين والأردن وفي السبي دانيال .

قلت : والظاهر أنه دانيال بن حزقيال الأصغر لا الأكبر . على ما ذكره وهب بن منبه .. والله أعلم .



قصة دانيال عليه السلام

قال ابن أبي الدنيا : حدثنا أحمد بن عبد الأعلى الشيباني قال : إن لم أكن سمعته من شعيب ابن صفوان فحدثني بعض أصحابنا عنه ، عن الأجلح الكندي ، عن عبد الله بن أبي الهذيل ، قال : ضرا يختنصر أسدين فألقاهما في جب ، وجاء بدانيال فألقاه عليهما فلم يهيجاه ، فكث ما شاء الله ثم انتهى ما يشتهي الآدميون من الطعام والشراب فأوحى الله إلى أرميا وهو بالشام : أن اعدد طعاماً وشراباً لدانيال ، فقال : يارب .. أنا بالأرض المقدسة ودانيال بأرض بابل من أرض العراق . فأوحى الله إليه : أن أعدد ما أمرناك به فإننا سنرسل من يحملك ويحمل ما أعددت . ففعل وأرسل إليه من حملة وحمل ما أعده حتي وقف على رأس الجب فقال دانيال : من هذا ؟ قال : أنا أرميا . فقال : ما جاء بك ؟ فقال : أرسلني إليك ربك . قال : وقد ذكرني ربي ؟ قال : نعم . فقال دانيال : الحمد لله الذي لا ينسى من ذكره . والحمد لله الذي يجيب من رجاه ، والحمد لله الذي من وثق به لم يكله إلى غيره ، والحمد لله الذي يجزي بالصبر نجاه ، والحمد لله الذي هو يكشف ضرنا بعد كربنا ، والحمد لله الذي يقينا حين يسوء ظننا بأعمالنا ، والحمد لله الذي هو رجاؤنا حين تنقطع الحيل عنا .

وقال يونس بن بكير عن محمد بن إسحاق عن أبي خالد بن دينار ، حدثنا أبو العالية قال : لما افتتحنا تستر وجدنا في مال بيت الهرمزان سريراً عليه رجل ميت عند رأسه مصحف ، فأخذنا المصحف فحملناه إلى عمر بن الخطاب فدعا له كعباً فنسخه بالعريية ، فأنا أول رجل من العرب قرأه ، قرأته مثل ما أقرأ القرآن هذا . فقلت لأبي العالية ، ما كان فيه ؟ قال : سيركم وأموركم ولحون كلامكم وما هو كائن بعد ، قلت : فما صنعتم بالرجل ؟ قال : حفرنا بالنهار ثلاثة عشر قبراً متفرقة ، فلما كان بالليل دفناه وسوينا القبور كلها لنعميه على الناس فلا ينبشونه . قلت : فما يرجون منه ، قال : كانت السماء إذا حبست عنهم برزوا بسريره فيطرون . قلت : من كنتم تظنون الرجل : قال : رجل يقال له دانيال . قلت : منذ كم وجدتموه قد مات ؟ قال : منذ ثلاثمائة سنة . قلت : ماتغير منه شيء ؟ قال : إلا شعرات من قفاه ، إن لحوم الأنبياء لا تبليها الأرض ولا تأكلها السباع .

وهذا إسناد صحيح إلى أبي العالية ، ولكن إن كان تاريخ وفاته محفوظاً من ثلاثمائة سنة فليس بنبي بل هو رجل صالح ، لأن عيسى ابن مريم ليس بينه وبين رسول الله ﷺ نبي ينص

الحديث الذي في البخاري ، والفترة التي كانت بينها أربعائة سنة ، وقيل ستائة وقيل ستائة وعشرون سنة ، وقد يكون تاريخ وفاته من ثمانائة سنة وهو قريب من وقت دانيال ، إن كان كونه دانيال هو المطابق لما في نفس الأمر ، فإنه قد يكون رجلاً آخر إما من الأنبياء أو الصالحين ، ولكن قربت الظنون أنه دانيال لأن دانيال كان قد أخذه ملك الفرس فأقام عنده مسجوناً كما تقدم .

وقد روى بإسناد صحيح إلى أبي العالية أن طول أنفه شبر ، وعن أنس بن مالك بإسناد جيد أن طول أنفه ذراع ، فيحتمل على هذا أن يكون رجلاً من الأنبياء الأقدمين قبل هذه المدد .. والله تعالى أعلم .

وقد قال أبو بكر بن أبي الدنيا في كتاب « أحكام القبور » : حدثنا أبو بلال محمد بن الحارث بن عبد الله بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري حدثنا أبو محمد القاسم بن عبد الله ، عن أبي الأشعث الأحمري ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إن دانيال دعا ربه عز وجل أن تدفنه أمة محمد » فلما افتتح أبو موسى الأشعري تستر وجهه في تابوت تضرب عروقه ووريده ، وقد كان رسول الله ﷺ قال : « من دل على دانيال فبشروه بالجنة » . فكان الذي دل عليه رجل يقال له حرقوص فكتب أبو موسى إلى عمر بن الخطاب فكتب إليه عمر : أن ادفنه وابعث إلى حرقوص فإن النبي ﷺ بشره بالجنة .

وهذا مرسل من هذا الوجه وفي كونه محفوظاً نظر .. والله أعلم .

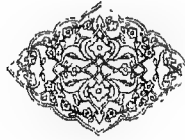
ثم قال ابن أبي الدنيا : حدثنا أبو بلال ، حدثنا قاسم بن عبد الله عن عنبسة بن سعيد - وكان عالماً - قال : وجد أبو موسى مع دانيال مصحفاً وجرة فيها ودك ودرهم وخاتمه ، فكتب أبو موسى بذلك إلي عمر فكتب إليه عمر : أما المصحف فابعث به إليها ، وأما الودك فابعث إليه منه وممن قبلك من المسلمين يستشفون به وأقسم الدرهم بينهم ، وأما الخاتم فقد نفلناكه .

وروى ابن أبي الدنيا من غير وجه : أن أبا موسى لما وجده وذكروا له أنه دانيال التزمه وعانقه وقبله ، وكتب إلى عمر يذكر له أمره وأنه وجده عند مالا موضوعاً قريباً من عشرة آلاف درهم ، وكان من جاء اقترض منها فإن ردها وإلا مرض وإن عنده ربعة ، فأمر عمر بأن يغسل بماء وسدر ويكفن ويدفن ويخفي قبره فلا يعلم به أحد ، وأمر بالمال أن يرد إلى

بيت المال وبالربعة فتحمل إليه ونقله خاتمه .

وروى عن أبي موسى أنه أمر أربعة من الأسراء فسكروا نهراً وحفروا في وسطه قريباً فدفنه فيه ، ثم قدم الأربعة الأسراء فضرب أعناقهم فلم يعلم موضع قبره غير أبي موسى الأشعري رضي الله عنه .

وقال ابن أبي الدنيا : حدثني إبراهيم بن عبد الله ، حدثنا أحمد بن عمرو بن السرح ، حدثنا ابن وهب ، عن عبد الرحمن بن أبي الزناد ، عن أبيه قال : رأيت في يد ابن أبي بردة عن أبي موسى الأشعري خاتماً نقش فيه أسدان بينهما رجل يلحسان ذلك الرجل ، قال أبو بردة : وهذا خاتم ذلك الرجل الميت الذي زعم أهل هذه البلدة أنه دانيال أخذه أبو موسى يوم دفنه ، قال أبو بردة : فسأل أبو موسى علماء تلك القرية عن نقش ذلك الخاتم فقالوا : إن الملك الذي كان دانيال في سلطانه جاءه المنجمون وأصحاب العلم فقالوا له : إنه يولد كذا وكذا غلام يغور ملكك ويفسده ، فقال الملك : والله لا يبقى تلك الليلة غلام إلا قتلته ، إلا أنهم أخذوا دانيال فألقوه في أجمة الأسد فبات الأسد وليؤته يلحسانه ولم يضره . فجاءت أمه فوجدتها يلحسانه فنجاه الله بذلك حتى بلغ ما بلغ قال أبو بردة : قال أبو موسى : قال علماء تلك القرية : فنقش دانيال صورته وصورة الأسدين يلحسانه في فص خاتمه لئلا ينسى نعمة الله عليه في ذلك . إسناده حسن .



عمارة بيت المقدس بعد خرابها

قال الله تعالى في كتابه المبين وهو أصدق القائلين : ﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ، فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ، قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ، قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ، قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ، وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ ، وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوها لَحْمًا ، فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ (١) .

قال هشام بن الكلبي : ثم أوحى الله تعالى إلى أرميا عليه السلام فيما بلغني : إني عامر بيت المقدس فاخرج إليهم فانزلها . فخرج حتى قدمها وهي خراب ، قال في نفسه : سبحان الله .. أمرني الله أن أنزل هذه البلدة وأخبرني أنه عامرها فتي يعمرها ومتي يحييها الله بعد موتها ؟ !

ثم وضع رأسه فنام ومعه حماره وسنة من طعام فكث في نومه سبعين سنة حتى هلك بختنصر والملك الذي فوقه وهو لهراسب ، وكان ملكه مائة وعشرين سنة ، وقام بعده ولده بشتاسب بن لهراسب ، وكان موت بختنصر في دولته فبلغه عن بلاد الشام أنها خراب ، وأن السباع قد كثرت في أرض فلسطين فلم يبق بها من الإنس أحد ، فنادى في أرض بابل في بني إسرائيل : أن من شاء أن يرجع إلى الشام فليرجع . وملك عليهم رجلاً من آل داود وأمره أن يعمر بيت المقدس ويبني مسجدها فرجعوا فعمروها ، وفتح الله لأرميا عينيه فنظر إلى المدينة كيف تبني وكيف تعمر ، ومكث في نومه ذلك حتى تمت له مائة سنة . ثم بعثه الله وهو لا يظن أنه نام أكثر من ساعة وقد عهد المدينة خراباً فلما نظر إليها عامرة أهلة قال : ﴿ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ .

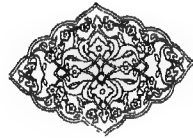
قال : فأقام بنو إسرائيل بها ورد الله عليهم أمرهم فكثوا كذلك حتى غلبت عليهم الروم في زمن ملوك الطوائف ، ثم لم يكن لهم جماعة ولا سلطان يعني بعد ظهور النصاري عليهم . هكذا حكاه ابن جرير في تاريخه عنه ، وذكر ابن جرير أن لهراسب كان ملكاً عادلاً سائساً لمملكته قد دانت له العباد والبلاد والملوك والقواد وأنه كان ذا رأى جيد في عمارة الأمصار والأنهار

(١) سورة البقرة الآية ٢٥٩ .

والمعاقل ، ثم لما ضعف عن تدبير المملكة بعد مائة سنة ونيف نزل عن الملك لولده بشتاسب ، فكان في زمانه ظهور دين المجوسية وذلك أن رجلاً اسمه زرادشت كان قد صحب أرميا عليه السلام فأغضبه فدعا عليه أرميا عليه السلام قبرص زرادشت فذهب فلحق بأرض أذربيجان وصحب بشتاسب فلقنه دين المجوسية الذي اخترعه من تلقاء نفسه فقبله منه بشتاسب ، وحمل الناس عليه وقهرهم وقتل منهم خلقاً كثيراً من أباه منهم .

ثم كان بعد بشتاسب بهمن بن بشتاسب وهو من ملوك الفرس المشهورين والأبطال المذكورين وقد ناب بختنصر لكل واحد من هؤلاء الثلاثة وعمر دهرأ طويلاً قبحه الله .

والمقصود أن هذا الذي ذكره ابن جرير من أن هذا المار علي هذه القرية هو أرميا عليه السلام ، قاله وهب بن مَنه ، وعبد الله بن عبيد بن عمير وغيرهما . وهو قوي من حيث السياق المتقدم ، وقد روى عن علي وعبد الله بن سلام وابن عباس والحسن وقتادة والسدي وسليمان بن بردة وغيرهم أنه عزيز . وهذا أشهر عند كثير من السلف والخلف .. والله أعلم .



قصة العزيز

قال الحافظ أبو القاسم بن عساكر : هو عزيز بن جروة ، ويقال ابن سوريق بن عديا بن أيوب بن درزنا عن عدي بن تقي بن أسبوع بن فنحاص بن العاذر بن هارون بن عمران . ويقال : عزيز بن سروخا جاء في بعض الآثار أن قبره بدمشق . ثم ساق من طريق أبي القاسم البغوي عن داود بن عمرو ، عن حبان بن علي ، عن محمد بن كريب ، عن أبيه ، عن ابن عباس مرفوعاً : لا أدري العزيز بيع أم لا ، ولا أدري أعزير كان نبياً أم لا .

ثم رواه من حديث مؤمل بن الحسن ، عن محمد بن إسحاق السجزي ، عن عبد الرزاق ، عن معمر ، عن ابن أبي ذئب ، عن سعيد المقبري ، عن أبي هريرة مرفوعاً نحوه .

ثم روى من طريق إسحاق بن بشر ، وهو متروك عن جويبر ومقاتل ، عن الضحاك ، عن ابن عباس : أن عزيزاً كان ممن سباه بختنصر وهو غلام حدث ، فلما بلغ أربعين سنة أعطاه الله الحكمة . قال : ولم يكن أحد أحفظ ولا أعلم بالتوراة منه . قال : وكان يذكر مع الأنبياء حتى دعا الله اسمه من ذلك حين سأله ربه عن القدر .

وهذا ضعيف ومنقطع ومنكر .. والله أعلم .

وقال إسحاق بن بشر ، عن سعيد ، عن أبي عروبة ، عن قتادة ، عن الحسن ، عن عبد الله ابن سلام ، أن عزيزاً هو العبد الذي أماته الله مائة عام ثم بعثه .

وقال إسحاق بن بشر : أنبأنا سعيد بن بشير ، عن قتادة ، عن كعب وسعيد بن أبي عروبة ، عن قتادة ، عن الحسن ومقاتل وجويبر عن الضحاك ، عن ابن عباس وعبد الله بن إسماعيل السدي عن أبيه ، عن مجاهد ، عن ابن عباس وإدريس ، عن جده وهب بن منبه ، قال إسحاق : كل هؤلاء حديثوني عن حديث عزيز ، وزاد بعضهم على بعض قالوا بإسنادهم : إن عزيزاً كان عبداً صالحاً حكيماً خرج ذات يوم إلى ضيعة له يتعاهدها ، فلما انصرف أتى إلى خربة حين قامت الظهيرة وأصابه الحر ، ودخل الخربة وهو على حماره فنزل عن حماره ومعه سلة فيها تين وسلّة فيها عنب ، فنزل في ظل الخربة وأخرج قصعة معه فاعتصر من العنب الذي كان معه في القصعة ثم أخرج خبزاً يابساً معه فألقاه في تلك القصعة في العصور ليبتل ليأكله ، ثم استلقي على قفاه وأسند رجليه إلى الحائط فنظر سقف تلك البيوت ورأى مافيهما وهي قائمة على

عروشها وقد باد أهلها ورأى عظاماً بالية فقال : ﴿ أَنَّى يُعْجِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ فلم يشك أن الله يحييها ولكن قالها تعجباً فبعث الله ملك الموت فقبض روحه ، فأماته الله مائة عام .

فلما أتت عليه مائة عام ، وكانت فيما بين ذلك في بني إسرائيل أمور وأحداث . قال : فبعث الله إلى عزيز ملكاً فخلق قلبه ليعقل به وعينيه لينظر بها فيعقل كيف يحيى الله الموتي . ثم ركب خلقه وهو ينظر ، ثم كسى عظامه اللحم والشعر والجلد ثم نفخ فهي الروح ، كل ذلك وهو يرى ويعقل ، فاستوي جالساً فقال له الملك : كم لبثت ؟ قال : لبثت يوماً أو بعض يوم ، وذلك أنه كان لبث صدر النهار عند الظهيرة وبعث في آخر النهار والشمس لم تغب ، فقال : أو بعض يوم ولم يتم لي يوم . فقال له الملك : بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك وشرابك ، يعني الطعام الخبز اليابس ، وشرابه العصير الذي كان اعتصره في القصعة ، فإذا هما على حالهما لم يتغير العصير والخبز يابس ، فذلك قوله : ﴿ لَمْ يَتَسَنَّه ﴾ يعني لم يتغير ، وكذلك التين والعنب غض لم يتغير شيء من حالهما ، فكأنه أنكر في قلبه فقال له الملك : أنكرت ماقلت لك ؟ فانظر إلى حمارك . فنظر إلى حماره قد بليت عظامه وصارت غرة . فنادى الملك عظام الحمار فأجابت وأقبلت من كل ناحية حتى ركبها الملك وعزير ينظر إليه ثم ألبسها العروق والعصب ، ثم كساها اللحم ثم أنبت عليها الجلد والشعر ، ثم نفخ فيه الملك فقام الحمار رافعاً رأسه وأذنيه إلى السماء ناهقاً يظن القيامة قد قامت . فذلك قوله : ﴿ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ ، وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْفِيزُهَا ثُمَّ نَكْسُوها لَحْمًا ﴾ يعني وانظر إلى عظام حمارك كيف يركب بعضها بعضاً في أوصالها حتى إذا صارت عظاماً مصوراً حماراً بلا لحم ، ثم انظر كيف نكسوها لحماً : ﴿ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ من إحياء الموتي وغيره .

قال : فركب حماره حتى أتى محلته فأنكره الناس وأنكر الناس ، وأنكر منزله ، فانطلق على وهم منه حتى أتى منزله ، فإذا هو بعجوز عياء مقعدة قد أتى عليها مائة وعشرون سنة كانت أمة لهم ، فخرج عنهم عزيز وهي بنت عشرين سنة كانت عرفته وعقلته ، فلما أصابها الكبير أصابها الزمانه ، فقال لها عزيز : يا هذه .. أهذا منزل عزيز ؟ قالت : نعم هذا منزل عزيز . فبككت وقالت : مارأيت أحداً من كذا وكذا سنة يذكر عزيزاً وقد نسيه الناس . قال : فإني أنا عزيز كان الله أماتني مائة سنة ثم بعثني . قالت : سبحان الله ! فإن عزيزاً قد فقدناه منذ مائة سنة فلم نسمع له بذكر . قال : فإني أنا عزيز . قالت : فإن عزيزاً رجل مستجاب الدعوة يدعو للمريض ولصاحب البلاء بالعافية والشفاء ، فادع الله أن يرد على بصري حتى أراك فإن

كنت عزيزاً عرفتك .

قال : فدعا ربه ومسح بيده على عينيها فصحتها وأخذ بيدها وقال : قومي بإذن الله . فأطلق الله رجليها فقامت صحيحة كأنما نشطت من عقال . فنظرت فقالت : أشهد أنك عزيز .

وانطلقت إلى محلة بني إسرائيل وهم في أنديتهم ومجالسهم ، وابن لعزير شيخ ابن مائة سنة وثمانين سنة وبني بنيه شيوخ في المجلس ، فنادتهم فقالت : هذا عزيز قد جاءكم . فكذبوها . فقالت أنا فلانة مولاتكم دعا لي ربه فرد علي بصري وأطلق رجلي وزعم أن الله أماته مائة سنة ثم بعثه . قال : فنهض الناس فأقبلوا إليه فنظروا إليه فقال ابنه : كان لأبي شامة سوداء بين كتفيه ، فكشف عن كتفيه فإذا هو عزيز ، فقالت بنو إسرائيل : فإنه لم يكن فينا أحد حفظ التوراة فيما حدثنا غير عزيز ، وقد حرق بختنصر التوراة ولم يبق منها شيء إلا ما حفظت الرجال ، فكتبها لنا وكان أبوه سروخا قد دفن التوراة أيام بختنصر في موضع لم يعرفه أحد غير عزيز ، فانطلق بهم إلى ذلك الموضع فحفره فاستخرج التوراة وكان قد عفن الورق ودرس الكتاب .

قال : وجلس في ظل شجرة وبنو إسرائيل حوله فجدد لهم التوراة ونزل من السماء شهابان حتى دخلا جوفه ، فتذكر التوراة فجدها لبني إسرائيل ، فمن ثم قالت اليهود : عزيز ابن الله ، للذي كان من أمر الشهابين وتجديده التوراة وقيامه بأمر بني إسرائيل ، وكان جدد لهم التوراة بأرض السواد بدير حزقيال ، والقرية التي مات فيها يقال لها سايراباذ .

قال ابن عباس : فكان كما قال الله تعالى : ﴿ وَلَنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ ﴾ يعني لبني إسرائيل ، وذلك أنه كان يجلس مع بنيه وهم شيوخ وهو شاب لأنه مات وهو ابن الأربعين سنة ، فبعثه الله شاباً كهينته يوم مات . قال ابن عباس : بعث بعد بختنصر وكذلك قال الحسن .

وقد أنشد أبو حاتم السجستاني في معنى ما قاله ابن عباس :

أسود رأس شاب من قبله ابنه	ومن قبله ابن ابنه فهو أكبر
يرى ابنه شيخاً يدب على العصا	ولحيته سوداء والرأس أشقر
وما لابنه حيل ولا فضل قوة	يقبـوم كما يمشي الصبي فيعثر
يعد ابنه في الناس تسمين حجة	وعشرين لايجري ولا يتبختر
وعمر أبيه أربعون أمرها	ولابن ابنه تسعون في الناس غير
فما هو في المعقول إن كنت دارياً	وإن كنت لاتدري فبالجهل تعذر

المشهور أن عزيزاً نبي من أنبياء بني إسرائيل ، وأنه كان فيما بين داود و سليمان وبين زكريا ويحيى ، وأنه لما لم يبق في بني إسرائيل من يحفظ التوراة ألهمه الله حفظها فسردها على بني إسرائيل ، كما قال وهب بن منبه : أمر الله ملكاً فنزل بغرفة من نور فحذفها في عزيز فنسخ التوراة حرفاً بحرف حتي فرغ منها .

وروى ابن عساكر عن ابن عباس أنه سأل عبد الله بن سلام عن قول الله تعالى : ﴿ وَيَقُولُ الْيَهُودُ غَزِيرٌ ابْنُ اللَّهِ ﴾ ^(١) لم قالوا ذلك ؟ فذكر له ابن سلام ما كتبه لبني إسرائيل التوراة من حفظه ؟ وقول بني إسرائيل : لم يستطع موسى أن يأتيها بالتوراة إلا في كتاب وإن عزيزاً قد جاءنا بها من غير كتاب . فرماه طوائف منهم وقالوا : عزيز ابن الله .

ولهذا يقول كثير من العلماء : إن تواتر التوراة انقطع في زمن العزيز .

وهذا متجه جداً إذا كان العزيز غير نبي كما قاله عطاء بن أبي رباح والحسن والبصري . وفيما رواه إسحاق بن بشر عن مقاتل بن سليمان ، عن عطاء ، وعن عثمان بن غطاء الخرساني عن أبيه ، ومقاتل عن عطاء بن أبي رباح قال : كان في الفترة تسعة أشياء : يختصر وجنة صنعاء وجنة سبأ وأصحاب الأخدود وأمر حاصورا وأصحاب الكهف وأصحاب الفيل ومدينة أنطاكية وأمر تبع .

وقال إسحاق بن بشر : أنبأنا سعيد ، عن قتادة ، عن الحسن قال : كان أمر عزيز يختصر في الفترة .

وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : « إن أولي الناس بابن مريم لأنا ، إنه ليس بيني وبينه نبي » .

وقال وهب بن منبه : كان فيما بين سليمان وعيسى عليهما السلام .

وقد روى ابن عساكر عن أنس بن مالك وعطاء بن السائب أن عزيزاً كان في زمن موسى

(١) التوبة الآية ٣٠

ابن عمران ، وأنه استأذن عليه فلم يأذن له ، يعنى لما كان من سؤاله عن القدر ، وأنه انصرف وهو يقول : مائة مائة أهون من ذل ساعة .

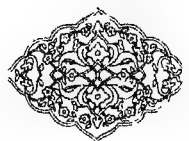
وفي معنى قول عزيز : مائة مائة أهون من ذل ساعة . قول بعض الشعراء :

قد يصبر الحر على السيف ويأنف الصبر على الخيف
ويؤثر الموت على حاله يعجز فيها عن قرى الضيف

فأما ماروى ابن عساكر وغيره عن ابن عباس ونوف البكالي وسفيان الثوري وغيرهم ، من أنه سأل عن القدر فحي اسمه من ذكر الأنبياء ، فهو منكر وفي صحته نظر ، وكأنه مأخوذ من الإسرائيليات .

وقد روى عبد الرزاق وقتيبة بن سعيد ، عن جعفر بن سليمان ، عن أبي عمران الجوني ، عن نوف البكالي قال : قال عزيز فيما يناجي به : يارب .. تخلق خلقاً فتضل من تشاء وتهدي من تشاء ؟ فقليل له : أعرض عن هذا . فعاد فقليل له : لتعرضن عن هذا أو لأخون اسمك من الأنبياء إني لا أسأل عما أفعل وهم يسألون . وهذا يقتضي وقوع ما توعده عليه لما عاد فما محى .

وقد روى الجماعة سوى الترمذي من حديث يونس عن يزيد ، عن سعيد وأبي سلمة ، عن أبي هريرة ، وكذلك رواه شعيب بن أبي الزناد ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « نزل نبي من الأنبياء تحت شجرة فلدغته غلة فأمر بجهازه فأخرج من تحتها ثم أمر بها فأحرقت بالنار ، فأوحى الله إليه : فهلا غلة واحدة » فروى إسحاق بن بشر عن ابن جريج ، عن عبد الوهاب بن مجاهد ، عن أبيه : أنه عزيز ، وكذا روى عن ابن عباس والحسن البصري أنه عزيز .. والله أعلم .



قصة زكريا ويحيى عليهما السلام

قال الله تعالى في كتابه العزيز : بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ كهيعص ﴾ ذَكَرْ رَحْمَةَ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا * إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا * قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا * وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا * يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ، وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا * يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا * قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا * قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّئٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكْ شَيْئًا * قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً ، قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا * فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا * يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ، وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا * وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَكَوَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا * وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا * وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿ (١)

وقال تعالى : ﴿ وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ، كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا ، قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكَ هَذَا ، قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ، قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ، إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ * فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ * قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ ، قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ * قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً ، قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ، وَادْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴿ (٢)

وقال تعالى في سورة الأنبياء : ﴿ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَاهُ لَهُ زَوْجَةً ، إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ، وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴿ (٣)

(١) مريم الآيات ١ - ١٥ .

(٢) آل عمران الآيات ٣٧ - ٤١

(٣) الأنبياء الآيات ٨٩ ، ٩٠

وقال تعالى : ﴿ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِيلَاسَ ، كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾ ^(١) .

قال الحافظ أبو القاسم بن عساكر في كتابه التاريخ المشهور الحافل : زكريا بن برخيا ويقال زكريا بن دان ، ويقال زكريا بن لدن بن مسلم بن صدوق بن حشبان بن داود بن سليمان بن مسلم بن صديقة بن برخيا بن بلعطة بن ناحور بن شلوم بن بهفاشاط بن اينامن ابن رحيعام بن سليمان بن داود ، أبو يحيى النبي عليه السلام من نبي إسرائيل .

دخل البثنة من أعمال دمشق في طلب ابنه يحيى . وقيل إنه كان بدمشق حين قتل ابنه يحيى .. والله أعلم . وقد قيل غير ذلك في نسبه . ويقال فيه زكريا بالمد والقصر ، ويقال زكري أيضاً .

والمقصود أن الله تعالى أمر رسوله ﷺ أن يقص على الناس خبر زكريا عليه السلام وما كان من أمره حين وهبه الله ولدًا على الكبر وكانت امرأته مع ذلك عاقراً في حال شبيبتها وقد أسنت أيضاً حتى لا يأس أحد من فضل الله ورحمته ولا يقنط من فضله تعالى : ﴿ ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ﴾ * إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ يَدَّاءَ خَفِيًّا ﴿ قَالَ فَتَادَةُ عِنْدَ تَفْسِيرِهَا : إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ الْقَلْبَ النَّقِيَّ وَيَسْمَعُ الصَّوْتِ الْخَفِيَّ ، وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ : قَامَ مِنَ اللَّيْلِ فَنَادَىٰ رَبَّهُ مُنَادَاً أَسْرَهَا عَنْ كَانَ حَاضِراً عِنْدَهُ مَخَافَتِهِ فَقَالَ : يَارَبَّ يَارَبَّ يَارَبَّ .. فَقَالَ اللَّهُ : لَبِيكَ لَبِيكَ لَبِيكَ . ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي ﴾ أي ضعف وخار من الكبر ﴿ وَاشْتَغَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا ﴾ استعارة من اشتعال النار في الخطب أي غلب على سواد الشعر شيبه كما قال ابن دريد في مقصورته :

أما ترى رأسي حايكي لونه	طرة صبح تحت أذيال الدجا
وأشتعل المبيض في مسوده	مثل اشتعال النار في جمر الغضا
وأض عود اللهم ييساً ذاوياً	من بعد ماقد كان محاج الثرى

يذكر أن الضعف قد استحوذ عليه باطناً وظاهراً . وهكذا قال زكريا عليه السلام : ﴿ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَغَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا ﴾ .

وقوله : ﴿ وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴾ أي ماعودتني فيما أسألك إلا الإجابة وكان الباعث له على هذه المسألة أنه لما كفل مريم بنت عمران بن ماثان ، وكان كلما دخل عليها محرابها وجد عندها فاكهة في غير إبانها ولا في أوانها وهذه من كرامات الأولياء ، فلم أن الرزاق للشيء في

(١) سورة الأنعام الآية ٨٥ .

غير أوانه قادر على أن يرزقه ولداً وإن كان قد طعن في سنه ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ، قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ، إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ ^(١) وقوله : ﴿ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا ﴾ قيل المراد بالموالي العصابة ، وكأنه خاف من تصرفهم بعده في بني إسرائيل بما لا يوافق شرع الله وطاعته فسأل وجود ولد من صلبه يكون برّاً تقيّاً مرضياً ولهذا قال : ﴿ فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ﴾ أي من عندك بحولك وقوتك ﴿ وَلِيْسَا * يَرْثِيْنِي ﴾ أي في النبوة والحكم في بني إسرائيل ﴿ وَيَرِثْ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ، وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾ يعني كما كان آبؤه وأسلافه من ذرية يعقوب أنبياء فاجعله مثلهم في الكرامة التي أكرمتهم بها من النبوة والوحي ، وليس المراد هاهنا وراثة المال كما زعم ذلك من عزمه من الشيعة ووافقهم ابن جرير هاهنا وحكاه عن أبي صالح من السلف ، لوجوه :

أحدها : ما قدمناه عند قوله تعالى : ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ ﴾ ^(٢) أي في النبوة والملك لما ذكرنا في الحديث المتفق عليه بين علماء الموري في الصحاح والمسانيد والسنن وغيرها من طرق عن جماعة من الصحابة أن رسول الله ﷺ قال : « لانورث ماتركنا فهو صدقة » فهذا نص على أن رسول الله ﷺ لا يورث ، ولهذا منع الصديق أن يصرف ما كان يختص به في حياته إلي أحد من ورثته الذين لولا هذا النص لصرف إليهم ، وهم ابنته فاطمة وأزواجه التسع وعنه العباس رضي الله عنهم ، واحتج عليهم الصديق في منعه إياهم بهذا الحديث ، وقد وافقه على روايته عن رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلى بن أبي طالب والعباس بن عبد المطلب وعبد الرحمن بن عوف وطلحة والزبير وأبو هريرة وآخرون رضي الله عنهم .

والثاني : أن الترمذي رواه بلفظ يعم سائر الأنبياء : « نحن معاشر الأنبياء لانورث » وصححه .

الثالث : أن الدنيا كانت أحقر عند الأنبياء من أن يكتزوا لها أو يلتفتوا إليها أو يهتم أمرها حتي يسألوا الأولاد ليحوزوها بعدهم ، فإن من لا يصل إلى قريب من منازلهم في الزهادة لا يهتم بهذا المقدار أن يسأل ولداً يكون وارثاً له فيها .

الرابع : أن زكريا عليه السلام كان نجاراً يعمل بيده ويأكل من كسبها ، كما كان داود عليه السلام يأكل من كسب يده ، والغالب ولا سيما من مثل حال الأنبياء أنه لا يجهد نفسه في

(٢) سورة المل الاية ١٦ .

(١) سورة ال عمران الاية ٣٨ .

العمل إجهاداً يستفضل منه مالا يكون ذخيرة له ولن يخلفه من بعده . وهذا أمر بين واضح . لكل من تأمله وتدبره وتفهمه .. إن شاء الله .

قال الإمام أحمد : حدثنا يزيد ، يعني ابن هارون ، أنبأنا حماد بن سلمة ، عن ثابت ، عن أبي رافع ، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « كان زكريا نجاراً » وهكذا رواه مسلم وابن ماجه من غير وجه ، عن حماد بن سلمة به .

وقوله : # يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سمياً # وهذا مفسر بقوله : # فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أن الله يبشرك بيحيى مصدقاً بكلمة من الله سيّداً وحصواً ونبياً من الصالحين # (١) .

فلما بشر بالولد وتحقق البشارة شرع يستعلم على وجه التعجب وجود الولد له والحالة هذه # قال رب أني يكون لي غلام وكانت امرأتي عاقراً وقد بلغت من الكبر عتياً # أي كيف يوجد ولد من شيخ كبير ، قيل كان عمره إذا ذاك سبعاً وسبعين سنة ، والأشبه والله أعلم أنه كان أسد من ذلك # وكانت امرأتي عاقراً # يعني وقد كانت امرأتي في حال شبيبته عاقراً لاتلد .. والله أعلم .

كما قال الخليل : # أبشركموني على أن مسني الكبر فيم تبشرون # (٢) وقالت سارة : # يا ويلتي ألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخاً ، إن هذا لشيء عجيب # قالوا اتعجبين من أمر الله ، رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت ، إنه حميد مجيد # (٣)

وهكذا أجيب زكريا عليه السلام قال له الملك الذي يوحى إليه بأمر ربه : # كذلك قال ربك هو علي هين # أي هذا سهل يسير عليه # وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً # أي قدرته ، أوجدتك بعد أن لم تكن شيئاً مذكوراً أفلا يوجد منك ولد وإن كنت شيئاً ؟ !

وقال تعالى : # فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه ، إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغباً ورهبا ، وكانوا لنا خاشعين # (٤) ومعنى إصلاح زوجته أنها كانت لاتحيض فحاضت . وقيل كان في لسانها شيء ، أي بذاءة .

(٢) سورة الحجر الآية ٥٤ .

(٤) سورة الأنبياء الآية ٩٠

(١) سورة آل عمران الآية ٢٩ .

(٣) سورة هود آيتا ٧٢ - ٧٤ □

﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً ﴾ أي علامة على وقت تعلق مني المرأة بهذا الولد المبشر به
 ﴿ قَالَ آيَتُكَ إِلَّا تَكَلَّمَ النَّاسُ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴾ يقول علامة ذلك أن يعتريك سكت لا تنطق
 معه ثلاثة أيام إلا رمزاً وأنت في ذلك سوى الخلق صحيح المزاج معتدل البنية ، وأمر بكثرة
 الذكر في هذه الحال بالقلب واستحضار ذلك بفؤاده بالعشي والإبكار ، فلا بشر بهذه الشارة
 خرج مسروراً بها على قومه من محرابه ﴿ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ والوحي
 هاهنا هو الأمر الخفي إما بكتابة ، كما قاله مجاهد والسدي ، أو إشارة كما قاله مجاهد أيضاً
 ووهب وقتادة ، قال مجاهد وعكرمة ووهب والدندي وقتادة : اعتقل لسانه من غير مرض .
 وقال ابن زيد : كان يقرأ ويسبح ولكن لا يستطيع كلام أحد .

وقوله تعالى : ﴿ يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ، وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴾ يخبر تعالى عن
 وجود الولد وفق البشارة الإلهية لأبيه زكريا عليه السلام وأن الله علمه الكتاب والحكمة وهو
 صغير في حال صباه .

قال عبد الله بن المبارك : قال معمر : قال الصبيان ليحيى بن زكريا : اذهب بنا نلعب .
 فقال : مالم لعب خلقنا . قال : وذلك قوله : ﴿ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴾ .

وأما قوله : ﴿ وَحَنَانًا مِّنْ لَّدُنَّا ﴾ فروى ابن جرير عن عمرو بن دينار عن عكرمة عن ابن
 عباس أنه قال : لا أدري ما الحنان . وعن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وقتادة والضحاك :
 ﴿ وَحَنَانًا مِّنْ لَّدُنَّا ﴾ أي رحمة من عندنا رحمتنا بها زكريا فوهبنا له هذا الولد ، وعن عكرمة :
 ﴿ وَحَنَانًا ﴾ أي محبة عليه ، ويحتمل أن يكون ذلك صفة لتحنن يحيى على الناس ولا سيما على
 أبويه ، وهو محبتها والشفقة عليهما وبره بهما .

وأما الزكاة فهو طهارة الخلق وسلامته من النقائص والردائل . والتقوى طاعة الله بامتثال
 أوامره وترك زواجره .

ثم ذكر بره بوالديه وطاعته لها أمراً ونهيّاً وترك عقوقها قولاً وفعللاً فقال : ﴿ وَبَرًّا
 بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا ﴾ ثم قال ﴿ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُنْعَثُ ﴾
 حياً . هذه الأوقات الثلاثة أشد ماتكون على الإنسان ، فإنه ينتقل في كل منها من عالم إلى
 عالم أحر ، فيفقد الأول بعد ما كان ألفه وعرفه ، ويصير إلى الآخر ولا يدري ما بين يديه

ولهذا يستهل صارخاً إذا خرج من بين الأحشاء وفارق لينها وضما ، وينتقل إلى هذه الدار ليكابد همومها وغما !

وكذلك إذا فارق هذه الدار وانتقل إلى عالم البرزخ بينهما وبين دار القرار ، وصار بعد الدور والصور إلى عرصة الأموات سكان القبور ، وانتظر هناك النفخة في الصور ليوم البعث والنشور ، فمن مسرور ومحبور ومن محزون ومثبور ، وما بين جبير وكسير وفريق في الجنة وفريق في السعير ، ولقد أحسن بعض الشعراء حيث يقول :

ولدتك أمك باكياً متصرخاً والناس حولك يضحكون سرورا
فاحرص لنفسك أن تكون إذا بكوا في يوم موتك ضاحكاً مسرورا

ولما كانت هذه المواطن الثلاثة أشق ما تكون على ابن آدم سلم الله على يحيى في كل موطن منها فقال : ﴿ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴾ .

وقال سعيد بن أبي عروبة ، عن قتادة أن الحسن قال : إن يحيى وعيسى التقيا ، فقال له عيسى : استغفر لي أنت خير مني . فقال له الآخر : استغفر لي أنت خير مني . فقال له عيسى : أنت خير مني سلمت على نفسك وسلم الله عليك . فعرف والله فضلها .

وأما قوله في الآية الأخرى : ﴿ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ ^(١) فقليل المراد بالحصور الذي لا يأتي النساء ، وقيل غير ذلك ، وهو أشبه لقوله : ﴿ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ﴾ ^(٢) .

وقد قال الإمام أحمد : حدثنا عفان : حدثنا حماد ، أنبأنا علي بن زيد ، عن يوسف بن مهران ، عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : « ما من أحد من ولد آدم إلا وقد أخطأ أو هم بخطيئة ليس يحيى بن زكريا ، وما ينبغي لأحد يقول أنا خير من يونس بن متى » .

على بن زيد بن جدعان تكلم فيه غير واحد من الأئمة ، وهو منكر الحديث . وقد رواه ابن خزيمة والدارقطني عن طريق أبي عاصم العباداني ، عن علي بن زيد بن جدعان به مطولاً . ثم قال ابن خزيمة : وليس على شرطنا .

وقال ابن وهب : حدثني بن لهيعة ، عن عقيل ، عن ابن شهاب ، قال : خرج رسول الله

(٢) سورة ال عمران الآية ٣٨ .

(١) سورة ال عمران الآية ٣٩ .

ﷺ على أصحابه يوماً وهم يتذكرون فضل الأنبياء فقال قائل : موسى كلم الله . وقال قائل : عيسى روح الله وكلمته ، وقال قائل : إبراهيم خليل الله . وهم يذكرون ذلك فقال : « أين الشهيد بن الشهيد ، يلبس الوبر ويأكل الشجر مخافة الذنب » قال ابن وهب : يريد يحيى بن زكريا .

وقد رواه محمد بن إسحاق وهو مدلس ، عن يحيى بن سعيد الأنصاري ، عن سعيد بن المسيب ، حدثني ابن العاص ، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « كل ابن آدم يأتي يوم القيامة وله ذنب إلا ما كان من يحيى بن زكريا » .

فهذا من رواية ابن إسحاق وهو من المدلسين وقد عنعن هاهنا .

ثم قال عبد الرزاق ، عن معمر ، عن قتادة ، عن سعيد بن المسيب مرسلًا .

ثم رأيت ابن عساكر ساقه من طريق أبي أسامة ، عن يحيى بن سعيد الأنصاري ، ثم رواه ابن عساكر من طريق إبراهيم بن يعقوب الجوزجاني خطيب دمشق : حدثنا محمد بن الأصبهاني ، حدثنا أبو خالد الأحمر ، عن يحيى بن سعيد ، عن سعيد بن المسيب ، عن عبد الله ابن عمرو قال : ما أحد إلا يلقي الله بذنب إلا يحيى بن زكريا . ثم تلاه وسيداً وحضوراً ه ثم رفع شيئاً من الأرض فقال : ما كان معه إلا مثل هذا ، ثم ذبح ذبحاً !

وهذا موقوف من هذا الطريق وكونه موقوفاً أصح من رفعه .. والله أعلم ، وأورده ابن عساكر من طرق عن معمر : من ذلك ما أورده من حديث إسحاق بن بشر ، وهو ضعيف ، عن عثمان بن ساج ، عن ثور بن يزيد ، عن خالد بن معدان ، عن معاذ عن النبي ﷺ بنحوه .

وروى عن طريق أبي داود الطيالسي وغيره ، عن الحكم بن عبد الرحمن بن أبي نعيم ، عن أبيه ، عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : « الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة إلا ابني الخالة يحيى وعيسى عليهما السلام » ^(١) .

وقال أبو نعيم الحافظ الأصبهاني : حدثنا إسحاق بن أحمد . حدثنا إبراهيم بن يوسف ، حدثنا أحمد بن أبي الحواري ، سمعت أبا سليمان يقول : حرج عيسى ابن مريم ويحيى بن زكريا

(١) حديث رواه الترمذي

يتاشيان ، فصدى يحيى امرأة فقال له عيسى : يا ابن خالة .. لقد أصبت اليوم خطيئة ما أظن أنه يغفر لك أبداً . قال : وما هي يا ابن خالة ؟ قال : امرأة صدمتها . قال : والله ما شعرت بها . قال : سبحان الله .. بدئك معي فأين روحك ؟ قال : معلق بالعرش ولو أن قلبي اطمأن إلى جبريل لظننت أني ماعرفت الله طرفة عين . فيه غرابة وهو من الإسرائيليات .

وقال إسرائيل عن أبي حصين ، عن خيثة ، قال : كان عيسى ابن مريم ويحيى بن زكريا ابني خالة وكان عيسى يلبس الصوف وكان يحيى يلبس الزبر ولم يكن لواحد منهما دينار ولا درهم ولا عبد ولا أمة ولا مأوى يأويان إليه ، أين ما جنهما الليل أويا ، فلما أرادا أن يتفرقا قال يحيى : أوصني . قال : لاتغضب . قال : لا أستطيع إلا أن أغضب . قال : لا تقن مالا . قال : أما هذه فعسى .

وقد اختلفت الرواية عن وهب بن منبه : هل مات زكريا عليه السلام موتاً أو قتل قتلاً ؟ على روايتين فروى عبد المنعم بن إدريس بن سنان ، عن أبيه ، عن وهب بن منبه ، أنه قال : هرب من قومه فدخل شجرة فجاءوا فوضعوا المنشار عليها ، فلما وصل المنشار إلى أضلاعه أن ، فأوحى الله إليه : لئن لم يسكن أنينك لأقلبن الأرض ومن عليها . فسكن أنينه حتى قطع باثنتين .

وقد روى هذا في حديث مرفوع شورده بعد إن شاء الله .

وروى إسحاق بن بشر ، عن إدريس بن سنان ، عن وهب أنه قال : الذي انصدعت له الشجرة هو شعيا ، فأما زكريا فمات موتاً .. فالله أعلم .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عفان ، أنبأنا أبو خلف موسى بن خلف ، - وكان يعد من البدلاء - حدثنا يحيى بن أبي كثير ، عن زيد بن سلام ، عن جده مطور ، عن الحارث الأشعري أن النبي ﷺ قال : إن الله أمر يحيى بن زكريا بخمس كلمات أن يعمل بهن وأن يأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن ، فإما أن تبلفهن وإما أن أبلغهن . فقال : يا أخي .. إني أخشي إن سبقتني أن أعذب أو يخسف بي . قال : فجمع يحيى بني إسرائيل في بيت المقدس حتى امتلأ المسجد فقعد على الشرف فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : إن الله عز وجل أمرني بخمس كلمات أن أعمل بهن وأمركن أن تعملوا بهن . وأولهن أن تعبدوا الله لاتشركوا به شيئاً ، فإن مثل ذلك

مثل من اشترى عبداً من خالص ماله بورق أو ذهب فجعل يعمل ويؤدي غلبته إلى غير سيده ، فأيك يسره أن يكون عبده كذلك ، وإن الله خلقكم ورزقكم فاعدوه ولا تشركوا به شيئاً .

أمركم بالصلاة فإن الله ينصب وجهه قبل عبده مالم يلتفت فإذا صليتم فلا تلتفتوا .

وأمركم بالصيام فإن الله مثل ذلك كمثل رجل معه صرة من مسك في عصابة كلهم يجد ريح المسك ، وإن خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك .

وأمركم بالصدقة ، فإن مثل ذلك كمثل رجل أسره العدو فشدوا يده إلى عنقه وقدموه ليضربوا عنقه فقال : هل لكم أن أفتدي نفسي منكم فجعل يفتدي نفسه منهم بالقليل والكثير حتي فك نفسه .

وأمركم بذكر الله عز وجل كثيراً ، فإن مثل ذلك كمثل رجل طلبه العدو سراعاً في أثره فأقي حصناً حصيناً فتحصن فيه ، وإن العبد أحصن مايكون من الشيطان إذا كان في ذكر الله عز وجل .

قال : وقال رسول الله ﷺ : « وأنا آمركم بخمس الله أمرني بهن : بالجماعة والسمع والطاعة والمهجرة والجهاد في سبيل الله ، فإن من خرج عن الجماعة قيد شبر فقد خلع ريق الإسلام من عنقه إلا أن يرجع ، ومن دعا بدعوى الجاهلية فهو من حتا جهنم » قال : يارسول الله .. وإن صام وصلي ؟ قال : « وإن صام وصلي وزعم أنه مسلم ، ادعوا المسلمين بأسمائهم بما ساهم الله عز وجل المسلمين المؤمنين عباد الله عز وجل » .

وهكذا رواه أبو يعلى عن هدية بن خالد ، عن أبان بن زيد ، عن يحيى بن أبي كثير به . وكذلك رواه الترمذي من حديث أبي داود الطيالسي وموسى بن إسماعيل ، وكلاهما عن أبان بن يريد العطار به ، ورواه ابن ماجه عن هشام بن عمار ، عن محمد بن شعيب بن سابور ، عن معاوية بن سلام عن أخيه زيد بن سلام ، عن أبي سلام ، عن الحارث الأشعري به ، ورواه الحاكم من طريق مروان بن محمد الطاطري ، عن معاوية بن سلام ، عن أخيه به . ثم قال : تفرد به مروان الطاطري ، عن معاوية بن سلام .

قلت : وليس كما قال . ورواه الطبراني عن محمد بن عبدة ، عن أبي توبة الربيع بن نافع ، عن معاوية بن سلام ، عن أبي سلام ، عن الحارث الأشعري . فذكر نحوه فسقط ذكر زيد بن

سلام ، عن أبي سلام ، عن الحارث الأشعري فذكر نحو هذه الرواية .

ثم روي الحافظ ابن عساكر من طريق عبد الله بن أبي جعفر الرازي ، عن أبيه ، عن الربيع بن أنس ، قال : ذكر لنا عن أصحاب رسول الله ﷺ فيما سمعوا من علماء بني إسرائيل أن يحيى بن زكريا أرسل بخمس كلمات وذكر نحو ماتقدم .

وقد ذكروا أن يحيى عليه السلام كان كثير الانفراد من الناس ، إنما كان يأنس إلى البراري ويأكل من ورق الأشجار ويرد ماء الأنهار ويتغذى بالجراد في بعض الأحيان ، ويقول : من أنعم منك يا يحيى ؟

وروى ابن عساكر أن أبويه خرجا في تطلبه فوجداه عند بحيرة الأردن فلما اجتمعا به أبكاهما بكاء شديدا لما هو فيه من العبادة والخوف من الله عز وجل .

وقال ابن وهب عن مالك ، عن حميد بن قيس عن مجاهد قال كان طعام يحيى بن زكريا العُشب ، وإنه كان يبكي من خشية الله حتي لو كان القار على عينيه لخرقه .

وقال محمد بن يحيى الذهلي : حدثنا الليث ، حدثني عقيل ، عن ابن شهاب ، قال : جلست يوماً إلى أبي إدريس الخولاني وهو يقص فقال : ألا أخبركم بمن كان أطيب الناس طعاماً ؟ فلما رأى الناس قد نظروا إليه قال : إن يحيى بن زكريا كان أطيب الناس طعاماً ؟ إنما كان يأكل مع الوحش كراهة أن يخالط الناس في معاشتهم .

وقال ابن المبارك عن وهيب بن الورد قال : فقد زكريا ابنه يحيى ثلاثة أيام فخرج يلتمسه في البرية فإذا هو قد احتفر قبراً وأقام فيه يبكي على نفسه ، فقال : يا بني .. أنا أطلبك من ثلاثة أيام وأنت في قبر احتفرته قائم تبكي فيه ؟ فقال : يا أبت .. ألسنت أنت أخبرتني أن بيت الجنة والنار مفازة لاتقطع إلا بدموع البكائين . فقال له : ابك يا بني . فبكيا جميعاً . وهكذا حكاه وهيب بن مينه ومجاهد بنحوه .

وروى ابن عساكر عنه أنه قال : إن أهل الجنة لا ينامون للذة ما هم فيه من النعيم ، فكذا ينبغي للصديقين ألا يناموا لما في قلوبهم من نعيم المحبة لله عز وجل ثم قال : كم بين النعيمين وكم بينهما .

وذكروا أنه كان كثير البكاء حتي أثر البكاء في خديه من كثرة دموعه .

مقتل يحيى عليه السلام

وذكروا في قتله أسباباً من أشهرها أن بعض ملوك ذلك الزمان بدمشق كان يريد أن يتزوج ببعض محارمه أو من لا يحل له تزويجها ، فنهاه يحيى عليه السلام عن ذلك فبقي في نفسها منه . فلما كان بينها وبين الملك ما يجب منها استوهبت منه دم يحيى ، فوهبه لها فبعثت إليه من قتله وجاء برأسه ودمه في طست إلى عندها ، فيقال إنها هلكت من فورها وساعتها .

وقيل بل أحبته امرأة ذلك الملك وراسته فأبى عليها ، فلما يئست منه تحيلت في أن استوهبت من الملك ، فتمنع عليها الملك ثم أجابها إلى ذلك فبعث من قتله وأحضر إليها رأسه ودمه في طست .

وقد ورد معناه في حديث رواه إسحاق بن بشر في كتابه « المبتدأ » حيث قال : أنبأنا يعقوب الكوفي ، عن عمرو بن ميمون ، عن أبيه ، عن ابن عباس ، أن رسول الله ﷺ ليلة أسرى به رأى زكريا في السماء فسلم عليه وقال له : يا أبا يحيى .. خبرني عن قتلِكَ كيف كان ولم تقتلك بنو إسرائيل ؟ قال : يا محمد .. أخبرك أن يحيى كان خير أهل زمانه ، وكان أجملهم وأصحبهم وجهاً ، وكان كما قال تعالى : ﴿ سَيِّدًا وَحَصُورًا ﴾ وكان لا يحتاج إلى النساء فهو يته امرأة ملك بني إسرائيل ، وكانت بغية ، فأرسلت إليه وعصمه الله وامتنع يحيى وأبى عليها فأجمعت على قتل يحيى وهم عيد يجتمعون في كل عام ، وكانت سنة الملك أن يعد ولا يخلف ولا يكذب .

قال : فخرج الملك إلى العيد فقامت امرأته فشيخته ، وكان بها معجباً ولم تكن تفعله فيما مضى ، فلما أن شيخته قال الملك : سليلي ، فما سألتني شيئاً إلا أعطيتك . قالت : أريد دم يحيى ابن زكريا . قال لها : سليلي غيره . قالت : هو ذاك : قال : هو لك . قال فبعثت جلاوزتها إلى يحيى وهو في محرابه يصلي وأنا إلى جانبه أصلي ، قال : فذبح في طست وحمل رأسه ودمه إليها . قال : فقال رسول الله ﷺ : فما بلغ من صبرك ؟ قال : ما انفلت من صلاتي .

قال : فلما حمل رأسه إليها فوضع بين يديها فلما أمسوا خسف الله بالملك وأهل بيته وحشه ، فلما أصبحوا قالت بنو إسرائيل : قد غضب إله زكريا لزكريا ، فتعالوا حتى نغضب للملك فنقتل زكريا . قال : فخرجوا في طلب ليقتلوني وجاءني النذير ، فهربت منهم وإبليس أمامهم يدهم على فلما تخوفت ألا أعجزهم عرضت لي شجرة فسادتني وقالت : إليّ إليّ . وانصدعت لي ودخلت فيها .

قال : وجاء إبليس حتي أخذ بطرف ردائي والتأمت الشجرة وبقي طرف ردائي خارجاً من الشجرة ، وجاءت بنو إسرائيل فقال إبليس : أما رأيتموه دخل هذه الشجرة ، هذا طرف ردائه دخلها بسحره . فقالوا : نغرق هذه الشجرة . فقال إبليس : شقوها بالمنشار شقاً . قال : فشقت مع الشجرة بالمنشار .

قال له النبي ﷺ : هل وجدت له مساً أو وجعاً ؟ قال : لا ، إنما وجدت ذلك الشجرة التي جعل الله روعي فيها .

هذا سياق غريب جداً وحديث عجيب ورفعه منكر ، وفيه ما ينكر على كل حال ، ولم ير في شيء من أحاديث الإسرائاء ذكر زكريا عليه السلام إلا في هذا الحديث ، وإنما المحفوظ في بعض ألفاظ الصحيح في حديث الإسرائاء : فررت بابني الخالة يحيى وعيسى وهما ابنا الخالة . فجاء على قول الجمهور كما هو ظاهر الحديث ، فإن أم يحيى أشياخ بنت عمران أخت مريم بنت عمران . وقيل بل أشياخ وهي امرأة زكريا ، أم يحيى هي أخت حنة امرأة عمران أم مزيم ، فيكون يحيى ابن خالة مريم .. فالله أعلم .

ثم اختلف في مقتل يحيى بن زكريا هل كان في المسجد الأقصى أم بغيره على قولين : فقال الثوري عن الأعمش عن شملة بن عطية قال : قتل على الصخرة التي ببيت المقدس سبعون نبياً ، منهم يحيى بن زكريا عليه السلام .

وقال أبو عبيدة القاسم بن سلام : حدثنا عبد الله بن صالح ، عن الليث ، عن يحيى بن سعيد ، عن سعيد بن المسيب قال : قدم بختنصر دمشق ، فإذا هو بدم يحيى بن زكريا يغلي ، فسأل عنه فأخبروه ، فقتل على دمه سبعين ألفاً فسكن . وهذا إسناد صحيح إلى سعيد بن المسيب وهو يقتضي أنه قتل بدمشق وأن قصة بختنصر كانت بعد المسيح كما قاله عطاء والحسن البصري .. فالله أعلم .

وروى الحافظ ابن عساكر من طريق الوليد بن مسلم . عن زيد بن واقد ، قال : رأيت رأس يحيى بن زكريا حين أرادوا بناء مسجد دمشق أخرج من تحت ركن من أركان القبلة الذي يلي المحراب مما يلي الشرق ، فكانت البشرة والشعر على حاله لم يتغير . وفي رواية : كأنما قتل الساعة .

وذكر في بناء مسجد دمشق أنه جعل تحت العمود المعروف بعمود السكاسكة .. فالله أعلم .

وقد روى الحافظ ابن عساكر في « المستقصى في فضائل الأقيص » من طريق العباس بن صبح ، عن مروان ، عن سعيد بن عبد العزيز ، عن قاسم مولي معاوية ، قال : كان ملك هذه المدينة - يعني دمشق - هداد بن هدار ، وكان قد زوج ابنه بابنة أخيه أريل ملكة صيدا ، وقد كان من جملة أملاكها سوق الملوك بدمشق وهو الصاغة العتيقة ، وقال كان قد حلف بطلاقها ثلاثاً . ثم إنه أراد مراجعتها فاستفتى يحيى بن زكريا فقال : لا تحل لك حتى تنكح زوجاً غيرك ، فحققت عليه وسألت من الملك رأس يحيى بن زكريا ، وذلك بإشارة أمها . فأبي عليها ثم أجباها إلى ذلك وبعث إليه وهو قائم يصلي بمسجد جبرون من أتاه برأسه في صينية ، فجعل الرأس يقول له : لا تحل له حتى تنكح زوجاً غيره ، فأخذت المرأة الطبق فحملته على رأسها وأتت به أمها وهو يقول كذلك ، فلما تمثلت بين يدي أمها خسف بها إلى قدميها ثم إلى حقوبها ، وجعلت أمها تولول والجواري يصرخن ويلطمن وجوههن ، ثم خسف بها إلى منكبيها فأمرت أمها السياق أن يضرب عنقها لتتسلي برأسها ، ففعل فلفظت الأرض جثتها عند ذلك ، ووقعوا في الذل والفناء ، ولم يزل دم يحيى يفور حتى قدم بختنصر فقتل عليه خمسة وسبعين ألفاً .

قال سعيد بن عبد العزيز : وهي دم كل نبي . ولم يزل يفور حتى وقف عنده أرميا عليه السلام فقال : أيها الدم .. أفنيت بني إسرائيل فاسكن ، بإذن الله . فسكن فرفع السيف وهرب من هرب من أهل دمشق إلى بيت المقدس فتبعهم إليها فقتل خلقاً كثيراً لا يحصون كثرة وسبي منهم ثم رجع عنهم .



عيسى عليه السلام

قال الله تعالى في سورة آل عمران التي أنزل صدرها وهو ثلاث وثمانون آية منها في الرد على النصاري عليهم لعائن الله ، الذين زعموا أن لله ولداً ، وتعالى الله عما يقولون علواً كبيراً

وكان قد قدم وفد نجران منهم على رسول الله ﷺ فجعلوا يذكرون ما هم عليه من الباطل من التثليث في الأقانيم ويدعون بزعمهم أن الله ثالث ثلاثة وهم الذات المقدسة وعيسى ومريم ، على اختلاف فرقه ، فأنزل الله عز وجل صدر هذه السورة بين فيها أن عيسى عبد من عباد الله خلقه وصوره في الرحم كما صور غيره من المخلوقات وأنه خلقه من غراب كما خلق آدم من غير أب ولا أم ، وقال له كن فكان سبحانه وتعالى . وبين أصل ميلاد أمه مريم وكيف كان من أمرها وكيف حملت بولدها عيسى ، وكذلك بسط ذلك في سورة مريم كما سنتكلم على ذلك كله بعون الله وحسن توفيقه وهدايته .

فقال تعالى وهو أصدق القائلين : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ * ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ ، وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي ، إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ ، وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ * فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ، كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا ، قَالَ يَامَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكَ هَذَا ، قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝ (١) .

يذكر تعالى أنه اصطفى آدم عليه السلام والخلص من ذريته المتبعين شرعه الملازمين طاعته ، ثم خصص فقال : ﴿ وَآلَ إِبْرَاهِيمَ ﴾ فدخل فيهم بنو إسماعيل ثم ذكر فضل هذا البيت الطاهر الطيب وهم آل عمران ، والمراد بعمران هذا والد مريم عليها السلام .

وقال محمد بن إسحاق : وهو عمران بن هاشم بن أمون بن ميثا بن حزقياء بن أحريق بن موثم بن عزازيا بن أمصيا بن يابوش بن أحريق بن يازم بن يهفاشاط بن إيشا بن إيان بن رجبعم بن داود .

(١) سورة آل عمران آيات ٣٣ - ٣٧ .

وقال أبو القاسم بن عساكر : مريم بنت عمران بن ماثان بن العازر بن اليود بن أخنز بن صادق بن عيازور بن الياقيم بن أيبود بن زرابييل ابن شالتال بن يوحينا بن برشا بن أمون ابن ميثا بن حزقيا بن أحاز بن موثام بن حزريا بن يورام بن يوشافاط بن إيشا بن إيبا بن رحبعام بن سليمان بن داود عليه السلام . وفيه مخالفة لما ذكره محمد بن إسحاق .

ولا خلاف أنها من سلالة داود عليه السلام وكان أبوها عمران صاحب صلاة بني إسرائيل في زمانه ، وكانت أمها وهي حنة بنت فاقود بن قبيل من العابدات ، وكان زكريا نبي ذلك الزمان زوج أخت مريم « أشياع » في قول الجمهور وقيل زوج خالتها « أشياع » .. فإله أعلم .

وقد ذكر محمد بن إسحاق وغيره أن أم مريم كانت لا تحبل فرأت يوماً طائراً يزق فرخاً له فاشتت الولد فنذرت لله إن حملت لتجعلن ولدها محرراً أي حبيساً في بيت المقدس .

قالوا : فحاضت من فورها فلما طهرت واقمها بعلمها فحملت بمريم عليها السلام ﴿ فلما وضعتها قالت ربّ إني وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت ﴾ وقرئ بضم التاء ﴿ وليس الذكر كالأنثى ﴾ أي في خدمة بيت المقدس ، وكانوا في ذلك الزمان ينذرون لبيت المقدس خداماً من أولادهم .

وقولها : ﴿ وإني سميتها مريم ﴾ استدل به على تسمية المولود يوم يولد ، وكما ثبت في الصحيحين عن أنس في ذهابه بأخيه إلى رسول الله ﷺ فحنك أخاه وسماه عبد الله . وجاء في حديث الحسن عن سمرة مرفوعاً : « كل غلام رهينة بعقيقته تذبح عنه يوم سابعه ويسمي ويخلق رأسه » .

رواه أحمد وأهل السنن وصححه الترمذي . وجاء في بعض ألفاظه : « ويدمي » بدل « ويسمي » وصححه بعضهم .. والله أعلم .

وقولها : ﴿ وإني أعيدنها بك وذريتها من الشيطان الرجيم ﴾ قد استجيب لها في هذا كما تقبل منها نذرها ، فقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر عن الزهري ، عن ابن المسيب ، عن أبي هريرة ، أن النبي ﷺ قال : « ما من مولود إلا والشيطان يمسّه حين يولد فيستهل صارخاً من مس الشيطان إلا مريم وابنها » ثم يقول أبو هريرة : واقروا إن شئتم : ﴿ وإني أعيدنها بك وذريتها من الشيطان الرجيم ﴾ .

أخرجاه من حديث عبد الرزاق ورواه ابن جرير عن أحمد بن الفرّج عن بقية ، عن عبد

الله بن الزبيدي ، عن الزهري عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ بنحوه .

وقال أحمد أيضاً : حدثنا إسماعيل بن عمر ، حدثنا ابن أبي ذؤيب ، عن عجلان مولى المشتعل ، عن النبي ﷺ قال : « كل مولود من بني آدم يمسسه الشيطان بأصبعه إلا مريم بنت عمران وابنها عيسى »

تفرد به من هذا الوجه . ورواه مسلم عن أبي الطاهر ، عن ابن وهب ، عن عمر بن الحارث ، عن أبي يونس ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ بنحوه .

وقال أحمد : حدثنا هشيم ، حدثنا حفص بن ميسرة ، عن العلاء عن أبيه ، عن أبي هريرة ، أن النبي ﷺ قال : « كل إنسان تلده أمه يلكزه الشيطان في حضنيه إلا ما كان من مريم وابنها ، ألم تر إلى الصبي حين يسقط كيف يصرخ » ؟ قالوا : بلي يا رسول الله . قال : « ذلك حين يلكزه الشيطان بحضنيه » .

وهذا على شرط مسلم ولم يخرجوه من هذا الوجه ، ورواه قيس عن الأعمش ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من مولود إلا وقد عصه الشيطان عصرة - أو عصرتين - إلا عيسى ابن مريم ومريم » ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ .

وكذا رواه محمد بن إسحاق ، عن يزيد بن عبيد الله بن قسيط ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ بأصل الحديث .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الله ، حدثنا المغيرة هو ابن عبد الرحمن الحزامي ؛ عن أبي الزناد ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : « كل بني آدم يطعن الشيطان في جنبه حين يولد إلا عيسى ابن مريم ذهب يطعن فطعن في الحجاب » . وهذا على شرط الصحيحين ولم يخرجوه من هذا الوجه .

وقوله : ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتاً حَسَناً وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾ ذكر كثير من المفسرين أن أمها حين وضعتها لفتها في خرقها ثم خرجت بها إلى المسجد فسلمتها إلى العباد الذين هم مقيمون به ، وكانت ابنة إمامهم وصاحب صلاتهم فتنازعوا فيها ، والظاهر أنها إنما سلمتها إليهم بعد رضاعها وكفالة مثلها في صغرها .

ثم لما دفعتهما إليهم تنازعوا في أيهم يكفلها ، وكان زكريا نبيا في ذلك الزمان ، وقد أراد أن يستبد بها دونهم من أجل زوجته أختها أو خالتها على القولين . فشاحوه في ذلك وطلبوا أن يقتصر معهم ، فساعده المقاتير فخرجت قرعته غالبه لهم وذلك أن الحالة بمنزلة الأم .

قال الله تعالى ﴿ وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾ أي بسبب غلبه لهم في القرعة كما قال تعالى : ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ، وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ (١) . قالوا : وذلك أن كلا منهم ألقى قلمه معروفاً به . ثم حملوها ووضعوها في موضع وأمروا غلاماً لم يبلغ الحنث فأخرج واحداً منها وظهر قلم زكريا عليه السلام . فطلبوا أن يقتروا مرة ثانية وأن يكون ذلك بأن يلقوا أقلامهم في النهر فأبهم جرى قلمه على خلاف جرية الماء فهو الغالب ففعلوها فكان قلم زكريا هو الذي جرى على خلاف جرية الماء ، وسارت أقلامهم مع الماء ثم طلبوا منه أن يقتروا ثالثة فأبهم جرى قلمه مع الماء ويكون بقية الأقلام قد انعكس سيرها صعوداً فهو الغالب ففعلوا فكان زكريا هو الغالب لهم فكفلها إذا كان أحق بها شرعاً وقدرراً لوجوه عديدة .

قال الله تعالى : ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا ، قَالَ يَمَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا ، قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ قال المفسرون : اتخذ لها زكريا مكاناً شريفاً من المسجد لا يدخله سواها ، فكانت تعبد الله فيه وتقوم بما يجب عليها من سداثة البيت إذا جاءت نوبتها ، وتقوم بالعبادة ليلها ونهارها ، حتى صارت يضرب بها المثل بعبادتها في بني إسرائيل ، واشتهرت بما ظهر عليها من الأحوال الكريمة والصفات الشريفة ، حتى إنه كان نبي الله زكريا كلما دخل عليها موضع عبادتها يجد عندها رزقاً غريباً في غير أوانه . فكان يجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء ، وفاكهة الشتاء في الصيف فيسألها ﴿ أَنَّى لَكَ هَذَا ﴾ فتقول : ﴿ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ أي رزق رزقنيه الله ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾

فعند ذلك وهنالك طمع زكريا في وجود ولد من صلبه وإن كان قد أسن وكبر ﴿ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ، إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ قال بعضهم : قال : يامن يرزق مريم الثمر في غير أوانه ، هب لي ولداً وإن كان في غير أوانه ، فكان من خبره وقضيته ما قدمنا ذكره في قصته .

(١) سورة آل عمران الآية ٤٤ .

﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ * يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ واسْجُدي وارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ * ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ، وما كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُونَ أَفَلَا مَهْمُ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وما كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ * إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ * وَيَكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ * قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ، قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ، إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ * وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ ، أَنِّي أَخْلَقْتُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَأُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ وَأُخِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَأَنْبِئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وما تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَلَأَحْلِلَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ، وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ، هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ (١) .

يذكر تعالى أن الملائكة بشرت مريم باصطفاء الله لها من بين سائر نساء عالمي زمانها ، بأن اختارها لإيجاد ولد منها من غير أب وبشرت بأن يكون نبياً شريفاً ﴿ وَيَكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ ﴾ أي في صغره يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، وكذلك في حال كهولته ، فدل على أن يبلغ الكهولة ويدعو إلى الله فيها ، وأمرت بكثرة العبادة والقنوت والسجود والركوع لتكون أهلاً لهذه الكرامة ولتقوم بشكر هذه النعمة . فيقال إنها كانت تقوم في الصلاة حتى تفطرت قدماها رضي الله عنها ورحمها ورحم أمها وأباها .

فقول الملائكة : ﴿ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ ﴾ أي اختارك واجتباك ﴿ وَطَهَّرَكِ ﴾ أي من الأخلاق الرذيلة وأعطاك الصفات الجميلة ﴿ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴾ يحتمل أن يكون المراد عالمي زمانها كقوله لموسى : ﴿ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ ﴾ (٢) وكقوله عن بني إسرائيل : ﴿ وَلَقَدْ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ (٣) ومعلوم أن إبراهيم عليه السلام أفضل من موسى ، وأن محمداً ﷺ أفضل منها ، وكذلك هذه الأمة أفضل من سائر الأمم قبلها وأكثر عدداً وأفضل علماً وأزكى عملاً من بني إسرائيل وغيرهم .

ويحتمل أن يكون قوله : ﴿ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴾ محفوظ العموم فتكون أفضل

(١) سورة آل عمران آيات ٤٢ - ٥١ .

(٢) سورة الأعراف الآية ١٤٤ .

(٣) سورة الدخان الآية ٣٢ .

نساء الدنيا ممن كان قبلها أو جد بعدها لأنها إن كانت نبية على قول من يقول بنبوته ونبوة سارة أم إسحاق ونبوة أم موسى محتجاً بكلام الملائكة والوحي إلى أم موسى ، كما يزعم ذلك ابن حزم وغيره ، فلا يمتنع على هذا أن تكون مريم أفضل من سارة أم موسى لعموم قوله : ﴿ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاء الْعَالَمِينَ ﴾ إذ تم يعارضه غيره .. والله أعلم .

وأما قول الجمهور كما قد حكاه أبو الحسن الأشعري وغيره عن أهل السنة والجماعة من أن النبوة مختصة بالرجال ، وليس في النساء نبية فيكون أعلى مقامات مريم كما قال الله تعالى : ﴿ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ ﴾ ^(١) فعلى هذا لا يمتنع أن تكون أفضل الصديقات المشهورات ممن كان قبلها ومن يكون بعدها .. والله أعلم . وقد جاء ذكرها مقروناً مع آسية بنت مزاحم وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد ﷺ ورضي الله عنهن وأرضاهن .

وقد روي الإمام أحمد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي من طرق عديدة ، عن هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن عبد الله بن جعفر ، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « خير نسائها مريم بنت عمران ، وخير نسائها خديجة بنت خويلد » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، أنبأنا معمر ، عن قتادة ، عن أنس ، قال : قال رسول الله ﷺ : « حسبك من نساء العالمين بأربع : مريم بنت عمران ، وآسية امرأة فرعون ، وخديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد » .

ورواه الترمذي عن أبي بكر بن زنجويه ، عن عبد الرزاق به وصححه ، ورواه ابن مردويه من طريق عبد الله بن أبي جعفر الرازي وابن عساكر من طريق تميم بن زياد ، كلاهما عن أبي جعفر الرازي ، عن ثابت ، عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « خير نساء العالمين أربع : مريم بنت عمران ، وآسية امرأة فرعون ، وخديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد رسول الله » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر ، عن الزهري ، عن ابن المسيب ، قال : كان أبي هزيرة يحدث أن النبي ﷺ قال : « خير نساء ركن الإبل صالح نساء قریش أحناه على ولد في صغره وأرعاه لزوج في ذات يده » قال أبو هريرة : ولم تركب مريم بعيراً قط .

(٢) سورة المائدة الآية ٧٥ .

وقد رواه مسلم في صحيحه عن محمد بن رافع وعبد بن حميد ، كلاهما عن عبد الرزاق به .

وقال أحمد : حدثنا زيد بن الحباب ، حدثني موسى بن علي . سمعت أبي يقول : سمعت أبا هريرة يقول : قال رسول الله ﷺ : « خير نساء ركن الإبل نساء قريش أحشاء على ولد في صغره وأرأفه بزواج على قلة ذات يده » قال أبو هريرة : وقد علم رسول الله ﷺ أن ابنة عمران لم تتركب الإبل .

تفرد به وهو على شرط الصحيح . ولهذا الحديث طرق أخر عن أبي هريرة .

وقال أبو يعلى الموصلي : حدثنا يونس بن محمد ، حدثنا داود بن أبي الفرات ، عن علباء ابن أحر ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : خط رسول الله ﷺ في الأرض أربع خطوط فقال : « أتدرون ما هذا » ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، فقال رسول الله ﷺ : « أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد ومريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون » ورواه النسائي من طرق عن داود بن أبي هند .

وقد رواه ابن عساكر من طريق أبي بكر عبد الله بن أبي داود سليمان بن الأشعث ، حدثنا يحيى بن حاتم العسكري : أنبأنا بشر بن مهران بن حمدان ، حدثنا محمد بن دينار ، عن داود بن أبي هند ، عن الشعبي ، عن جابر بن عبد الله ، قال : قال رسول الله ﷺ : « حسبك منهن أربع سيدات نساء العالمين : فاطمة بنت محمد ، وخديجة بنت خويلد ، وآسية بنت مزاحم ، ومريم بنت عمران » .

وقال أبو القاسم البغوي : حدثنا وهب بن بقية ، حدثنا خالد بن عبد الله الواسطي ، عن محمد بن عمرو ، عن أبي سلمة ، عن عائشة ، أنها قالت لفاطمة : أرايت حين أكببت على رسول الله ﷺ فبكيت ثم ضحكت ؟ قالت : أخبرني أنه ميت من وجهه هذا فبكيت ، ثم أكببت عليه فأخبرني أنه أسرع أهل له لحوقاً به وأني سيده نساء أهل الجنة إلا مريم بنت عمران فضحكت .

وأصل هذا الحديث في الصحيح . وهذا إسناد على شرط مسلم وفيه أنها أفضل الأربع المذكورات .

وهكذا الحديث الذي رواه الإمام أحمد : حدثنا عثمان بن محمد حدثنا جرير ، عن يزيد - هو ابن أبي زياد - عن عبد الرحمن بن أبي نعم ، عن أبي سعيد ، قال : قال رسول الله ﷺ :

« فاطمة سيدة نساء أهل الجنة إلا ما كان من مريم بنت عمران » إسناده حسن وصححه الترمذي ولم يخرجوه ، وقد روي نحوه من حديث علي بن أبي طالب ولكن في إسناده ضعف .

والمقصود أن هذا يدل على أن مريم وفاطمة أفضل هذه الأربع ، ثم يحتمل الاستثناء أن تكون مريم أفضل من فاطمة ويحتمل أن يكونا على السواء في الفضيلة .

ولكن ورد حديث إن صح عين الاحتمال الأول فقال الحافظ أبو القاسم بن عساكر : أنبأنا أبو الحسين بن الفراء وأبو غالب وأبو عبد الله ابنا البنا ، قالوا : أنبأنا أبو جعفر بن المسلمة ، أنبأنا أبو طاهر الخليل ، حدثنا أحمد بن سليمان ، حدثنا الزبير هو ابن بكار ، حدثنا محمد بن الحسن ، عن عبد العزيز بن محمد ، عن موسى بن عقبة عن كريب ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « سيدة نساء أهل الجنة مريم بنت عمران ثم فاطمة ثم خديجة ثم آسية امرأة فرعون » .

فإن كان هذا اللفظ محفوظاً بـم التي للترتيب فهو مبين لأحد الاحتمالين اللذين دل عليهما الاستثناء ، وتقدم على ما تقدم من الألفاظ التي وردت بـواو العطف التي لا تقتضي الترتيب ولا تنفيه .. والله أعلم .

وقد روى هذا الحديث أبو حاتم الرازي عن داود الجعفري عن عبد العزيز بن محمد وهو الدراوردي ، عن إبراهيم عن عقبة ، عن كريب ، عن ابن عباس مرفوعاً ، فذكره بـواو العطف لاثم الترتيبية ، فخالفه إسناده ومتناً .. فالحق أعلم .

فأما الحديث الذي رواه ابن مردويه من حديث شعبة ، عن معاوية بن قرة ، عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ : « كل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا ثلاث : مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون وخديجة بنت خويلد ، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام » وهكذا الحديث الذي رواه الجماعة إلا أبا داود من طرق ، عن شعبة ، عن عمرو ابن مرة ، عن مرة الهمداني ، عن أبي موسى الأشعري ، قال قال رسول الله ﷺ : « كل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون ومريم بنت عمران ، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام » .

فإنه حديث صحيح كما ترى اتفق الشيخان على إخراجه ، ولفظه يقتضي حصر الكمال في النساء في مريم وآسية ، ولعل المراد بذلك في زمانها فإن كلا منهما كفلت نبياً في حال صغره ،

فأسية كفلت موسى الكليم ، ومريم كفلت ولدها عبد الله ورسوله ، فلا ينفي كمال غيرها في هذه الأمة كخديجة وفاطمة .

فخديجة خدمت رسول الله ﷺ قبل البعثة خمسة عشر سنة وبعدها أزيد من عشر سنين ، وكانت له وزير صدق بنفسها ومالها ، رضي الله عنها وأرضاها .

وأما فاطمة بنت رسول الله ﷺ فإنها خصت بمزيد فضيلة على أخواتها لأنها أصيبت برسول الله ﷺ وببقية أخواتها متن في حياة النبي ﷺ .

وأما عائشة فإنها كانت أحب أزواج رسول الله ﷺ إليه ولم يتزوج بكرة غيرها ، ولا يعرف في سائر النساء في هذه الأمة - بل ولا في غيرها - أعلم منها ولا أفهم ، وقد غار الله لها حين قال لها أهل الإفك ما قالوا فأنزل الله براءتها من فوق سبع سموات ، وقد عمرت بعد رسول الله ﷺ قريباً من خمسين سنة تبلغ عنه القرآن والسنة وتفي المسلمين وتصلح بين المختلفين وهي أشرف أمهات المؤمنين حتى خديجة بنت خويلد أم البنات والبنين في قول طائفة من العلماء السابقين واللاحقين ، والأحسن الوقف فيها رضي الله عنها ، وماذا لك إلا لأن قوله ﷺ : « وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام » يحتمل أن يكون عاماً بالنسبة إلى المذكورات وغيرهن ويحتمل أن يكون عاماً بالنسبة إلى ماعدا المذكورات .. والله أعلم .

والمقصود هاهنا ذكر ما يتعلق بمريم بنت عمران عليها السلام ، فإن الله طهرها واصطفاهنا على نساء عالمي زمانها ، ويجوز أن يكون تفضيلها على النساء مطلقاً كما قدمنا . وقد ورد في حديث أنها تكون من أزواج النبي ﷺ في الجنة هي وأسية بنت مزاحم . وقد ذكرنا في التفسير عن بعض السلف أنه قال ذلك واستأنس بقوله : ﴿ قُتِبَاتٍ وَأُبْكَارٍ ﴾ ^(١) قال : فالثيب أسية ومن الأبكار مريم بنت عمران . وقد ذكرناه في آخر سورة التحريم .. فالله أعلم .

قال الطبراني : حدثنا عبد الله بن ناجية ، حدثنا محمد بن سعد العوفي ، حدثنا أبي ، أنبأنا عمي الحسين ، حدثنا يونس بن نفيع ، عن سعد بن جنادة ، هو العوفي ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله زوجني في الجنة مريم بنت عمران وامرأة فرعون وأخت موسى » .

رواه ابن جعفر العقيلي من حديث عبد النور به وزاد فقلت : هنيئاً لك يا رسول الله . ثم

(١) سورة التحريم الآية .

قال العقيلي : وليس بمحفوظ .

وقال الزبير بن بكار : حدثني محمد بن الحسن ، عن يعلى بن المغيرة عن أبي دواد ، قال : دخل رسول الله ﷺ على خديجة وهي في مرضها الذي توفيت فيه فقال لها : « بالكره مني ما أري منك ياخديجة ، وقد يجعل الله في الكره خيراً كثيراً ، أما علمت أن الله قد زوجني معك في الجنة مريم بنت عمران وكلثم أخت موسى وآسية امرأة فرعون » ؟ قالت : وقد فعل الله بك ذلك يا رسول الله ؟ قال : « نعم » قالت : بالرفاء والبنين .

وروى ابن عساكر من حديث محمد بن زكريا الفلابي ، حدثنا العباس بن بكار ، حدثنا أبو بكر الهذلي ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، أن رسول الله ﷺ دخل على خديجة وهي في مرض الموت فقال : « ياخديجة .. إذا لقيت ضرائك فأقرئيهن مني السلام » قالت : يا رسول الله .. وهل تزوجت قبلي ؟ قال : « لا ، ولكن الله زوجني مريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم وكلثم أخت موسى » .

وروى ابن عساكر من طريق سويد بن سعيد ، حدثنا محمد بن صالح بن عمر ، عن الضحاك ومجاهد ، عن ابن عمر ، قال : نزل جبريل إلى رسول الله ﷺ بما أرسل به وجلس يحدث رسول الله ﷺ إذ مرت خديجة فقال جبريل : من هذه يا محمد ؟ قال : « هذه صديقة أمتي » قال جبريل : معي إليها رسالة من الرب عز وجل يقرئها السلام ويبشرها ببيت في الجنة من قصب بعيد من اللهب لانصب فيه ولا صخب . قالت : الله السلام ومنه السلام والسلام عليكما ورحمة الله وبركاته على رسول الله ، وما ذلك البيت الذي من قصب ؟ قال : « لؤلؤة جوفاء بين بيت مريم بنت عمران وبيت آسية بنت مزاحم ، وهما من أزواج يوم القيامة » .

وأصل السلام على خديجة من الله وبشارتها ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا وصب في الصنيح ، ولكن هذا السياق بهذه الزيادات غريب جداً ، وكل من هذه الأحاديث في أسانيدنا نظر .

وروى ابن عساكر من حديث أبي زرعة الدمشقي ، حدثنا عبد الله بن صالح ، حدثني معاوية ، عن صفوان بن عمرو ، عن خالد بن معدان عن كعب الأحبار أن معاوية سأله عن الصخرة - يعني صخرة بيت المقدس - فقال : الصخرة على نخلة ، والنخلة على نهر من أنهار

الجنة ، وتحت النخلة مريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم ينظمان سموط أهل الجنة حتي تقوم الساعة .

ثم رواه من طريق إسماعيل ، عن عياش ، عن ثعلبة بن مسلم ، عن مسعود ، عن عبد الرحمن ، عن خالد بن معدان ، عن عبادة بن الصامت عن النبي ﷺ بثله .
وهذا منكر من هذا الوجه بل هو موضوع .

وقد رواه أبو زرعة عن عبد الله بن صالح ، عن معاوية عن مسعود بن عبد الرحمن ، عن ابن عابد ، أن معاوية سأل كعباً عن صخرة بيت المقدس فذكره .

قال الحافظ ابن عساكر : وكونه من كلام كعب الأخبار أشبه .

قلت : وكلام كعب الأخبار هذا إنما تلقاه من الإسرائيليات التي منها ماهو مكذوب مفتعل وضعه بعض زنادقتهم أو جهالهم . وهذا منه .. والله أعلم .

ميلاد عيسى ابن مريم

قال الله تعالى : ﴿ وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ اتَّخَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴾ فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴾ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ، وَلْنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا ، وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا ﴾ فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴾ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَالَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا ﴾ فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴾ وَهَزِي إِلَيْكَ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا ﴾ فَكَلَّمِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ، فإِذَا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ﴾ فَاتَّتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِيلَةً ، قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا قَرِيًّا ﴾ يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ، قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي

بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا * وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا * وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا * ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ * مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ ، مَسْنَعَانَهُ ، إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ، هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ * فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ ، قَوْلَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدٍ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١١﴾ .

ذكر تعالى هذه القصة بعد قصة زكريا التي هي كالمقدمة لها والتوطئة قبلها ، كما ذكر في سورة آل عمران ، . قرن بينها في سياق واحد ، وكما قال في سورة الأنبياء : ﴿ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَاهُ لَهُ زَوْجَهُ ، إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ، وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ * وَالَّتِي أَحْصَيْنَا قُرْبَهَا فَتَنَخَّضْنَا فِيهَا مِنْ رَوْحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَإِنَّمَا آيَةٌ لِلْعَالَمِينَ ﴾ (٢) .

وقد تقدم أن مريم لما جعلتها أمها محررة تخدم بيت المقدس ، وأنه كفّلها زوج أختها أو خالتها نبي ذلك الزمان زكريا عليه السلام ، وأنه اتخذ لها محراباً وهو المكان الشريف من المسجد ، لا يدخله أحد عليها سواء ، وأنها لما بلغت اجتهدت في العبادة فلم يكن في ذلك الزمان نظيرها في فنون العبادات ، وظهر عليها من الأحوال ما غبطها به زكريا عليه السلام ، وأنها خاطبتها الملائكة بالبشارة لها باصطفاء الله لها وبأنه سيهب لها ولداً زكياً يكون نبياً كريماً طاهراً مكرماً مؤيداً بالمعجزات ، فتعجبت من وجود ولد من غير والد ، لأنها لا زوج لها ، ولا هي ممن تتزوج فأخبرتها الملائكة بأن الله قادر على ما يشاء إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ، فاستكانت لذلك وأنابت وسمت لأمر الله ، وعلمت أن هذا فيه محنة عظيمة لها ، فإن الناس يتكلمون فيها بسببه ، لأنهم لا يعلمون حقيقة الأمر ، وإنما ينظرون إلى ظاهر الحال من غير تدبر ولا تعقل .

وكانت إنما تخرج من المسجد في زمن حيضها أو لحاجة ضرورية لا بد منها من استقاء ماء أو تحصيل غذاء ، فبينما هي يوماً قد خرجت لبعض شئونها ﴿ ائْتَبَذَتْ ﴾ أي انفردت وحدها شرقي المسجد الأقصى إذا بعث الله إليها الروح الأمين جبريل عليه السلام ﴿ فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾ فلما رآته ﴿ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ﴾ قال أبو العالية : علمت أن التقي ذو نية . وهذا يرد قول من زعم أنه كان في بني إسرائيل رجل فاسق مشهور بالفسق

(٢) سورة الأنبياء آيات ٨٩ - ٩١ .

(١١) سورة مريم آيات ١٦ - ٢٧ .

اسمه « تقي » فإن هذا قول باطل بلا دليل ، وهو من أسخف الأقوال .

﴿ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ ﴾ أي خاطبها الملك ﴿ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ ﴾ أي لست بشيء ولكني ملك بعثني الله إليك ﴿ لَأَهَبَ لَكَ غُلَامًا زَكِيًّا ﴾ أي ولدًا زكيًا .

﴿ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ ﴾ أي كيف يكون لي غلام أو يوجد لي ولد ﴿ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾ أي ولست ذات زوج وما أنا ممن يفعل الفاحشة ﴿ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلِيمٌ هَيِّئْ ﴾ أي فأجابها الملك عن تعجبها من وجود ولد منها والحالة هذه قائلاً : ﴿ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ ﴾ أي وعد أنه سيخلق منك غلاماً ولست بذات بعل ، ولا تكونين ممن تبغين ﴿ هُوَ عَلِيمٌ هَيِّئْ ﴾ أي وهذا سهل عليك ويسير لديه ، فإنه على ما يشاء قدير .

وقوله : ﴿ وَلَنَجْعَلَنَّ آيَةً لِلنَّاسِ ﴾ أي ولنجعل خلقه والحالة هذه دليلاً على كمال قدرتنا على أنواع الخلق ، فإنه تعالى خلق آدم من غير ذكر ولا أنثى ، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى ، وخلق عيسى من أنثى بلا ذكر ، وخلق بقية الخلق من ذكر وأنثى . وقوله ﴿ وَرَحْمَةً مِنَّا ﴾ أي نرحم به العباد بأن يدعواهم إلى الله في صغره وكبره في طفولته وكهولته ، بأن يفردوا الله بالعبادة وحده لا شريك له وينزهوه عن اتخاذ صاحبة الأولاد والشركاء والنظر والأضداد والأنداد .

وقوله : ﴿ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾ يحتل أن يكون هذا من تمام كلام جبريل معها ، يعني أن هذا أمر قضاه الله وحتمه وقدره وقرره ، وهذا معنى قول محمد بن إسحاق واختياره ابن جرير ، ولم يحك سواه .. والله أعلم .

ويحتل أن يكون قوله : ﴿ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾ كناية عن نفخ جبريل فيها كما قال تعالى : ﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَةَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رَوْحِنَا ﴾ ^(١)

فذكر غير واحد من السلف أن جبريل نفخ في جيب درعها فنزلت النفخة إلى فرجها فحملت من فورها كما تحمل المرأة عند جماع بعلها . ومن قال إنه نفخ في فمها أو أن الذي كان يخاطبها هو الروح الذي ولج فيها من فمها ، فقله خلاف ما يفهم من سياقات هذه القصة في محالها من القرآن ، فإن هذا السياق يدل على أن الذي أرسل إليها ملك من الملائكة وهو جبريل عليه السلام ، وأنه إنما نفخ فيها ولم يواجه الملك الفرج بل نفخ في جيبها فنزلت النفخة

(١) سورة التحريم الآية ١٢ .

إلى فرجها فانسلكت فيه . كما قال تعالى : ﴿ فَتَقَفْنَا فِيهِ مِنْ رَوْحِنَا ﴾ فدل على أن النفخة ولجت فيه لا في فمها ، كما رواه السدي بإسناده عن بعض الصحابة .

ولهذا قال تعالى : ﴿ فَحَمَلَتْهُ ﴾ أي فحملت ولدها ﴿ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴾ وذلك لأن مريم عليها السلام لما حملت ضاقت به ذرعاً ، وعلمت أن كثيراً من الناس سيكون منهم كلام في حقها ، فذكر غير واحد من السلف منهم وهب بن منبه أنها لما ظهرت عليها مخايل الحمل كان أول من فطن لذلك رجل من عباد بني إسرائيل يقال له يوسف بن يعقوب النجار ، وكان ابن خالها فجعل يتعجب من ذلك عجباً شديداً ، وذلك لما يعلم من ديانتها ونزاهتها وعبادتها وهو مع ذلك يراها حبلً وليس لها زوج ، فعرض لها ذات يوم في الكلام فقال : يا مريم .. هل يكون زرع من غير بذر ؟ قالت : نعم ، فمن خلق الزرع الأول . ثم قال : فهل يكون ولد من غير ذكر ؟ قالت : نعم إن الله خلق آدم من غير ذكر ولا أنثى . قال لها : فأخبريني خبرك . فقالت : إن الله بشرني ﴿ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿ ^(١) .

ويروي مثل هذا عن زكريا عليه السلام أنه سألهما فأجابته بمثل هذا .. والله أعلم .

وذكر السدي بإسناده عن الصحابة : أن مريم دخلت يوماً على أختها فقالت لها أختها : أشعرت أُنَى حبلٍ ؟ فقالت مريم : وشعرت أيضاً أُنَى حبلٍ ؟ فاعتنقتها وقالت لها أم يحيى : إني أرى ما في بطني يسجد لما في بطنك وذلك قوله : ﴿ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ ﴾ ^(٢) ومعنى السجود هاهنا الخضوع والتعظيم ، كالسجود عند المواجهة للسلام كما كان في شرع من قبلنا ، وكما أمر الله الملائكة بالسجود لآدم .

وقال أبو القاسم : قال مالك : بلغني أن عيسى ابن مريم ويحيى بن زكريا ابنا خالة وكان حملهما جميعاً معاً ، فبلغني أن أم يحيى قالت لمريم : إني أرى ما في بطني يسجد لما في بطنك . قال مالك : أرى ذلك لتفضيل عيسى عليه السلام ، لأن الله تعالى جعله يحيى الموتي ويبرئ الأكمه والأبرص . رواه ابن أبي حاتم .

وروى عن مجاهد قال : قالت مريم : كنت إذا خلوت حدثني وكلمني وإذا كنت بين الناس سَبَّحَ في بطني .

(١) سورة آل عمران آيتا ٤٥ ، ٤٦ .

(٢) سورة آل عمران الآية ٣٩ .

ثم الظاهر أنها حملت به تسعة أشهر كما تحمل النساء ويضعن لميقات حملهن ووضعهن ، إذ لو كان خلاف ذلك لذكر .

وعن ابن عباس وعكرمة أنها حملت به ثمانية أشهر ، وعن ابن عباس ما هو إلا أن حملت به فوضعت ، قال بعضهم : حملت به تسع ساعات واستأنسوا لذلك بقوله : ﴿ فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَدَّتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴾ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ ﴿ .

والصحيح أن تعقيب كل شيء بحسبه ، كقوله : ﴿ فَتَضَبَّعَ الْأَرْضُ مَغْضَرَةً ﴾ وكقوله : ﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا النَّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مَضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمَضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ، فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ ^(١) ومعلوم أن بين كل حالين أربعين يوماً كما ثبت في الحديث المتفق عليه .

قال محمد بن إسحاق : شاع واشتهر في بني إسرائيل أنها حامل ، فما دخل على أهل بيت ما دخل على آل بيت زكريا .

قال : واتهما بعض الزنادقة ييوسف الذي كان يتعبد معها في المسجد ، وتوارت عنهن مريم واعتزلتهم وانتبذت مكاناً قاصياً . وقوله : ﴿ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ ﴾ أي فألجأها واضطرها الطلق إلى جذع النخلة ، وهو بنص الحديث الذي رواه النسائي بإسناد لا بأس به عن أنس مرفوعاً والبيهقي بإسناد وصححه عن شداد بن أوس مرفوعاً أيضاً ببيت لحم الذي بني عليه بعض ملوك الروم فيما بعد على ما سذكركه هذا البناء المشاهد الهائل .

﴿ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا ﴾ فيه دليل على جواز تمني الموت عند الفتن ، وذلك أنها علمت أن الناس يتهمونها ولا يصدقونها بل يكذبونها حين تأتيهم بغلام على يدها ، مع أنها قد كانت عندهم من العابدات الناسكات المجاورات في المسجد المنقطعات إليه المعتكفات فيه ، ومن بيت النبوة والديانة فحملت بسبب ذلك من الهم ما تمننت أن لو كانت ماتت قبل هذا الحال أو كانت ﴿ نَسِيًّا مَنْسِيًّا ﴾ أي لم تخلق بالكلية .

وقوله : ﴿ فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا ﴾ وقرئ مِنْ ﴿ تَحْتِهَا ﴾ على الخفض .

(١) سورة المؤمنون الآية ١٤ .

وفي المضر قولان ، أحدهما أنه جبريل . قاله العوفي عن ابن عباس قال : ولم يتكلم عيسى إلا بحضرة القوم . وبهذا قال سعيد بن جبير وعمر بن ميمون والضحاك والسدي وقشادة . وقال مجاهد والحسن وابن زيد وسعيد بن جبير في رواية : هو ابنها عيسى ، واختاره ابن جرير .

وقوله : ﴿ أَلَا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكَ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴾ قيل النهر وإليه ذهب الجمهور . وجاء فيه حديث رواه الطبراني لكنه ضعيف واختاره ابن جرير وهو الصحيح وعن الحسن والربيع بن أنس وابن أسلم وغيرهم أنه ابنها . والصحيح الأول لقوله : ﴿ وَهَٰؤُلَاءِ إِلَيْكَ يَجْعَدُ النَّخْلَةُ تَسَاقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا ﴾ فذكر الطعام والشراب ولهذا قال : ﴿ فَكُلِّي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ﴾ ..

ثم قيل : كان جذع النخلة يابساً وقيل كانت نخلة مثمرة .. فالله أعلم . ويحتمل أنها كانت نخلة ، لكنها لم تكن مثمرة إذا ذاك لأن ميلاده كان في زمن الشتاء وليس ذاك وقت ثمر ، وقد يفهم ذلك من قوله تعالى على سبيل الامتنان ﴿ تَسَاقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا ﴾ .

قال عمرو بن ميمون : ليس شيء أجود للنفساء من التمر والرطب ثم تلا هذه الآية . وقال ابن أبي حاتم : حدثنا علي بن الحسين حدثنا شيبان ، حدثنا مسروق بن سعيد التيمي ، حدثنا عبد الرحمن بن عمرو الأزاعي عن عروة بن رويم عن علي بن أبي طالب قال : قال رسول الله ﷺ : « أكرموا عتكم النخلة فإنها خلقت من الطين الذي خلق منه آدم وليس من الشجر شيء يلقح غيرها » . وقال رسول الله ﷺ : « أطعموا نساءكم الولد الرطب ، فإن لم يكن رطب فتمر ، وليس من الشجر شجرة أكرم على الله من شجرة نزلت تحتها مريم بنت عمران » .

وكذا رواه أبو يعلى في مسنده عن شيبان بن فروخ ، عن مسروق بن سعيد ، وفي رواية مسروق بن سعد ، والصحيح مسروق بن سعيد التيمي ، أورد له ابن عدي هذا الحديث عن الأزاعي به ، ثم قال : وهو منكر الحديث ولم أسمع بذكره إلا في هذا الحديث .

وقال ابن حبان : يروى عن الأزاعي المناكير الكثيرة التي لا يجوز الاحتجاج بمن يروها .

قوله : ﴿ فَبِمَا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ﴾ وهذا من تمام كلام الذي ناداها من تحتها قال : ﴿ كَلِّي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ﴾ ، فَبِمَا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا ﴿ (١) أي فإن رأيت أحداً من الناس ﴾ فَقُولِي ﴿ له أي بلسان الحال

(١) سورة مريم الآية ٢٦ .

والإشارة ﴿ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا ﴾ أي صمتاً ، وكان من صومهم في شريعتهم ترك الكلام والطعام . قاله قتادة والسدي وابن أسلم ، ويدل على ذلك قوله : ﴿ فَلَنُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ﴾ فأما في شريعتنا فيكره للصائم صمت يوم إلى الليل .

وقوله تعالى : ﴿ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ ، قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴾ * يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴾ ^(١) ذكر كثير من السلف من ينقل عن أهل الكتاب أنهم لما افتقدوها من بين أظهرهم ذهبوا في طلبها ففروا على محلها والأنوار حولها ، فلما واجهوها وجدوا معها ولدها فقالوا لها : ﴿ يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴾ أي امرأة عظيماً منكراً . وفي هذا الذي قالوه ، مع أنه كلام ينقض أوله آخره وذلك لأن ظاهر سياق القرآن العظيم يدل على أنها حملته بنفسها وأتت به قومها وهي تحمله . قال ابن عباس : وذلك بعد ماتعالت من نفاسها بعد أربعين يوماً .

والمقصود أنهم لما رأوها تحمل معها ولدها ﴿ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴾ والفريفة هي الفعلة المنكرة العظيمة من الفعال والمقال .

ثم قالوا لها : ﴿ يَا أُخْتَ هَارُونَ ﴾ قيل شبهوها بعباد من عباد زمانهم كانت تساميه في العبادة ، وكان اسمه هارون . قاله سعيد بن جبير . وقيل أرادوا بهارون أخا موسى شبهوها به في العبادة ، وأخطأ محمد بن كعب القرظي في زعمه أنها أخت موسى وهارون نسباً فإن بينهما من الدهور الطويلة ما لا يخفى على أدنى من عنده من العلم ما يردده عن هذا القول الفظيع ، وكأنه غره أن في التوراة أن مريم أخت موسى وهارون ضربت بالددف يوم نجى الله موسى وقومه وأغرق فرعون وملأه ، فاعتقد أن هذه هي هذه .

وهذا في غاية البطلان والخالفة للحديث الصحيح مع نص القرآن كما قرناه في التفسير مطولاً والله الحمد والمنة .

وقد ورد في الحديث الصحيح الدال على أنه قد كان لها أخ اسمه هارون وليس في ذكر قصة ولادتها وتحرير أمها لها ما يدل على أنها ليس لها أخ سواها .. والله أعلم .

قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الله بن إدريس ، سمعت أبي يذكره ، عن سماك ، عن علقمة ابن وائل ، عن المغيرة بن شعبه قال : بعثني رسول الله ﷺ إلى نجران فقالوا : أرأيت

(١) سورة مريم الآية آيتا ٢٧ ، ٢٨ .

ماتقروءون : ﴿ يَا أُخْتَ هَارُونَ ﴾ وموسى قبل عيسى بكذا وكذا ؟ قال فرحت فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال : « ألا أخبرتهم أنهم كانوا يسمون بالأنبياء والصالحين قبلهم » .

وكذا رواه مسلم والنسائي والترمذي من حديث عبد الله بن إدريس ، وقال الترمذي : حسن صحيح غريب لانعرفه إلا من حديثه ، وفي رواية : « ألا أخبرتهم أنهم كانوا يسمون بأسماء صالحهم وأنبيائهم » .

وذكر قتادة وغيره أنهم كانوا يكثر من التسمية بهارون حيث قيل إنه حضر بعض جنازتهم بشر كثير منهم ممن يسمى بهارون أربعون ألفاً .. فالله أعلم .

والمقصود أنهم قالوا : ﴿ يَا أُخْتَ هَارُونَ ﴾ ودل الحديث على أنها قد كان لها أخ نسي اسمه هارون وكان مشهوراً بالدين والصلاة والخير ، ولهذا قالوا : ﴿ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا ﴾ أي لست من بيت هذا شيتهم ولا سجيتهم لا أخوك ولا أمك ولا أبوك . فاتهموها بالفاحشة العظمى ورموها بالداهية الدهياء .

فذكر ابن جرير في تاريخه أنهم اتهموا بها زكريا وأرادوا قتله ففر منهم فلحقوه وقد انشقت له الشجرة فدخلها وأمسك إبليس بطرف رداءه فنشره فيها كما قدمناه ، ومن المنافقين من اتهمها بآبن خالها يوسف بن يعقوب النجار .

فلما ضاق الحال وانحصر المجال وامتنع المقال ، عظم التوكل على ذي الجلال ، ولم يبق إلا الإخلاص والاتكال ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ﴾ أي خاطبوه وكموه فإن جوابكم عليه وما تبغون من الكلام لديه ، فعندها ﴿ قَالُوا ﴾ من كان منهم جباراً شقيماً : ﴿ كَيْفَ نَكْلَمُ مَنْ كَانَ فِي الْمُهْدِ صَبِيًّا ﴾ أي كيف تحيلنا في الجواب على صبي صغير لا يعقل الخطاب ، وهو مع ذلك رضيع في مهده ولا يميز بين مخض وزبد ، وما هذا منك إلا على سبيل التهكم بنا والاستهزاء والنقص لنا والازدراء إذ لاتردن علينا قولاً نطقياً ، بل تحيلن في الجواب على من كان في المهد صبياً .

فعندها : ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا * وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا * وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْ لِي جَبَارًا شَقِيًّا * وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾ (١) .

(١) سورة مريم آيات ٣٠ - ٣٣ .

هذا أول كلام تفوه به عيسى ابن مريم ، فكان أول ماتكلم به أن ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ﴾ اعترف لربه تعالى بالعبودية ، وأن الله ربه فنه جناب الله عن قول الظالمين في زعمهم أنه ابن الله ، بل هو عبده ورسوله وابن أمته ، ثم برأ أمه مما نسبها إليه الجاهلون وقذفوها به ورموها بسببه بقوله : ﴿ أَتَأْتِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴾ فإن الله لا يعطي النبوة من هو كما زعموا لعنهم الله وقبحهم ، وكما قال تعالى : ﴿ وَبَكَفَرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ﴾ ^(١) وذلك أن طائفة من اليهود في ذلك الزمان قالوا : إنها حملت به من زنى في زمن الحيض ، لعنهم الله فبرأها الله من ذلك وأخبر عنها أنها صديقة واتخذ ولدها نبياً مرسلأ أحد أولي العزم الخمسة الكبار ولهذا قال : ﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ ﴾ وذلك أنه حيث كان دعا إلى عبادة الله وحده لا شريك له ونزه جنابه عن النقص والعيب من اتخاذ الولد والصاحبة تعالى وتقدس ﴿ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾ وهذه وظيفة العبيد في القيام بحق العزيز الحميد بالصلاة ، والإحسان إلى الخليفة بالزكاة ، وهي تشتغل على طهارة النفوس من الأخلاق الرذيلة وتطهير الأموال الجزيلة بالعطية للمحاييج على اختلاف الأصناف وقرى الأضياف والنفقات على الزوجات والأرقاء والقربات وسائر وجوه الطاعات وأنواع القربات .

ثم قال : ﴿ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴾ أي وجعلني برأ بوالدتي وذلك أنه تأكد حقها عليه لتحض جهتها إذ لا والد له سواها ، فسبحان من خلق الخليفة وبرأها وأعطى كل نفس هداها . ﴿ وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴾ أي لست بفظ ولا غليظ ، ولا يصدر مني قول ولا فعل ينافي أمر الله وطاعته .

﴿ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾ وهذه المواطن الثلاثة التي تقدم الكلام عليها في قصة يحيى بن زكريا عليها السلام .

ثم لما ذكر تعالى قصته على الجلية وبين أمره ووضحه وشرحه قال : ﴿ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ * ما كان لله أن يتخذ من ولد سُبْحَانَهُ ، إذا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿ ^(٢) كما قال تعالى بعد ذكر قصته وما كان من أمره في آل عمران : ﴿ ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴾ * إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ ، خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ * الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ * فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ

(١) سورة النساء الآية ١٥٦ .

(٢) سورة مريم آيات ٣٤ ، ٣٥ .

ثُمَّ نَبْتَهِلُ فَنَجْعَلُ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ * إِنَّ هَذَا لَهَوَ الْقَصَصِ الْحَقِّ ، وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ ،
وإنَّ اللَّهَ لَهَوُ الْقَزِيزِ الْحَكِيمِ * فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿١﴾

ولهذا لما قدم وفد نجران وكانوا ستين راكباً يرجع أمرهم إلى أربعة عشر منهم ، ويؤول أمر الجميع إلى ثلاثة هم أشرافهم وساداتهم وهم العاقب والسيد وأبو حارثة بن علقمة ، فجعلوا ينظرون في أمر المسيح فأنزل الله صدر سورة آل عمران في ذلك ، وبين أمر المسيح وابتداء خلقه وخلق أمه من قبله . وأمر رسوله بأن يباهلهم إن لم يستجيبوا له ويتبعوه ، فلما رأوا عينيها وأذنيها نكصوا وامتنعوا عن المباهلة وعدلوا إلى المسألة والمواذعة ، وقال قائلهم وهو العاقب عبد المسيح : يامعشر النصارى .. لقد علمت أن محمداً لنبي مرسل ، ولقد جاءكم بالفصل من خبر صاحبكم ، ولقد علمت أنه ما لآعن قوم نبياً قط فبقي كبيرهم ولا نبت صغيرهم وإنها للاستئصال منكم إن فعلتم ، فإن كنتم قد أبيتم إلا إلف دينكم والإقامة على ما أنتم عليه من القول في صاحبكم فوادعوا الرجل وانصرفوا إلى بلادكم ، فطلبوا ذلك من رسول الله ﷺ وسألوه أن يضرب عليهم جزية وأن يبعث معهم رجلاً أميناً ، فبعث معهم أبا عبيدة بن الجراح وقد بينا ذلك في تفسير آل عمران وقد بسطنا هذه القصة في السيرة النبوية .

والمقصود أن الله تعالى بين أمر المسيح فقال لرسوله : ﴿ ذَلِكْ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ يعنى من أنه عبد مخلوق من امرأة من عباد الله ، ولهذا قال : ﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ ، سُبْحَانَهُ ، إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ أي لا يعجزه شيء ولا يكرهه ولا يؤوده بل هو القدير الفعال لما يشاء ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (٢) وقوله : ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ، هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ (٣) هو من تمام كلام عيسى لهم في المهد ، أخبرهم أن الله ربه وربهم وإلههم ، وأن هذا هو الصراط المستقيم .

قال الله تعالى : ﴿ فَاخْتَلَفَ الْأَحْرَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ ، قَوِيلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدٍ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ (٤) أي فاختلف أهل ذلك الزمان ومن بعدهم فيه .

(٢) سورة يس الآية ٨٢ .

(١) سورة آل عمران آيات ٥٨ - ٦٢ .

(٣) سورة مريم الآية ٣٦ .

(٤) سورة مريم الآية ٣٧ .

فمن قاتل من اليهود : إنه ولد زنية ، واستروا على كفرهم وعنادهم .

وقابلهم آخرون في الكفر فقالوا : هو الله ، وقال آخرون : هو ابن الله .

وقال المؤمنون : هو عبد الله ورسوله ، وابن أمته وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، وهؤلاء هم الناجون الثابون والمؤيدون المنصورون ، ومن خالفهم في شيء من هذه القيود فهم الكافرون الضالون الجاهلون ، وقد توعدهم العلي العظيم الحكيم العليم بقوله : ﴿ قَوْلٍ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدٍ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝ ﴾ .

قال البخاري : حدثنا صدقة بن الفضل ، أنبأنا الوليد ، حدثنا الأوزاعي ، حدثني عمير بن هانئ ، حدثني جنادة بن أبي أمية ، عن عبادة بن الصامت عن النبي ﷺ قال : « من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه والجنة حق والنار حق أدخله الله الجنة على ما كان من العمل » .

قال الوليد : فحدثني عبد الرحمن بن يزيد بن جابر ، عن عمير ، عن جنادة : وزاد : « من أبواب الجنة الثمانية أيها شاء » .

وقد رواه مسلم عن داود بن رشيد ، عن الوليد ، عن جابر به ومن طريق أخرى عن الأوزاعي به .

الله تعالى منزله عن الولد

وقال تعالى في آخر سورة مريم : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا ۝ ﴾ (١) شيئاً عظيماً من القول وزوراً ﴿ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًا * أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا * وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا * إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا * لَقَدْ أَخْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا * وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ قَرْدًا ۝ ﴾ (٢) .

(١) سورة مريم - آيات ٩٠ - ٩٥ .

(٢) سورة مريم آيتا ٨٨ ، ٨٩ .

فبين أنه تعالى لا ينبغي له الولد لأنه خالق كل شيء ومالكة ، وكل شيء فقير إليه ، خاضع ذليل لديه وجميع سكان السموات والأرض عبيده ، هو ربهم لا إله إلا هو لا رب سواه كما قال تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ ﴾ * بديع السموات والأرض ، أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء ، وهو بكل شيء عليم * ذلكم الله ربكم ، لا إله إلا هو ، خالق كل شيء فاعبدوه ، وهو على كل شيء وكيل * لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير ﴿ (١) .

فبين أنه خالق كل شيء فكيف يكون له ولد ، والولد لا يكون إلا بين شيئين متناسبين ، والله تعالى لا نظير له ولا شبه ولا عدل له ، فلا صاحبة له ، فلا يكون له ولد كما قال تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ (٢) يقرر أنه الأحد الذي لا نظير له في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله ﴿ الصمد ﴾ وهو السيد الذي كل علمه وحكمته ورحمته وبلغ جميع صفاته ﴿ لَمْ يَلِدْ ﴾ أي لم يوجد منه ولد ﴿ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ أي ولم يتولد عن شيء قبله ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ أي وليس له عدل ولا مكافئ . ولا مساو فقطع النظير المداني والأعلى والمساوي ، فانتفى أن يكون له ولد ، إذ لا يكون الولد إلا متولداً بين شيئين متعادلين أو متقاربين ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

وقال تبارك وتعالى وتقدس : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ، إِنَّهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلَّمَتْهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرَوْحٌ مِنْهُ ، فَآمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ، وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ ، انْتَهَوْا خَيْرًا لَكُمْ ، إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ ، سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾ * لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون ، ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً * فأمّا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيؤفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله ، وأمّا الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذاباً أليماً ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً ﴿ (٣) .

ينهى تعالى أهل الكتاب ومن شابههم عن الغلو والإطراء في الدين وهو مجاوزة الحد ، فالنصارى لنعمهم الله غلوا وأطروا المسيح حتى جاوزوا الحد .

(٢) سورة الإخلاص .

(١) سورة الأنعام آيات ١٠٠ - .

(٣) سورة النساء آيات ١٧١ - ١٧٣ .

فكان الواجب عليهم أن يعتقدوا أنه عبد الله ورسوله وابن أمته العذراء البتول التي أحصنت فرجها فبعث الله الملك جبريل إليها فنفخ فيها. من أمر الله نفخة حملت منها بولدها عيسى عليه السلام . والذي اتصل بها من الملك هي الروح المضافة إلى الله إضافة تشریف وتكریم ، وهي مخلوقة من مخلوقات الله تعالى كما يقول : بيت الله وناقة الله وعبد الله ، وكذا روح الله أضيفت إليه تشریفاً لها وتكريماً . وسمى عيسى بها لأنه كان بها من غير أب وهي الكلمة أيضاً التي عنها خلق وبسببها وجد كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ ، خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ ^(١) . وقال تعالى : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلِداً ، سُبْحَانَهُ ، بَلْ لَهٗ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، كُلٌّ لَهٗ قَانِتُونَ ﴾ * بَدِيعَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ ^(٢) .

وقال تعالى : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ، ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ ، يُضَاهِيُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ ، قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ، أَلَىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ ^(٣)

فأخبر تعالى أن اليهود والنصارى عليهن لعائن الله ، كل من الفريقين ادعوا على الله شططاً وزعموا أن له ولداً ، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً ، وأخبر أنهم ليس لهم مستند فيما زعموه ولا فيما اتفقوه ، إلا مجرد القول ومشابهة من سبقهم إلى هذه المقالة الضالة تشابهت قلوبهم .

وذلك أن الفلاسفة عليهم لعنة الله زعموا أن العقل الأول صدر عن واجب الوجود الذي يعبرون عنه بعلّة العلل والمبدأ الأول ، وأنه صدر عن العقل الأول عقل ثان ونفس وفلك ، ثم صدر عن الثاني كذلك حتى تناهت العقول إلى عشرة والنفس إلى تسعة والأفلاك إلى تسعة ، باعتبارات فاسدة ذكرها واختيارات باردة أوردوها . ولبسط الكلام معهم وبيان جهلهم وقلة عقلهم موضع آخر .

وهكذا طوائف من مشركي العرب زعموا لجهلهم أن الملائكة بنات الله وأنه صاهر سروات الجن فتولد منها الملائكة . تعالى الله عما يقولون وتنزه عما يشركون . كما قال تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنثَاءً ، أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ ، سَتَكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴾ ^(٤) وقال تعالى : ﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَلَرَّبُّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ﴾ * أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ

(٢) سورة البقرة آيتا ١١٦ ، ١١٧ .

(٤) سورة الزخرف الآية ١٩ .

(١) سورة آل عمران ٥٩ .

(٣) سورة التوبة الآية ٣٠ .

إِنَّا أَنَا وَهُمْ شَاهِدُونَ * أَلَا إِنَّهُمْ مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ * وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * أَصْلَافٌ مِّنَ النَّسَاتِ عَلَى الْبَنِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ * أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ * فَاتُّوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ * وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نِسْبًا ، وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ * سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ * إِلَّا عِبَادَ الْغَافِلِينَ ﴿١﴾ .

قال تعالى : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ ، بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ * لَا يُسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى وَهُمْ مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ * وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ، كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾ (١)

وقال تعالى في أول سورة الكهف وهي مكية : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا * قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّنْ لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا * مَا كَثِيرٌ فِيهِ أُمْدَادُ * وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا * مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ ، كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ، إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾ (٢) .

وقال تعالى : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ، سُبْحَانَهُ ، هُوَ الْغَنِيُّ ، لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا ، أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ * قُلْ إِنْ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ * مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُعَذِّبُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ (٣) .

فهذه الآيات المكيات الكريميات تشمل الرد على سائر فرق الكفرة من الفلاسفة ومشركي العرب واليهود والنصارى الذين ادعوا وزعموا بلا علم أن لله ولدا سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون المعتدون علوا كبيرا .

ولما كانت النصارى عليهم لعنة الله المتتابعة إلى يوم القيامة من أشهر من قال بهذه المقالة ذكروا في القرآن كثيراً للرد عليهم وبيان تناقضهم وقلة علمهم وكثرة جهلهم ، وقد تنوعت أقوالهم في كفرهم ، وذلك أن الباطل كثير التشعب والاختلاف والتناقض .

وأما الحق فلا يختلف ولا يضطرب . قال الله تعالى : ﴿ وَلَوْ كَانِ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا

(٢) سورة الأنبياء آيات ٢٦ - ٢٩ .

(١) سورة الصافات آيات ١٤٩ - ١٦٠ .

(٤) سورة يونس آيات ٦٨ - ٧٠ .

(٣) سورة الكهف آيات ١ - ٥ .

فيه إختلافاً كثيراً^(١) . فدل على أن الحق يتحد ويتفق والباطل يختلف ويضطرب . فطائفة من ضلالمهم وجهالمهم زعموا أن المسيح هو الله تعالى . وطائفة قالوا هو ابن الله ، عز الله وجل . وطائفة قالوا هو ثالث ثلاثة . جل الله .

قال الله تعالى في سورة المائدة : ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ، قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ، وَلِلَّهِ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ، يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ، وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾^(٢) فأخبر تعالى عن كفرهم وجهلمهم وبين أنه الخالق القادر على كل شيء وأنه رب كل شيء ومليكه وإلهه . وقال في أواخرها : ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ، وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ، إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ ، وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ * لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ ، وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ * أَقْلًا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ، انْظُرْ كَيْفَ تُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤفَكُونَ ﴾^(٣) .

حكم تعالى بكفرهم شرعاً وقدر ، فأخبر أن هذا صدر منهم مع أن الرسول إليهم هو عيسى ابن مريم ، وقديين لهم . أنه عبد مريبوب مخلوق مصور في الرحم داع إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، وتوعدهم على خلاف ذلك بالنار وعذم الفوز بدار القرار والخزى في الدار الآخرة والهوان والعار ، ولهذا قال : ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ ، وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴾ .

ثم قال : ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ قال ابن جرير وغيره : المراد بذلك قولهم بالأقسام الثلاثة : أقنوم الأب وأقنوم الابن وأقنوم الكلمة المنبثقة من الأب والابن ، على اختلافهم في ذلك ما بين الملية واليعقوبية والنسطورية ، عليهم لعائن الله كما سنبين كيفية اختلافهم في ذلك ومجامعهم الثلاثة في زمن قسطنطين ابن قسطنس ، وذلك بعد المسيح بثلاثمائة سنة وقبل البعثة الحمديّة بثلاثمائة سنة .

ولهذا قال تعالى : ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ أي وما من إله إلا الله وحده لا شريك له

(١) سورة النساء الآية ٨٢ .

(٢) سورة المائدة الآية ١٧ .

(٣) سورة المائدة آيات ٧٢ - ٧٤ .

ولا نظير له ولا كفؤ له ولا صاحبة له ولا ولد ، ثم توعدهم وتهدهم فقال : ﴿ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ثم دعاهم برحمته ولطفه إلى التوبة والاستغفار من هذه الأمور الكبار والعظائم التي توجب النار فقال : ﴿ أَقْلًا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

ثم بين حال المسيح وأمه وأنه عبد رسول وأمه صديقة ، أي ليست بفاجرة كما يقول اليهود لعنهم الله ، وفيه دليل على أنها ليست بنبية كما زعمه طائفة من علمائنا . وقوله : ﴿ كَأَنَّا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ﴾ كناية عن خروجه منها كما يخرج من غيرها ، أي ومن كان بهذه المثابة . كيف يكون إلها ! تعالى الله عن قولهم وجهلهم وعلواً كبيراً .

وقال السدي وغيره ، المراد بقوله : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ ﴾ زعمهم في عيسى وأمه أنها الإلهان مع الله ، يعنى كما بين تعالى كفرهم في ذلك بقوله في آخر هذه السورة الكريمة : ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ، إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ، تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ، إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ * مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ، وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ ، فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ، وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ * إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ، وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (١) .

يخبر تعالى أنه يسأل عيسى ابن مريم عليه السلام يوم القيامة على سبيل الإكرام له والتفريغ والتبويخ لعابديه من كذب عليه وافتري وزعم أنه ابن الله ، أو أنه الله أو أنه شريكه ، تعالى الله عما يقولون ، فيسأله وهو يعلم أنه لم يقع منه ما يسأله عنه ولكن لتوبيخ من كذب عليه فيقول له : ﴿ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، قَالَ سُبْحَانَكَ ﴾ أي تعاليت أن يكون معك شريك ﴿ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ﴾ أي ليس هذا يستحقه أحد سواك ﴿ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ، تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ، إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾ وهذا تأدب عظيم في الخطاب والجواب ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ ﴾ أي ما قلت غير ما أمرتني عليه حين أرسلتني إليهم وأنزلت علي الكتاب الذي كان يتلى عليهم . ثم فسر ما قاله لهم بقوله : ﴿ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ﴾ أي خالقي

(١) سورة المائدة آيات ١١٦ - ١١٨ .

وخالقكم ورازقي ورازقكم ﴿ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ ، فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي ﴾ أي رفعتني إليك حين أرادوا قتلي وصلي فرحتني وخلصتني منهم وألقيت شهبي على أحدهم حتى انتقموا منه كان ذلك ﴿ كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ، وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ .

ثم قال على وجه التفويض إلى الرب عز وجل والتبري من أهل النصرانية : ﴿ إِنَّ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ﴾ أي وهم يستحقون ذلك ﴿ إِنَّ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ وهذا التفويض والإسناد إلى المشيئة بالشرط لا يقتضي وقوع ذلك ، ولهذا قال : ﴿ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ ولم يقل الغفور الرحيم .

وقد ذكرنا في التفسير ما رواه الإمام أحمد عن أبي ذر أن رسول الله ﷺ قام بهذه الآية الكريمة ليلة حتى أصبح : ﴿ إِنَّ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ، وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ وقال : « إني سألت ربي عز وجل الشماعة لأمتي فأعطانيها وهي نائلة إن شاء الله تعالى لمن لا يشرك بالله شيئاً » . وقال : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴾ ﴿ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهَوًا لَاتَّخِذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنَّ كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ ﴿ بَلْ تَقْدَفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيُدْمِغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ، وَلَكُمْ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ ﴿ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴾ ﴿ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾ (١)

وقال تعالى : ﴿ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ، سُبْحَانَهُ ، هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ، يَكُونُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيَكُونُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ ، وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ، كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ، أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴾ (٢)

وقال تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴾ ﴿ سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ (٣)

وقال تعالى : ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِّ وَكَبَّرَهُ تَكْبِيرًا ﴾ (٤)

وقال تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ ﴿ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴾ ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ (٥)

(٢) سورة الزمر آيتا ٤ ، ٥

(٤) سورة الإسراء الآية ١١١ .

(١) سورة الأنبياء آيات ١٦ - ٢٠

(٣) سورة الرحرف آيتا ٨١ ، ٨٢ .

(٥) سورة الاحلام

وثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال : « يقول الله تعالى : شتني ابن آدم ولم يكن له ذلك ، يزعم أن لي ولداً وأنا الأحد الصمد الذي لم ألد ولم أولد ولم يكن لي كفواً أحد » .

وفي الصحيح أيضاً عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله ، إنهم يجعلون له ولداً وهو يرزقهم ويعافيهم » .

ولكن ثبت في الصحيح أيضاً عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن الله ليبي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته » ثم قرأ : ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ، إِنَّ أَخْذَهُ أَلَمٌ شَدِيدٌ ﴾ (١) .

وهكذا قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ مِنْ قَرْيَةٍ أُمْلِيَتْ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذَهَا إِلَىٰ الْمَصِيرِ ﴾ (٢) .

وقال تعالى : ﴿ ثُمَّ نَمْتَعُهم قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهم إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ (٣) وقال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ * مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهم ثُمَّ نُذِيقُهم الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ (٤) . وقال تعالى : ﴿ قَمَّهَلَ الْكَافِرِينَ أَهْلُهم رَوِيدًا ﴾ (٥)

منشأ عيسى ابن مريم عليهما السلام

قد تقدم أنه ولد ببيت لحم قريباً من بيت المقدس .

وزعم وهب بن منبه أنه ولد بمصر وأن مريم سافرت هي ويوسف بن يعقوب النجار وهي راكبة على حمار ليس بينهما وبين الإكاف شيء .

وهذا لا يصح ، والحديث الذي تقدم ذكره دليل على أن مولده كان ببيت لحم ، كما ذكرنا ، ومهما عارضه فباطل .

(٢) سورة الحج الآية ٤٨ .

(٤) سورة يونس آيتا ٦٩ ، ٧٠ .

(١) سورة هود الآية ١٠٢ .

(٣) سورة لقمان الآية ٢٤ .

(٥) سورة الطارق الآية ١٧ .

وذكر وهب بن منبه أنه لما خرت الأصنام يومئذ في مشارق الأرض ومغاربها ، وأن الشياطين حارت في سبب ذلك حتى كشف لهم أبلّيس الكبير أمر عيسى فوجدوه في حجر أمه والملائكة محدقة به ، وأنه ظهر نجم عظيم في السماء وأن ملك الفرس أشفق من ظهوره فسأل الكهنة عن ذلك فقالوا : هذا لمولد عظيم في الأرض ، فبعث رسالة ومعهم ذهب ومر ولبان هدية إلى عيسى ، فلما قدموا الشام سألهم ملكها عما أقدمهم فذكروا له ذلك ، فسأل عن ذلك الوقت فإذا قد ولد فيه عيسى ابن مريم ببيت المقدس واشتهر أمره بسبب كلامه في المهد ، فأرسلهم إليه بما معهم وأرسل معهم من يعرفه له ليتوصل إلى قتله إذا رسل ملك الشام إن جاءوا ليقتلوا ولدك . فاحتلته فذهبت به إلى مصر ، فأقامت به حتى بلغ عمره اثنتي عشرة سنة ، وظهرت عليه كرامات ومعجزات في حال صغره . فذكر منها الدهقان الذي نزلوا عنده افتقد مالاً من داره . وكانت داره لا يسكنها إلا الفقراء والضعفاء والمحاويج فلم يدر من أخذها ، وعز ذلك على مريم عليها السلام وشق على الناس وعلى رب المنزل وأعيام أمرها ، فلما رأى عيسى عليه السلام ذلك عمد إلى رجل أعمى وآخر مقعد من جملة من هو منقطع إليه . فقال للأعمى : احمل هذا المقعد وانض به . فقال : إني لا أستطيع ذلك . فقال : بلى كما فعلت أنت وهو حين أخذتما هذا المال من تلك الكوة من الدار . فلما قال ذلك صدقه فيما قال وأتيا بالمال فعظم عيسى في عين الناس وهو صغير جداً .

ومن ذلك أن ابن الدهقان عمل ضيافة للناس بسبب طهور أولاده ، فلما اجتمع الناس وأطعمهم ثم أراد أن يستقيهم شرباً - يعني خراً - كما كانوا يصنعون في ذلك الزمان لم يجد في جواره شيئاً فشق ذلك عليه ، فلما رأى عيسى ذلك منه قام فجعل يمر على تلك الجرار ويمر يده على أفواهها فلا يفعل بجرة منها ذلك إلا امتلأت شرباً من خيار الشراب ، فتعجب الناس من ذلك جداً وعظموه وعرضوا عليه وعلى أمه مالاً جزيلاً فلم يقبله وارتحلا قاصدين بيت المقدس .. والله أعلم .

وقال إسحاق بن بشر : أنبأنا عثمان بن ساج وغيره ، عن موسى ابن وردان ، عن أبي نضرة ، عن أبي سعيد ، وعن مكحول عن أبي هريرة قال : إن عيسى ابن مريم أول ما أطلق الله لسانه بعد الكلام الذي تكلم به وهو طفل ، فجدد الله تمجيدهم لم تسمع الآذان بمثله لم يدع شمساً ولا قرأ ولا جبلاً ولا نهراً ولا عيناً إلا ذكره في تمجيده فقال : اللهم أنت القريب في علوك ، المتعال في دنوك ، الرفيع على كل شيء من خلقك ، أنت الذي خلقت سبعاً في الهواء بكلماتك مستويات طباقاً أجبين وهي دخان من فرقك فأتين طائعات لأمرك ، فيهن ملائكتك يسبحون قدسك

لتقديسك وجعلت فيهن نوراً على سواد الظلام وضياء من ضوء الشمس بالنهار ، وجعلت فيهن الرعد المسبح بالحمد ، فبعزتك يجلو ضوء ظلمتك وجعلت فيهن مصابيح يهتدي به في الظلمات الحيران ، فتباركت اللهم في مفضوئ سماواتك وفيما دحوت من أرضك دحوتها على الماء فسكنتها على تيار الموج الغامر ، فأذلتها إزالال التظاهر ، فذل لطاعتك صعبها واستحيا لأمرها أمرها وطبعت بعزتك أمواجها ، ففجرت فيها بعد البحور الأنهار ومن بعض الأنهار الجداول الصغار ومن بعد الجداول ينابيع العيون الغزار ، ثم أخرجت منها الأنهار والأشجار والثمار ثم جعلت على ظهرها الجبال فوتدتها أوتاداً على ظهر الماء ، فأطاعت أطواها وجلمودها .

فتباركت اللهم ! فمن يبلغ بنعته نعتك أم من يبلغ بصفته صفتك ؟ تنشر السحاب وتفك الرقاب وتقضي الحق وأنت خير الفاصلين ، لا إله إلا أنت سبحانك أمرت أن نستغفرك من كل ذنب ، لا إله إلا أنت سبحانك سترت السموات عن الناس ، لا إله إلا أنت سبحانك إنما يخشاك من عبادك الأكياس ، نشهد أنك لست ياله استحدثناك ، ولا رب يبید ذكره ، ولا كان معك شركاء فندعوهم ونذكرك ، ولا أعانك على خلقنا أحد فنشك فيك ، نشهد أنك أحد صمد لم تلد ولم تولد ، ولم يكن لك كفواً أحد .

وقال إسحاق بن بشر ، عن جويبر ومقاتل ، عن الضحاک ، عن ابن عباس ، أن عيسى ابن مريم أمسك عن الكلام بعد أن كلمهم طفلاً حتى بلغ ما يبلغ الغلمان . ثم أنطقه الله بعد ذلك الحكمة والبيان فأكثر اليهود فيه وفي أمه من القول ، وكانوا يسمونه ابن البغية وذلك قوله تعالى : ﴿ وَيَكْفُرُهُمْ وَقَوْلُهُمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ﴾^(١) .

قال : فلما بلغ سبع سنين أسلمته أمه في الكتاب ، فجعل لا يعلم المعلم شيئاً إلا بدره إليه ، فعلمه أبا جاد فقال عيسى ، ما أبو جاد ؟ فقال المعلم : لا أدري . فقال عيسى : كيف تعلمني مالا تدري . فقال المعلم : إذن فعلني . فقال له عيسى : فقم من مجلسك . فقام فجلس عيسى مجلسه فقال : سلمي ؟ فقال المعلم : فما أبو جاد ؟ فقال عيسى : الألف آلاء الله . والباء بهاء الله . والجيم بهجة الله وجماله . فعجب المعلم من ذلك فكان أول من فسر أبا جاد .

ثم ذكر أن عثمان سأل رسول الله ﷺ عن ذلك فأجابه على كل كلمة بحديث طويل موضوع لا يسأل عنه ولا يتأدى !

(١) سورة النساء الآية ١٥٦ .

وهكذا روى ابن عدي من حديث إسماعيل بن عياش ، عن إسماعيل بن عيسى ، عن ابن أبي مليكة ، عن ابن مسعود ، عن مسعر بن كدام عن عطية ، عن أبي سعيد ، رفع الحديث في دخول عيسى إلى الكتاب وتعليه المعلم معنى حروف أبي جاد وهو مطول لا يفرح به .

ثم قال ابن عدي : وهذا الحديث باطل بهذا الإسناد لا يرويه غير إسماعيل . وروى ابن لهيعة عن عبد الله بن هبيرة قال : كان عبد الله بن عمر يقول : كان عيسى ابن مريم وهو غلام يلعب مع الصبيان فكان يقول لأحدهم : تريد أن أخبرك ما خبأت لك أمك ؟ فيقول : نعم فيقول : خبأت لك كذا وكذا . فيذهب الغلام منهم إلى أمه فيقول لها أطعمني ما خبأت لي . فتقول : وأي شيء خبأت لك ؟ فيقول : كذا وكذا . فتقول له : من أخبرك ؟ فيقول : عيسى ابن مريم ليفسدنيهم . فجمعهم في بيت وأغلقوا عليهم ، فخرج عيسى يلتمسهم فلم يجدهم فسمع ضوضاءهم في بيت فسأل عنهم فقالوا : إنما هؤلاء قردة وخنازير . فقال : اللهم كذلك . فكانوا كذلك . رواه ابن عساكر .

وقال إسحاق بن بشر ، عن جويبر ، ومقاتل ، عن الضحاك ، عن ابن عباس قال : وكان عيسى يرى العجائب في صباه إلهاماً من الله ، ففشا ذلك في اليهود وترعرع عيسى ، فهمت به بنو إسرائيل ، فخافت أمه عليه ، فأوحى الله إلى أمه أن تنطلق به إلى أرض مصر ، فذلك قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾^(١) .

وقد اختلف السلف والمفسرون في المراد بهذه الربوة التي ذكر الله من صفتها أنها ذات قرار ومعين ، وهذه صفة غريبة الشكل ، وهي أنها ربوة وهو المكان المرتفع من الأرض الذي أعلاه مستو يقر عليه وارتفاعه متسع ، ومع علوه فيه عيون الماء المعين ، وهو الجاري السارح على وجه الأرض فليل : المراد المكان الذي ولدت فيه المسيح وهو نخلة بيت المقدس ، ولهذا ﴿ نَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ مَرِيئاً ﴾^(٢) وهو النهر الصغير في قول جمهور السلف ، وعن ابن عباس يأسناد جيد أنها دمشق فلعله أراد تشبيه ذلك المكان بأنهار دمشق . وقيل ذلك بمصر كما زعمه من زعمه من أهل الكتاب ومن تلقاه عنهم .. والله أعلم . وقيل هي الرملة .

وقال إسحاق بن بشر : قال لنا إدريس عن جده وهب بن منبه ، قال : إن عيسى لما بلغ

(٢) سورة مريم الآية ٢٤ بلفظ ﴿ فَنَادَاهَا ... ﴾ .

(١) سورة المؤمنون الآية ٥٠ .

ثلاث عشرة سنة أمره الله أن يرجع من بلاد مصر إلى بيت إيليا قال فقدم عليه يوسف ابن خال أمه فحملها على حمار حتى جاء لها إيليا وأقام بها حتى أحدث الله له الإنجيل وعلمه التوراة وأعطاه إحياء الموتى وإبراء الأسقام والعلم بالغيوب مما يدخرون في بيوتهم وتحدث الناس بقدمه وفزعوا لما كان يأتي من العجائب ، فجعلوا يعجبون منه فدعاهم إلى الله ففشا فيهم أمره .

نزول الكتب الاربعة ومواقيتها

وقال أبو زرعة الدمشقي : حدثنا عبد الله بن صالح ، حدثني معاوية بن صالح ، عن حدثه قال : « أنزلت التوراة على موسى في ست ليال خلون من شهر رمضان ، ونزل الزبور على داود في اثنتي عشرة ليلة خلت من شهر رمضان ، وذلك بعد التوراة بأربعمئة سنة واثنيتين وثمانين سنة ، وأنزل الإنجيل على عيسى ابن مريم في ثمان عشرة ليلة خلت من شهر رمضان بعد الزبور بألف عام وخمسين عاماً ، وأنزل الفرقان على محمد ﷺ في أربع وعشرين من شهر رمضان » .

وقد ذكرنا في التفسير عند قوله : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ ﴾^(١) الأحاديث الواردة في ذلك ، وفيها أن الإنجيل أنزل على عيسى ابن مريم عليه السلام في ثمان عشرة ليلة خلت من شهر رمضان .

وذكر ابن جرير في تاريخه أنه أنزل عليه وهو ابن ثلاثين سنة ، ومكث حتى رفع إلى السماء وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة . كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى .

وقال إسحاق بن بشر : وأنبأنا سعيد بن أبي عروبة ، عن قتادة ، ومقاتل عن قتادة ، عن عبد الرحمن بن آدم ، عن أبي هريرة قال : أوحى الله عز وجل إلى عيسى ابن مريم : يا عيسى .. جد في أمري ولا تهين ، واسمع وأطع يا ابن الطاهرة البكر البتول ، إنك من غير فعل ، وأنا خلقتك آية للعالمين ، إياي فاعبد وعلي فتوكل ، خذ الكتاب بقوة ، فسر لأهل السريانية ، بلغ من بين يديك أنا الحق الحي القائم الذي لا أزول ، صدقوا النبي الأمي العربي صاحب الجمل والتاج - وهي العامة - والمدرعة والنعلين والهاوذة - وهي القضيبة - الأنجل العينين الصلت الجبين الواضح الخدين ، الجعد الرأس ، الكث اللحية ، المقرون الحاجبين ،

(١) سورة البقرة الآية ١٨٥ .

الأقنى الأنف ، المفالج الثنايا ، البادي العنققة ، الذي كان عنقه إبريق فضة وكان الذهب يجري في تراقيه ، له شعرات من لبتة إلى سرتة تجري كالقضب ، ليس على بطنه ولا على صدره شعر غيره ، شثن الكف والقدم ، إذا التفت التفت جميعاً ، وإذا مشى كأنما يتقلع منه صخر وينحدر من صلب ، عرقه في وجهه كاللؤلؤ وريح المسك ينضج منه ، ولم يرقبله ولا بعده مثله ، الحسن القامة الطيب الريح ، نكاح النساء ذا النسل القليل ، إنما نسله من مباركة ، لها بيت - يعني في الجنة - من قصب لا نصب فيه ولا صخب ، تكفله ياعيسى في آخر الزمان كما كفّل زكريا أمك ، له منها فرخان مستشهدان ، وله عندي منزلة ليست لأحد من البشر ، كلامه القرآن ودينه الإسلام وأتاه السلام ، طوبى لمن أدرك زمانه وشهد أيامه وسمع كلامه .

قال عيسى : يارب .. وما طوبى ؟ قال : غرس شجرة أنا غرستها بيدي ، فهي للجنان كلها ، أصلها من رضوان وماؤها من تسنيم ، وبردها برد الكافور وطعمها طعم الزنجبيل وريحها ريح المسك ، من شرب منه شربة لم يظلم بعدها أبداً .

قال عيسى : يارب .. اسقني منها . قال : حرام على النبيين أن يشربوا منها حتى يشرب ذلك النبي ، وحرام على الأمم أن يشربوا منها حتى تشرب منها أمة ذلك النبي .

قال : ياعيسى .. أرفعك إلى . قال : يارب ولم ترفعني ؟ قال : أرفعك ثم أهبطك في آخر الزمان لترى من أمة ذلك النبي العجائب ولتعينهم على قتال اللعين الدجال ، أهبطك في وقت صلاة ثم لا تصلي بهم لأنها مرحومة ولا نبي بعد نبيهم .

وقال هشام بن عمار عن الوليد بن مسلم ، عن عبد الرحمن بن زيد ، عن أبيه ، أن عيسى قال : يارب أنبئني عن هذه الأمة المرحومة . قال : أمة أحمد ، هم علماء حكماء كأنهم أنبياء ، يرضون مني بالقليل من العطاء وأرضى منهم بالسير من العمل ، وأدخلهم الجنة بلا إله إلا الله . ياعيسى .. هم أكثر سكان الجنة ، لأنه لم تذلل ألسن قوم قط بلا إله إلا الله كما ذلت ألسنتهم ، ولم تذلل رقاب قوم قط بالسجون كما ذلت به رقابهم .

رواه ابن عساكر . وروى ابن عساكر من طريق عبد الله بن بديل العقلي ، عن عبد الله بن عوسجة قال : أوحى الله إلى عيسى ابن مريم : أنزلني من نفسك كهيك ، واجعلني ذخراً في معادك ، وتقرب إلي بالنوافل أحببك ولا تول غيري فأخذلك ، اصبر على البلاء وارض بالقضاء ، وكن لمسرتي أن أطاع فلا أعصى ، وكن مني قريباً وأحى ذكرى بلسانك ، ولتكن مودتي في صدرك ، تيقظ من ساعات الغفلة واحكم في لطيف الفطنة ، وكن لي راغباً راهباً .

وأمت قلبك في الخشية لي وراع الليل لحق مسرتي واطم هُبارك ليوم الري عندي ، نافس في الخيرات جهدك ، واعترف بالخير حيث توجهت ، وقم في الخلائق بنصيحتي ، واحكم في عبادي بعدلي ، فقد نزلت عليك شفاء وسواس الصدور من مرض النسيان وجلاء الأبصار من غشاء الكلال حلساً كأنك مقبوض وأنت حي تنفس .

· ياعيسى ابن مريم .. ما أمنت بي خليفة إلا خشعت ، ولا خشعت لي إلا رجت ثوابي فأشهدك أنها أمنة من عقابي ما لم تغير أو تبدل سنتي .

يعايسى ابن مريم البكر البتول .. ابك على نفسك أيام الحياة بكاء من ودع الأهل وقلا الدنيا وترك اللذات لأهلها وارتفعت رغبته فيما عند إلهه ، وكن في ذلك تلين الكلام وتفشي السلام ، وكن يقظان إذا نامت عيون الأبرار ، حذار ما هوأت من أمر المعاد زلازل شدائد الأهوال ، قبل أن ينفع أهل ولا مال ، واكحل عينك بمحلول الحزن إذ ضحك البطالون ، وكن في ذلك صابراً محتسباً ، وطوبى لك إن نالك ما وعدت الصابرين ، إرج من الدنيا بالله يوم يبعثون وذق مذاقة ما قد حرب منك أين طعمه ، وما لم يأتك كيف لذته ، فرح من الدنيا بالبلغة ، وليكفك منها الحشن الجئيب ، قد رأيت إلى ما يصير ، اعمل على حساب فإنك مسئول ، لو رأت عينك ما أعددت لأوليائي الصالحين ذاب قلبك وزهقت نفسك .

وقال أبو داود في كتابه القدر : حدثنا محمد بن يحيى بن فارس ، حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر عن الزهري ، عن ابن طاووس ، عن أبيه قال : لقي عيسى ابن مريم إبليس فقال : أما علمت أنه لن يصيبك إلا ما كتب لك ؟ قال إبليس : فأوف بذروة هذا الجبل فتردى منه فانظر هل تعيش أم لا . فقال ابن طاووس : عن أبيه : فقال عيسى : أما علمت أن الله تعالى قال : لا يجزيني عبدي فإني أفعل ما شئت . وقال الزهري : إن العبد لا يبتلى ربه ولكن الله يبتلي عبده .

وقال أبو داود : حدثنا أحمد بن عبدة ، أنبأنا سفيان ، عن عمرو ، عن طاووس قال : أتى الشيطان عيسى ابن مريم ، فقال : أليس تزعم أنك صادق ؟ فأنت هوة فألق نفسك . قال : ويلك .. أليس قال : يا ابن آدم .. لا تسألني هلاك نفسك فإني أفعل ما أشاء !

وحدثنا أبو توبة الربيع بن نافع ، حدثنا حسين بن طلحة ، سمعت خالد بن يزيد ، قال :

تعبد الشيطان مع عيسى عشرين أو ستين ، أقام يوماً على سفير جبال فقال الشيطان :
أرأيت إن ألقيت نفسي هل يصيبني إلا ما كتب لي . إني لست بالذي أبتلى ربي ولكن ربي إذا
شاء ابتلاني . وعرفه أنه الشيطان ففارقه .

وقال أبو بكر بن أبي الدنيا : حدثنا شريح بن يونس ، حدثنا علي بن ثابت ، عن
الخطاب بن القاسم ، عن أبي عثمان ، كان عيسى عليه السلام يصلي على رأس جبل ، فأتاه
إبليس فقال : أنت الذي تزعم أن كل شيء بقضاء وقدر ؟ قال : نعم . قال : ألق نفسك من
هذا الجبل وقل قدر علي . فقال : يالعين .. الله يحتر العباد وليس العباد يخترن الله عز
وجل .

وقال أبو بكر بن أبي الدنيا : حدثنا الفضل بن موسى البصري ، حدثنا إبراهيم بن بشار ،
سمعت سفيان بن عيينة يقول : لقي عيسى ابن مريم إبليس فقال له إبليس : يا عيسى ابن
مريم .. الذي بلغ من عظم ربوبيتك أنك تكلمت في المهد صبياً ، ولم يتكلم فيه أحد قبلك .
قال : بل الربوبية للإله الذي أنطقني ثم يمتني يم يحييني . قال : فأنت الذي بلغ من عظم
ربوبيتك أنك تحيي الموتى . قال : بل الربوبية لله الذي يحيي ويميت من أحببت ثم يحييه .
قال : والله إنك لإله في السماء وإله في الأرض . قال : فصكه جبريل بجناحيه فما نباها دون
قرون الشمس . ثم صكه أخرى بجناحيه فما نباها دون العين الحامية ، ثم صكه أخرى فأدخله
بحار السابعة فأساخه ، وفي رواية : فأسلكه فيها ، حتى وجد طعم الحماة فخرج منها وهو
يقول : ما لقي أحد من أحد ما لقيت منك يا ابن مريم .

وقد روى نحو هذا بأبسط منه من وجه آخر ، فقال الحافظ أبو بكر الخطيب : أخبرني أبو
الحسن بن رزقويه ، أنبأنا أبو بكر أحمد ابن سيدي ، حدثنا أبو محمد الحسن بن علي القطان ،
حدثنا إسماعيل ابن عيسى العطار ، أنبأنا علي بن عاصم ، حدثني أبو سلمة سويد عن بعض
أصحابه . قال : صلى عيسى بيت المقدس فانصرف ، فلما كان ببعض العقبة عرض له إبليس
فاحتسه فجعل يعرض عليه ويكلمه ويقول له : إنه لا ينبغي لك أن تكون عبداً . فأكثر
عليه وجعل عيسى يحرض على أن يتخلص منه ، فجعل لا يتخلص منه فقال له فيما يقول : لا
ينبغي لك يا عيسى أن تكون عبداً . قال : فاستغاث عيسى بربه ، فأقبل جبريل وميكائيل
فلما رآهما إبليس كف ، فلما استقر معه على العقبة اكتنفا عيسى وضرب جبريل إبليس بجناحه
فقدفه في بطن الوادي . قال : فعاد إبليس معه وعلم أنها لم يؤمرا بغير ذلك . فقال لعيسى : قد
أخبرت أنك لا ينبغي أن تكون عبداً ، إن غضبك ليس بغضب عبد ، وقد رأيت ما لقيت

منك حين غضبت ولكن أدعوك لأمر هو لك ، أمر الشياطين فليطيعوك فإذا رأى البشر أن الشياطين أطاعوك عبدوك ، أما إني لا أقول أن تكون أنت إلهاً في الأرض . فلما سمع عيسى ذلك منه استغاث بربه وصرخ صرخة شديدة ، فإذا إسرافيل قد هبط فنظر إليه جبريل وميكائيل فكف إبليس ، فلما استقر معهم ضرب إسرافيل إبليس بجناحه فصك به عين الشمس ، ثم ضربه ضربة أخرى فأقبل إبليس يهوى ومر عيسى وهو بمكانه فقال : يا عيسى .. لقد لقيت فيك اليوم تعباً شديداً . فرمى به في عين الشمس ، فوجد سبعة أملاك عند العين الحامية قال : فغطوه فجعل كلما خرج غطوه في تلك الحماة قال : والله ما عاد إليه بعد .

قال : وحدثنا إسماعيل العطار ، حدثنا أبو حذيفة قال : واجتمع اليه شياطينه فقالوا : سيدنا .. لقد لقيت تعباً ، قال : إن هذا عبد معصوم ليس لي عليه من سبيل ، وسأضل به بشراً كثيراً وأنت فيهم أهواء مختلفة وأجعلهم شيعاً ويجعلونه وأمه إلهين من دون الله . قال : وأنزل الله فيما أيد به عيسى وعصمه من إبليس قرآناً ناطقاً يذكر نعمته على عيسى فقال : ﴿ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ ﴾ يعني إذ قويتك بروح القدس ، يعني جبريل ﴿ تَكَلَّمَ النَّاسُ فِي الْمَهْدِ وَكَهَلًا ﴾ ، وإذ علّمتك الكتاب . والحكمة والتوراة والإنجيل ، وإذ تغلّقت من الطين كهيئة الطير ... ﴾ الآية كلها وإذ جعلت المساكين لك بطانة وصحابة وأعواناً ترضي بهم وصحابة وأعواناً يرضون بك هادياً وقائداً إلى الجنة ، فذلك فاعلم خلقان عظيمان من لقيني بها فقد لقيني بأزكى الخلائق وأرضاها عندي .

وسيقول لك بنو إسرائيل صمنا فلم يتقبل صيامنا وصلينا فلم تقبل صلاتنا وتصدقنا فلم تقبل صدقاتنا وبكيننا بمثل حنين الجمل فلم يرحم بكأؤنا . فقل لهم : ولم ذلك وما الذي يمنعني ؟ أن ذات يدي قلت ؟ أو ليس خزائن السموات والأرض بيدي أنفق منها كيف أشاء . أو أن البخل يعتريني ، أو لست أجود من سئل وأوسع من أعطى . أو أن رحمتي ضاقت ؟ وإنما يتراحم المتراحمون بفضل رحمتي .

ولولا أن هؤلاء القوم يا عيسى ابن مريم غروا أنفسهم بالحكمة التي توزت في قلوبهم ما استأثروا به الدنيا أثرة على الآخرة لعرفوا من أين أتوا ، وإذن لأيقنوا أن أنفسهم هي أعدى الأعداء لهم ، وكيف أقبل صيامهم وهم يتقنون عليه بالأطعمة الحرام ، وكيف أقبل صلاتهم وقلوبهم تركز إلى الذين يحاربوني وستهلون محارمي ، وكيف أقبل صدقاتهم وهم يغضبون الناس عليهم فيأخذونها من غير حلها ، يا عيسى .. إننا أجزى عليها أهلها ، وكيف أرحم بكاءهم وأيديهم تقطر من دماء الأنبياء ؟! ازددت عليهم غضباً .

يا عيسى .. وقضيت يوم خلقت السموات والأرض أنه من عبدي وقال فيكما بقولي أن أجعلهم جيرانك في الدار ورفقاءك في المنازل وشركاءك في الكرامة ، وقضيت يوم خلقت السموات والأرض أنه من اتخذك وأمك إلهين من دون الله أن أجعلهم في الدرك الأسفل من النار .

وقضيت يوم خلقت السموات والأرض أني مثبت هذا الأمر على يدي عبدي محمد وأختم به الأنبياء والرسل ، ومولده بمكة ومهاجره بطيبة وملكه بالشام ، ليس بنظ ولا غليظ ولا سخاب في الأسواق ولا يتزين بالفحش ولا قوال بالخنا ، أسدده لكل أمر جميل وأهب له كل خلق كريم . وأجعل التقوى ضميره والحكم معقوله والوفاء طبيعته والعدل سيرته والحق شريعته والإسلام ملته ، اسمه أحمد ، أهدى به بعد الضلالة وأعلم به بعد الجهالة وأغنى به بعد العائلة ، وأرفع به بعد الضعة ، أهدى به وأفتح به بين آذان صم وقلوب غلف وأهواء مختلفة متفرقة ، وأجعل أمته خير أمة أخرجت للناس ، يأمرهم بالمعروف وينهون عن المنكر إخلاصاً لاسمى وتصديقاً لما جاءت به الرسل ، ألهمهم التسبيح والتقديس والتهليل في مساجدهم ومجالسهم وبيوتهم ومنقلبهم ومشواهم ، يصلون لي قياماً وقعوداً وركعاً وسجوداً ، ويقاثلون في سبيلي صفوفاً وزخوفاً ، قربانهم دماؤهم وأناجيلهم في صدورهم وقربانهم في بطونهم ، رهبان بالليل ليوث في النهار ، ذلك فضلي أوتيته من أشاء وأنا ذو الفضل العظيم .

وسنذكر ما يصدق كثيراً من هذا السياق مما سنورده من سور المائدة والصف إن شاء الله وبه الثقة .

وقد روى أبو حذيفة إسحاق بن بشر بأسانيده عن كعب الأحبار ووهب بن منبه وابن عباس وسلمان الفارسي ، دخل حديث بعضهم في بعض ، قالوا : لما بعث عيسى ابن مريم وجاءهم بالبينات جعل المنافقون والكافرون من بني إسرائيل يعجبون ويستهزئون به فيقولون : ما أكل فلان البارحة وما ادخر في منزله ؟ فيخبرهم ، فيزداد المؤمنون إيماناً ، والكافرون والمنافقون شكاً وكفراناً .

وكان عيسى مع ذلك ليس له منزل يأوى إليه ، إنما يسبح في الأرض ليس له قرار ولا موضع يعرف به ، فكان أول ما أحيا من الموق أنه مر ذات يوم على امرأة قاعده عند قبر وهي تبكي فقال لها : مالك أيتها المرأة ؟ فقالت : ماتت ابنة لي لم يكن لي ولد غيرها . وإني عاهدت ربي أن لا أبرح من موضعي هذا حتى أذوق ما ذاق من الموت أو يحييها الله لي فانظر إليها . فقال لها عيسى : أرايت إن نظرت إليها أراجعة أنت ؟ قالت : نعم .

قالوا : فصلى ركعتين ثم جاء فجلس عند القبر فنادى : يا فلانة .. قومي بإذن الله الرحمن فاخرجي . جاء فجلس عند القبر فنادى الثانية فانصدع القبر بإذن الله ، ثم نادى الثالثة فخرجت وهي تنفض رأسها من التراب ، فقال لها عيسى : ما أبطأ بك عني ؟ فقالت : لما جاءني الصيحة الأولى بعث الله لي ملكاً فركب خلقي ثم جاءني الصيحة الثانية فرجع إلى روحي ، ثم جاءني الصيحة الثالثة فخفت أنها صيحة القيامة فشاب رأسي وحاجبائي وأشفاري عيني من مخافة القيامة ، ثم أقبلت على أمها فقالت : يا أماه .. ما حملك على أن أذوق كرب الموت مرتين ؟ يا أماه .. اصبري واحتسبي فلا حاجة لي في الدنيا ، ياروح الله وكلمته .. سل ربي أن يردني إلى الآخرة وأن يهون على كرب الموت . فدعا ربه فقبضها إليه واستوت عليها الأرض .

فبلغ ذلك اليهود فازدادوا غضباً .

وقدمنا في عقب قصة نوح أن بني إسرائيل سألوه أن يحيي لهم سام بن نوح فدعا الله عز وجل وصلى لله فأحياه الله لهم فحدثهم عن السفينة وأمرها ثم دعا فعاد تراباً .

وقد روى السدي عن أبي صالح وأبي مالك ، عن ابن عباس في خبر ذكره وفيه أن ملكاً من ملوك بني إسرائيل مات وحمل على سريريه فجاء عيسى عليه السلام فدعا الله عز وجل فأحياه الله عز وجل ، فرأى الناس أمراً هائلاً ومنظراً عجباً .

وقال تعالى وهو أصدق القائلين : ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أُيِّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا ، وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ، وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي ، وَتُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي ، وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي ، وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ * وَإِذْ أُوحِيَ إِلَى الْخَوَارِجِ أَنْ آمَنُوا بِمِيقَاتِهِمْ وَرَسُولِيَ قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ (١) .

يذكره تعالى بنعمته عليه وإحسانه إليه في خلقه إياه من غير أب ، بل من أم بلا ذكر ، وجعله له آية للناس ودلالة على كمال قدرته تعالى ثم إرساله بعد هذا كله ﴿ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ ﴾ في اصطفاؤها واختيارها لهذه النعمة العظيمة وإقامة البرهان على براءتها مما نسبها إليه الجاهلون

(١) سورة المائدة الآية ١١٠ .

ولهذا قال : ﴿ إِذْ أَيْدَتَكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ ﴾ وهو جبريل بإلقاء روحه إلى أمه وقرنه معه في حال رسالته ومدافعتة عنه لمن كفر به ﴿ تَكَلَّمَ النَّاسُ فِي الْمَهْدِ وَكَهَلًا ﴾ أي تدعو الناس إلى الله في حال صغرك في مهدك وفي جهولتك ﴿ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ أي الخط والفهم ، نص عليه بعض السلف ﴿ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴾ وقوله : ﴿ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ يَأْذُنِي ﴾ أي تصوره وتشكله من الطين على هيئة الطير على أمر الله له بذلك ﴿ فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا يَأْذُنِي ﴾ أي بأمرى يؤكد تعالى بذكر الإذن له في ذلك لرفع التوهم .

وقوله : ﴿ وَتُبْرِئِ الْأَكْمَةَ ﴾ قال بعض السلف : وهو الذي يولد أعمى ولا سبيل لأحد من الحكماء إلى مداواته ﴿ وَالْأَبْرَصَ ﴾ هو الذي لا طب فيه بل قد مرض بالبرص وصار داؤه عضالا ﴿ وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى ﴾ أي من قبورهم أحياء ﴿ يَأْذُنِي ﴾ وقد تقدم ما فيه دلالة على وقوع ذلك مراراً متعددة بما فيها كفاية .

وقوله : ﴿ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ وذلك حين أرادوا صلبه فرفعه الله إليه وأنقذه من بين أظهرهم صيانة لجنابه الكريم عن الأذى ، وسلامة له من الردى .

وقوله : ﴿ وَإِذْ أُوحِيَتْ إِلَى الْخَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرُسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ قيل المراد بهذا الوحي وحي إلهام أي أرشدهم الله إليه ودلهم عليه كما قال : ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ ﴾^(١) ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مَوْسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ، فإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ ﴾^(٢) وقيل المراد وحي بواسطة الرسول وتوفيق في قلوبهم لقبول الحق ، ولهذا استجابوا قائلين : ﴿ آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ .

وهذا من جملة نعم الله على عبده ورسوله عيسى ابن مريم أن جعل له أنصاراً وأعواناً ينصرونه ويدعون معه إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، كما قال تعالى لعبده محمد ﷺ ﴿ هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ * وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ، لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ ، إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾^(٣) وقال تعالى : ﴿ وَيُعَلِّمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ . وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا يَأْذُنِ اللَّهِ ، وَأُبْرِئِ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ

(٢) سورة القصص الآية ٧ .

(١) سورة النحل الآية ٦٨ .

(٣) سورة الأنفال آيتا ٦٢ ، ٦٣ .

وَأُخِي الْمَوْتَى يَا ذَنْنَ اللَّهِ ، وَأَنْبِئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيَّنَّا يَدِي مِنَ التَّوْرَةِ وَلَأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي هَرَّمَ عَلَيْكُمْ ، وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا * إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ، هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ * فَلَمَّا أَحَسَّ عَيْسَى مِنْهُمْ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ ، قَالَ الْخَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ * رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ * وَمَكْرُوهًا وَمَكْرَ اللَّهُ ، وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿١﴾ .

كانت معجزة كل نبي في زمانه بما يناسب أهل ذلك الزمان ، فذكروا أن موسى عليه السلام كانت معجزته مما يناسب أهل زمانه وكانوا سحرة أذكفاء ، فبعث بآيات بهرت الأبصار وخضعت لها الرقاب ، ولما كان السحرة خبيرين بفنون السحر وما ينتهي إليه وعانوا ما عانوا من الأمر الباهر الهائل الذي لا يمكن صدوره إلا عن أيده الله وأجرى الخارق على يديه تصديقاً له ، أسلموا سرعاً ولم يتعلموا .

وهكذا عيسى ابن مريم بعث في زمن الطبائعية الحكماء ، فأرسل بمعجزات لا يستطيعونها ولا يهتدون إليها ، وأنى لحكيم إبراء الأكمه الذي هو أسوأ حالا من الأعمى ، والأبرص والمجذوم ومن به مرض مزمن ، وكيف يتوصل أحد من الخلق إلى أن يقيم الميت من قبره ؟ هذا مما يعلم كل أحد معجزة دالة على صدق من قامت به وعلى قدرة من أرسله .

وهكذا محمد ﷺ وعليهم أجمعين بعث في زمن الفصحاء البلغاء ، فأنزل الله عليه القرآن العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، فلفظه معجز تحدى به الإنس والجن أن يأتوا بمثله أو بعشر سور من مثله أو بسورة ، وقطع عليهم بأنهم لا يقدرُونَ لا في الحال ولا في الاستقبال ، فإن لم يفعلوا ولن يفعلوا وما ذاك إلا أنه كلام الخالق عز وجل ، والله تعالى لا يشبهه شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله .

والمقصود أن عيسى عليه السلام لما أقام عليهم الحجج والبراهين استمر أكثرهم على كفرهم وضلالهم وعنادهم وطغيانهم ، فانتدب من بينهم طائفة صالحة فكانوا له أنصاراً وأعواناً قاموا بمتابعته ونصرته ومناصحته ، وذلك حين هم به بنو إسرائيل ووشوا به إلى بعض ملوك ذلك الزمان ، فعزموا على قتله وصلبه فأنقذه الله منهم ورفعهم إليه من بين أظهرهم وألقى شبهه على أحد أصحابه فأخذوه فقتلوه وصلبوه وهم يعتقدونه عيسى وهم في ذلك غالطون وللحق

(١) سورة آل عمران آيات ٤٨ - ٥٤

مكابرون ، وسلم لهم كثير من النصارى ما ادعوه ، وكلا الفريقين في ذلك مخطئون .

قال تعالى : ﴿ وَكَرُّوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾^(١) وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ، فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ * وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مِتُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾^(٢) إلى أن قال بعد ذلك : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ ، قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ، فَاْمَنَّا طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَائِفَةٌ ، فَأَيُّدُنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَاصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴾^(٣) .

فعيسى عليه السلام هو خاتم أنبياء بني إسرائيل وقد قام فيهم خطيباً فبشرهم بخاتم الأنبياء الآتي بعده ونوه باسمه وذكر لهم صفته ليعرفوه ويتابعوه إذا شاهدوه ، إقامة للحجة عليهم وإحساناً من الله إليهم كما قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ، فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾^(٤) .

وقال محمد بن إسحاق : حدثني ثور بن يزيد ، عن خالد بن معدان ، عن أصحاب رسول الله ﷺ أنهم قالوا : يارسول الله .. أخبرنا عن نفسك . قال : « دعوة أبي إبراهيم ، وبشرى عيسى ، ورأت أمي حين حملت بي كأنه خرج منها نور أضاءت له قصور بصرى من أرض الشام » .

وقد روى عن العرياض بن سارية وأبي أمامة عن النبي ﷺ نحو هذا وفيه : دعوة أبي إبراهيم وبشرى عيسى وذلك أن إبراهيم لما بنى الكعبة قال : ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ ﴾^(٥) الآية . ولما انتهت النبوة في بني إسرائيل إلى عيسى قام فيهم خطيباً فأخبرهم أن النبوة قد انقطعت عنهم وأنها بعده في النبي العربي الأمي خاتم الأنبياء على الإطلاق أحمد ، وهو

(١) سورة آل عمران الآية ٥٤ .

(٢) سورة الصف آيات ٦ - ٨ .

(٣) سورة الصف الآية ١٤ .

(٤) سورة الأعراف الآية ١٥٧ .

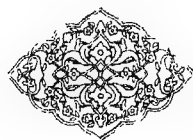
(٥) سورة البقرة الآية ١٢٩ .

محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم السدي هو من سلالة إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليه السلام .

قال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ يحتل عود الضمير إلى عيسى عليه السلام ويحتل عوده إلى محمد ﷺ .

ثم حرض تعالى عباده المؤمنين على نصره الإسلام وأهله ونصرة نبيه ومؤازرته ومعاونته على إقامة الدين ونشر الدعوة فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ ﴾ أي من يساعدي في الدعوة ، إلى الله ﴿ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ﴾ وكان ذلك في قرية يقال لها الناصرة فسما بذلك النصارى ، قال الله تعالى : ﴿ فَأَمَنْتُ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرْتَ طَائِفَةٌ ﴾ يعني لما دعا عيسى ابن مريم بني إسرائيل وغيرهم إلى الله تعالى ، منهم من آمن ومنهم من كفر ، وكان ممن آمن به أهل أنطاكية بكاملهم فيما ذكره غير واحد من أهل السير والتواريخ والتفسير بعث إليهم رسلا ثلاثة ، أحدهم شمعون الصفا فآمنوا واستجابوا ، وليس هؤلاء هم المذكورون في سورة يس لما تقدم تقريره في قصة أصحاب القرية ، وكفر آخرون من بني إسرائيل وهم جمهور اليهود ، فأيد الله من آمن به على من كفر فيما بعد وأصبحوا ظاهرين عليهم قاهرين لهم كما قال تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلَ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ الآية فكل من كان إليه أقرب كان غالباً لمن دونه ، ولما كان قول المسلمين فيه هو الحق الذي لاشك فيه من أنه عبد الله ورسوله كانوا ظاهرين على النصارى الذين غلوا فيه وأطروه وأنزلوه فوق ما أنزله الله به .

ولما كان النصارى أقرب في الجملة مما ذهب إليه اليهود فيه عليهم لعائن الله ، كان النصارى قاسرين لليهود في أزمان الفترة إلى زمن الإسلام وأهله .



خبر المائدة

قال الله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يَنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ ، قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ * قالوا نريد أن يأكل مِنهَا وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقنا ونكون عليهما مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ * قال عيسى ابن مريم اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا وآية منك ، وارزقنا وأنت خير الرازقين ﴾ * قال الله إني منزلها عليكم ، فمن يكفر بعد منكم فأني أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿ ١١ ﴾ .

قد ذكرنا في التفسير الآثار الواردة في نزول المائدة عن ابن عباس وسلمان الفارسي وعمار بن ياسر وغيرها من السلف .

ومضون ذلك : أن عيسى عليه السلام أمر الحواريين بصيام ثلاثين يوماً ، فلما أتموها سألوهم من عيسى إنزال مائدة من السماء عليهم ليأكلوا منها وتطمئن بذلك قلوبهم أن الله قد تقبل صياهم وأجابهم إلى طلبتهم ، وتكون لهم عيداً يفطرون عليها يوم فطرهم ، وتكون كافية لأولهم وآخرهم لغنيهم وفقيرهم ، فوعظهم عيسى عليه السلام في ذلك وخاف عليهم ألا يقوموا بشكرها ولا يؤدوا حق شروطها فأبوا عليه إلا أن يسأل لهم ذلك من ربه عز وجل .

فلما لم يقلعوا عن ذلك قام إلى مصلاه ولبس مسحاً من شعر وصف بين قدميه وأطرق رأسه وأسهل عينيه بالبكاء وتضرع إلى الله في الدعاء والسؤال أن يجابوا إلى ماطلبوا .

فأنزل الله تعالى المائدة من السماء والناس ينظرون إليها تنحدر بين غمامتين ، وجعلت تدنو قليلاً قليلاً ، وكلما دنت سأل عيسى ربه عز وجل أن يجعلها رحمة لا تنقمة وأن يجعلها بركة وسلامة . فلم تنزل تدنو حتى استقرت بين يدي عيسى عليه السلام وهي مغطاة بمنديل فقام عيسى يكشف عنها وهو يقول : « بسم الله خير الرازقين » فإذا عليها سبعة من الحيتان وسبعة أرغفة . ويقال : وخل ، ويقال : ورمان وثمار ، ولها رائحة عظيمة جداً ، قال الله كوني فكانت .

ثم أمرهم بالأكل منها ، فقالوا : لأنأكل حتى تأكل . فقال : إنكم الذين ابتدأتم السؤال لها ،

(١) سورة المائدة آيات ١١٢ - ١١٥ .

فأبوا أن يأكلوا منها ابتداء ، فأمر الفقراء والمهاويج والمرضي والزمني وكانوا قريباً من ألف وثلاثمائة فأكلوا منها فبراً كل من به عاهة أو آفة أو مرض مزمن ، فندم الناس على ترك الأكل منها لما رأوا من إصلاح حال أولئك . ثم قيل إنها كانت تنزل كل يوم مرة فيأكل الناس منها ، يأكل آخرهم كما يأكل أولهم حتي قيل إنها كان يأكل منها نحو سبعة آلاف .

ثم كانت تنزل يوماً بعد يوم ، كما كانت ناقة صالح يشربون لبنها يوماً بعد يوم . ثم أمر الله عيسى أن يقصرها على الفقراء أو المهاويج ذون الأغنياء . فشق ذلك على كثير من الناس وتكلم مناقبهم في ذلك ، فرفعت بالكلية ومسح الذين تكلموا في ذلك خنازير .

وقد روى ابن أبي حاتم وابن جرير جميعاً ، حدثنا الحسن بن قزعة الباهلي ، حدثنا سفيان ابن حبيب ، حدثنا سعيد بن أبي عروبة ، عن قتادة عن خلاص ، عن عمار بن ياسر ، عن النبي ﷺ قال : « نزلت المائة من السماء خبز ولحم وأمرؤ ألا يخونوا ولا يدخروا ولا يرفعوا لحد ، فخانوا وادخروا ورفعوا ، فسخوا قردة وخنازير » .

ثم رواه ابن جرير عن بNDAR ، عن ابن أبي عدي ، عن سعيد ، عن قتادة ، عن خلاص ، عن عمار موقوفاً . وهذا أصح . وكذا رواه من طريق سماك ، عن رجل من بني عجل ، عن عمار موقوفاً . وهو الصواب .. والله أعلم .

وخلاص عن عمار منقطع ، فلو صح هذا الحديث مرفوعاً لكان فيصلاً في هذه القصة ، فإن العلماء اختلفوا في المائة : هل نزلت أولاً ؟ فالجمهور أنها نزلت كما دلت عليه هذه الآثار كما هو المفهوم من ظاهر سياق القرآن ولا سيما قوله : ﴿ إِنِّي مَنَزَّلُهَا عَلَيْكُمْ ﴾ كما قرره ابن جرير والله أعلم .

وقد روى ابن جرير بإسناد صحيح إلى مجاهد وإلى الحسن بن أبي الحسن البصري . أنها قالوا : لم تنزل وإنهم أبوا نزولها حين قال : ﴿ قَمَنُ يَكْفُرُ بَعْدَ مَنكُم فإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَاباً لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ ولهذا قيل إن النصارى لا يعرفون خبر المائة وليس مذكوراً في كتبهم ، مع أن خبرها مما تتوافر الدواعي على نقله .. والله أعلم .

وقد تقصينا الكلام على ذلك في التفسير فليكتب من هناك ، ومن أراد مراجعته فلينظره من ثم .. والله الحمد والمنة .

قال أبو بكر بن أبي الدنيا : حدثنا رجل سقط اسمه ، حدثنا حجاج بن محمد ، حدثنا أبو هلال محمد بن سليمان ، عن بكر بن عبد الله المزني قال : فقد الحواريون نبيهم عيسى فقيل لهم توجه نحو البحر ، فانطلقوا يطلبونه فلما انتهوا إلى البحر إذا هو يمشي على المائدة يرفعه الموج مرة ويضعه أخرى . وعليه كساء مرتد بنصفه ومؤتزر بنصفه ، حتى انتهى إليهم فقال له بعضهم ، قال أبو هلال ظننت أنه من أفاضلهم : ألا أجيء إليك يابني الله ؟ قال : بلى . قال : فوضع إحدى رجله على الماء ثم ذهب ليضع الأخرى فقال : أوه .. غرقت يابني الله . فقال : أرني يدك يا قصير الإيمان ، لو أن لابن آدم من اليقين قدر شعيرة مشى على الماء !

ورواه أبو سعيد عن الأعرابي ، عن إبراهيم بن أبي الجحيم ، عن سليمان بن حرب ، عن أبي هلال بن بكر بنحوه .

ثم قال ابن أبي الدنيا : حدثنا محمد بن علي بن الحسن بن سفيان ، حدثنا إبراهيم بن الأشعث ، عن الفضيل بن عياش ، قال : قيل لعيسى ابن مريم : يا عيسى .. بأي شيء تمشي على الماء ؟ قال : بالإيمان واليقين . قالوا : فإننا آمنّا كما أمنت وأيقنا كما أيقنت . قال : وبغاشوا إذن . قال : فشوا معه في الموج فغرقوا فقال لهم عيسى : مالكم ؟ فقالوا : خفنا الموج . قال : ألا خفتم رب الموج ؟ ! قال : فأخرجهم . ثم ضرب يده إلى الأرض فقبض بها ثم بسطها . فإذا في إحدى يديه ذهب وفي الأخرى مدر - أو حصى - فقال : أيها أحلى في قلوبكم ؟ قالوا : هذا الذهب . قال : فإنها عندي سواء !

وقد معنا في قصة يحيى بن زكريا عن بعض السلف أن عيسى عليه السلام كان يلبس الشعر ويأكل من ورق الشجر ولا يأوي إلى منزل ولا أهل ولا مال ولا يدخر شيئاً لغد . قال بعضهم : كان يأكل من غزل أمه .. صلوات الله وسلامه عليه .

وروى ابن عساكر عن الشعبي أنه قال : كان عيسى عليه السلام إذا ذكر عنده الساعة صاح ويقول لا ينبغي لابن مريم أن يذكر عنده الساعة ويسكت .

وعن عبد الملك بن سعيد بن أبجر أن عيسى كان إذا سمع الموعظة صرخ صراخ الشكلي . وقال عبد الرزاق : أنبأنا جعفر بن برقان ، أن عيسى كان يقول : « اللهم

إني أصبحت لا أستطيع دفع ما أكره ولا أملك نفع ما أرجو ، وأصبح الأمر بدي غيري ، وأصبحت مرتتها بعملى فلا فقير أفقر مني ؟ اللهم لاتثمت بي عدوي ولا تسؤ بي صديقي ، ولا تجعل مصيبتى في ديني ولا تسلط علي من لايرحمي » .

قال الفضيل بن عياض عن يونس بن عبيد ، كان عيسى يقول : لا يصيب أحد حقيقة الإيمان حتى لا يبالى من أكل الدنيا !

قال الفضيل : وكان عيسى يقول : فكرت في الخلق فوجدت من لم يخلق أغبط عندي من خلق !

وقال إسحاق بن بشر ، عن هشام بن حسان ، عن الحسن ، قال : إن عيسى رأس الزاهدين يوم القيامة . قال : وإن الفزارين بذنوبهم يحشرون يوم القيامة مع عيسى .

قال : وبيننا عيسى يوماً نائم على حجر قد توسده وقد وجد لذة النوم إذ مر به إبليس فقال : يا عيسى .. ألسنت تزعج أنك لاتريد شيئاً من عرض الدنيا ؟ فهذا الحجر من عرض الدنيا . قال : فقام عيسى فأخذ الحجر فرمى به إليه ، وقال : هذا لك مع الدنيا !

وقال معتمر بن سليمان : خرج عيسى على أصحابه وعليه جبة صوف وكسان وتبان حافياً باكياً شعثاً مصفر اللون من الجوع يابس الشفتين من العطش فقال : السلام عليكم يا بني إسرائيل ، أنا الذي أنزلت الدنيا منزلتها بإذن الله ولا عجب ولا فخر ، أتدرون أين بيتي ؟ قالوا : أين بيتك يا روح الله ؟ قال : بيتي المساجد ، وطبي الماء ، وأدامي الجوع ، وسراجي القمر بالليل ، وصلاقي في الشتاء مشارق الشمس ، وربحاني بقول الأرض ، ولباسي الصوف ، وشعاري خوف رب العزة ، وجلسائي الزمني والمساكين ، أصبح وليس لي شيء وأمسى وليس لي شيء ، وأنا طيب النفس غير مكترث فمن أغني منى وأريح ! رواه ابن عساکر .

وروى في ترجمة محمد بن الوليد بن أبان بن حبان أبي الحسن العقيلي المصري ، حدثنا هانئ ابن المتوكل الإسكندراني ، عن حيوة بن شريح ، حدثني الوليد بن أبي الوليد ، عن شفي بن ماتع ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : أوحى الله تعالى إلى عيسى : أن يا عيسى .. انتقل من مكان إلى مكان لئلا تعرف فتؤذي ، فوعزتي وجلالي لأزوجنك ألف حوراء ولألن عليك أربعائة عام .

وهذا حديث غريب رفعه ، وقد يكون موقوفاً من رواية شفي ابن ماتع ، عن كعب الأبحار أو غيره من الإسرائيليين .. والله أعلم .

وقال عبد الله بن المبارك : عن سفيان بن عيينة ، عن خلف بن حوشب ، قال : قال عيسى للحواريين : كما ترك لكم الملوك الحكمة فكذلك فاتركوا لهم الدنيا .

وقال قتادة : قال عيسى عليه السلام : سلوني فأني لئن القلب وإني صغير عند نفسي .

وقال إسماعيل بن عياش ، عن عبد الله بن دينار ، عن ابن عمر قال : قال عيسى للحواريين : كلوا خبز الشعير واشربوا الماء القراح واخرجوا من الدنيا سالمين آمنين ، بحق ما أقول لكم إن حلاوة الدنيا مرارة الآخرة ، وإن مرارة الدنيا حلاوة الآخرة ، وإن عباد الله ليسوا بالمتنعمين ، بحق ما أقول لكم إن شركم عالم يؤثر هواه على عالمه يود أن الناس كلهم مثله . وروى نحوه عن أبي هريرة .

قال أبو مصعب عن مالك إنه بلغه أن عيسى كان يقول : يا بني إسرائيل عليكم بالماء القراح والبقل البربر وخبز الشعير ، وإياكم وخبز البر فإنكم لن تقوموا بشكره .

وقال ابن وهب ، عن سليمان بن بلال ، عن يحيى بن سعيد قال : كان عيسى يقول : اعبروا الدنيا ولا تعمروها . وكان يقول : حب الدنيا رأس كل خطيئة ، والنظر يزرع في القلب الشهوة .

وحكى وهيب بن الورد مثله وزاد : ورب شهوة أورثت أهلها حزناً طويلاً .

وعن عيسى عليه السلام : يا ابن آدم الضعيف .. اتق الله حيث ما كنت ، وكن في الدنيا ضيفاً ، واتخذ المساجد بيتاً ، وعلم عينك البكاء وجسدك الصبر وقلبك التفكر ، ولا تهتم برزق غد فإنها خطيئة .

وعنه عليه السلام أنه قال : كما أنه لا يستطيع أحدكم أن يتخذ على موج البحر داراً فلا يتخذ الدنيا قراراً .

وفي هذا يقول سابق البربري :

لكم بيوت بمستن السيوف وهـل يبنى على الماء بيت أسه مدر !

وقال سفيان الثوري : قال عيسى ابن مريم : لا يستقيم حب الدنيا وحب الآخرة في قلب

مؤمن كما لا يستقيم الماء والنار في إناء .

وقال إبراهيم الحربي عن داود بن رشيد ، عن أبي عبد الله الصوفي قال : قال عيسى : طالب الدنيا مثل شارب ماء البحر ، كلما ازداد شرباً ازداد عطشاً حتي يقتله .

وعن عيسى عليه السلام : إن الشيطان مع الدنيا ومكره مع الماء وتزينه مع الهوى ، واستكانه عند الشهوات .

وقال الأعمش عن خيثمة : كان عيسى يضع الطعام لأصحابه ويقوم عليهم ويقول : هكذا فاصنعوا بالقرى .

وبه قالت امرأة لعيسى عليه السلام : طوبى ليحجر حملك ولثدي أرضعك . فقال : طوبى لمن قرأ كتاب الله واتبعه .

وعنه : طوبى لمن بكى من ذكر خطيئته وحفظ لسانه ووسعه بيته .

وعنه : طوبى لعين نامت ولم تحدث نفسها بالمعصية وانتبهت إلى غير إثم .

وعن مالك بن دينار قال : مر عيسى وأصحابه بجيفة فقالوا : ما أتن ريحها ، فقال : ما أبيض أسنانها . لينهاهم عن الغيبة .

وقال أبو بكر بن أبي الدنيا : يحدثنا الحسين بن عبد الرحمن ، عن زكريا بن عدي قال : قال عيسى ابن مريم : يامعشر الخواريين . : ارضوا بدني الدنيا مع سلامة الدين كما رضي أهل الدنيا بدني الدين مع سلامة الدنيا . قال زكريا : وفي ذلك يقول الشاعر :

أرى رجالاً بأدني الدين قد قنعوا ولا أراهم رضوا في العيش بالدون
فاستغن بالدين عن دنيا الملوك كما استغني الملوك بدنيهم عن الدين

وقال أبو مصعب عن مالك قال عيسى ابن مريم عليه السلام : « لا تكثروا الحديث بغير ذكر الله فتقسوا قلوبكم فإن القلب القاسي بعيد من الله ولكن لاتعلمون ، ولا تنظروا في ذنوب العباد كأنكم أرباب وانظروا فيها كأنكم عبيد ، فإنما الناس رجلان معافي ومبثلى فارحوا أهل البلاء واحمدوا الله على العافية » .

وقال الثوري : سمعت أبي يقول عن إبراهيم التيمي ، قال : قال عيسى لأصحابه : بحق أقول لكم .. من طلب الفردوس فخبز الشعير والنوم في المزابل مع الكلاب كثير .

وقال مالك بن دينار: قال عيسى: إن أكل الشعير مع الرماد والنوم على المزابل مع الكلاب لقليل في طلب الفردوس.

وقال عبد الله بن المبارك: أنبأنا سفيان، عن منصور، عن سالم بن أبي الجعد، قال: قال عيسى: اعملوا لله ولا تعملوا لبطونكم، انظروا إلى هذه الطير تغدو وتروح لا تحرث ولا تحصد والله يرزقها، فإن قلتم نحن أعظم بطوناً من الطير فانظروا إلى هذه الأبقار من الوحوش والحمر فإنها تغدو لا تحرث ولا تحصد والله يرزقها.

وقال صفوان بن عمرو: عن شريح بن عبد الله، عن يزيد بن ميسرة، قال: قال الحواريون للمسيح: يامسيح الله.. انظر إلى مسجد الله ما أحسنه. قال: آمين آمين.. بحق ما أقول لكم يترك الله من هذا المسجد حجراً قائماً إلا أهلكه بذنوب أهله، إن الله لا يصنع بالذهب ولا الفضة ولا بهذه الأحجار التي تعجبكم شيئاً إن أحب إلى الله منها القلوب الصالحة وبها يعمر الله الأرض، وبها يخرب الله الأرض إذا كانت على غير ذلك.

وقال الحافظ أبو القاسم بن عساكر في تاريخه: أخبرنا أبو منصور بن محمد الصوفي: أخبرتنا عائشة بنت الحسن بن إبراهيم الوركاني، قالت: حدثنا أبو محمد عبد الله بن عمر بن عبد الله ابن المهشم إملاء، حدثنا الوليد بن أبان إملاء، حدثنا أحمد بن جعفر الرازي، حدثنا سهيل بن إبراهيم الحنظلي، حدثنا عبد الوهاب بن عبد العزيز، عن المعتز، عن مجاهد، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «مر عيسى عليه السلام على مدينة خربة، فأعجبه البنيان فقال: أرى رب.. مر هذه المدينة أن تجيبني، فأوحى الله إلى المدينة: أيتها المدينة الخربة جاوبي عيسى. قال: فنادت المدينة: عيسى حبيبي وما تريد مني؟ قال: ما فعلت أشجارك وما فعل أنهارك وما فعل قصورك وأين سكانك؟ قالت: حبيبي.. جاء وعد ربك الحق فبيست أشجاري ونشفت أنهارى وخربت قصوري ومات سكاني. قال: فأين أموالهم؟ فقالت: جمعوها من الحلال والحرام موضوعة في بطني، لله ميراث السموات والأرض، قال: فنادى عيسى عليه السلام: تعجبت من ثلاثة أناس: طالب الدنيا والموت يطلبه، وبناني القصور والقبور منزله، ومن يضعك ملء فيه والنار أمامه! ابن آدم.. لا بالكثير تشيع ولا بالقليل تقنع، تجمع مالك لمن لا يحمدك وتقدم على رب لا يعذرك، إنما أنت عبد بطنك وشهوته، وإنما تملأ بطنك إذا دخلت قبرك، وأنت يا ابن آدم ترى حشد مالك في ميزان غيرك.

هذا حديث غريب جداً وفيه موعظة حسنة فكتبناه لذلك .

وقال سفيان الثوري عن أبيه ، عن إبراهيم التيمي ، قال عيسى عليه السلام : يامعشر الخواريين .. اجعلوا كنوزكم في السماء فإن قاب الرجل حيث كنزه .

وقال ثور بن زيد ، عن عبد العزيز بن ظبيان قال : قال عيسى ابن مريم عليه السلام : من تعلم وعلم وعمل دعي عظيما في ملكوت السماء .

وقال أبو كريب : روى أن عيسى عليه السلام قال : لاخير في علم لايعبر معك الوادي ويعبر بك النادي .

وروي ابن عساكر بإسناد غريب عن ابن عباس مرفوعاً : أن عيسى قام في بني إسرائيل فقال : يامعشر الخواريين .. لا تحدثوا بالحكم غير أهلها فتظلموها ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم ، والأمور ثلاثة : أمر تبين رشده فاتبعوه وأمر تبين غيه فاجتنبوه ، وأمر اختلف عليكم فيه فردوا علمه إلى الله عز وجل .

وقال عبد الرزاق : أنبأنا معمر ، عن رجل ، عن عكرمة قال : قال عيسى : لا تطرحوا اللؤلؤ إلى الخنزير فإن الخنزير لا يصنع باللؤلؤ شيئاً ، ولا تعطوا الحكمة من لا يريد لها ، فإن الحكمة خير من اللؤلؤ ومن لا يريد لها شر من الخنزير .

وكذا حكى وهب وغيره عنه أنه قال لأصحابه : أنتم ملح الأرض فإذا فسدتم فلا دواء لكم ، وإن فيكم خصلتين من الجهل ، الضحك من غير عجب والصبحة من غير سهر .
وعنه أنه قيل له : من أشد الناس فتنة ؟ قال : زلة العالم ، فإن العالم إذا زل يزل بزلته عالم كثير .

وعنه أنه قال : ياعلماء السوء جعلتم الدنيا على رؤوسكم والآخرة تحت أقدامكم ، قولكم شفاء وعلمكم داء مثلكم مثل شجرة الدقلي تعجب من رآها وتقتل من أكلها .

وقال وهب : قال عيسى : ياعلماء السوء جلستم على أبواب الجنة فلا تدخلونها ولا تدعون المساكين يدخلونها ، إن شر الناس عند الله عالم يطلب الدنيا بعلمه .

وقال مكحول : التقي يحيى وعيسى ، فصافحه عيسى وهو يضحك فقال له يحيى : يا ابن الخالة مالي أراك ضاحكاً كأنك قد أمنت ؟ فقال له عيسى : مالي أراك عابساً كأنك قد يئست ! فأوحى الله إليهما : إن أحبكما إليّ أبشكما بصاحبه .

وقال وهب بن منبه : وقف عيسى هو وأصحابه على قبر وصاحبه يدلي فيه ، فجعلوا يذكرون القبر وضيقه فقال : قد كنتم فيما هو أضيّق منه في أرحام أمهاتكم ، فإذا أحب الله أن يوسع وسع .

وقال أبو عمر الضرير : بلغني أن عيسى كان إذا ذكر الموت يقطر جلده دماً .
والآثار في مثل هذه كثيرة جداً . وقد أورد الحافظ ابن عساكر منها طرفاً صالحاً اتقصرنا على هذا القدر .. والله الموفق للصواب .

رفع عيسى عليه السلام إلى السماء

قال الله تعالى : ﴿ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ ، وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ * إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ورافعك إليّ ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ، ثم إليّ مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون ﴿ (١) .

وقال تعالى : ﴿ فَمَا تَقْضِيهِمْ مِثْقَالَ حَبِّ خَلْتِهِمْ وَمَا تَقْضِيهِمْ مِثْقَالَ حَبِّ خَلْتِهِمْ ﴾ * وقولهم قتلوا عيسى ابن مريم وهو حيّ ، بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً * وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً * وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم ، وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ، ما لهم به من علم إلا اتباع الظن ، وما قتلوه يقيناً * بل رفعه الله إليه ، وكان الله عزيزاً حكيماً * وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ، ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً ﴿ (٢) .

(٢) سورة النساء آيات ١٥٥ - ١٥٩ .

(١) سورة آل عمران آيتا ٥٤ ، ٥٥ .

فأخبره تعالى أنه رفعه إلى السماء بعد ماتوفاه بالنوم على الصحيح المقطوع به ، وخلصه ممن كان أراد أذيته من اليهود الذين وشوا به إلى بعض الملوك الكفرة في ذلك الزمان .

قال الحسن البصري ومحمد بن إسحاق : كان اسمه داود بن نورا فأمر بقتله وصلبه ، فحصره في دار ببيت المقدس ، وذلك عشية ٢٠ لجمعة ليلة السبت ، فلما حان وقت دخولهم ألقى شبهه على بعض أصحابه الحاضرين عنده ورفع عيسى من روزنة من ذلك البيت إلى السماء ، وأهل البيت ينظرون ، ودخل الشرط فوجدوا ذلك الشاب الذي ألقى عليه شبهه فأخذوه ظانين أنه عيسى فصلبوه ووضعوا الشوك على رأسه إهانة له ، وسلم لليهود عامة النصارى الذي لم يشاهدوا ما كان من أمر عيسى أنه صلب وضلوا بسبب ذلك ضلالاً مبيهاً كثيراً فاحشاً بعيداً .

وأخبر تعالى بقوله : ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَإِلَّا لِيُؤْمِنُوا بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ﴾ أي بعد نزوله إلى الأرض في آخر الزمان قبل قيام الساعة ، فإنه ينزل ويقتل الخنزير ويكسر الصليب ويضع الجزية ولا يقبل إلا الإسلام ، كما بينا ذلك بما ورد فيه من الأحاديث عند تفسير هذه الآية الكريمة من سورة النساء ، كما أوردنا ذلك مستقصى في كتاب « الفتن والملاحم » عند أخبار المسيح الدجال ، فذكرنا ما ورد في نزول المسيح المهدي عليه السلام من ذي الجلال لقتل المسيح الدجال الكذاب الداعي إلى الضلال .

وهذا ذكر ما ورد في الآثار في صفة رفعه إلى السماء :

قال ابن أبي حاتم : حدثنا أحمد بن سنان . حدثنا أبو معاوية ، عن المنهال بن عمرو ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، قال : لما أراد الله أن يرفع عيسى إلى السماء خرج على أصحابه وفي البيت اثنا عشر رجلاً منهم من الخواريين ، يعني فخرج عليهم من عين في البيت ورأسه يقطر ماء فقال : إن منكم من يكفر بي اثنتي عشرة مرة بعد أن آمن بي ، ثم قال : أيكم يلقي عليه شبي ف يقتل مكاني فيكون معي في درجي ؟ فقال شاب من أحدثهم سناً فقال له : اجلس . ثم أعاد عليهم فقام الشاب فقال : أنا . فقال : أنت هو ذاك . فألقى عليه شبه عيسى ، ورفع عيسى من روزنة في البيت إلى السماء .

قال : وجاء الطلب من اليهود فأخذوا الشبه فقتلوه ثم صلبوه فكفر به بعضهم اثنتي عشرة مرة بعد أن آمن به واقتروا ثلاث فرق ، فقالت طائفة : كان الله فينا ما شاء ثم صعد إلى السماء . وهؤلاء اليعقوبية . وقالت فرقة : كان فينا ابن الله ما شاء ثم رفعه الله إليه . وهؤلاء النسطورية . وقالت فرقة : كان فينا عبد الله . ورسوله ما شاء ثم رفعه الله إليه . وهؤلاء

المسلمون . فتظاهرت الكافرتان على المسلة فقتلوهما فلم يزل الإسلام طامسا حتي بعث الله محمداً ﷺ .

قال ابن عباس : وذلك قوله تعالى : ﴿ فَأَيُّدِنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عِدْوِهِمْ فَأُصْبِحُوا ظَاهِرِينَ ﴾ ^(١) .

وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس على شرط مسلم . ورواه النسائي عن أبي كريب ، عن أبي معاوية به نحوه . ورواه ابن جرير عن مسلم بن جنادة عن أبي معاوية .

وهكذا ذكر غير واحد من السلف ، ومن ذكر ذلك مطولاً محمد بن إسحاق بن يسار .

قال : وجعل عيسى عليه السلام يدعو الله عز وجل أن يؤخر أجله ، يعني ليبلي الرسالة ويكمل الدعوة ويكثر الناس الدخول في دين الله قيل : وكان عنده من الحواريين اثنا عشر رجلاً : بطرس ويعقوب ابن زبدا ويحس أخو يعقوب ، وأنسدراس ، وفليس ، وأبرثما ، ومتي ، وتوماس ، ويعقوب بن حلقيا ، وتداوس ، وفتياتيا ، ويودس كرياتوطا ، وهذا هو الذي دل اليهود على عيسى .

قال ابن إسحاق : وكان فهم رجل آخر اسمه سرجس كتمته النصاري وهو الذي ألقى شبه المسيح عليه فصلب عنه . قال : وبعض النصاري يزعم أن الذي صلب عن المسيح وألقى عليه شبهه هو يودس ابن كرياتوطا .. والله أعلم .

وقال الضحاك عن ابن عباس : استخلف عيسى شمعون وقتلت اليهود يودس الذي ألقى عليه الشبه .

وقال أحمد بن مروان : حدثنا محمد بن الجهم ، قال : سمعت الفراء ، يقول في قوله : ﴿ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ ، وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ قال : إن عيسى غاب عن خالته زماناً فأتاها ، فقام رأس الجالوت اليهودي فضرب على عيسى حتى اجتمعوا على باب داره فكسروا الباب ودخل رأس الجالوت ليأخذ عيسى فطمس الله عينيه عن عيسى ، ثم خرج إلى أصحابه فقال : لم أره . ومعه سيف مسلول . فقالوا : أنت عيسى وألقى الله شبه عيسى عليه فأخذوه فقتلوه وصلبوه ، فقال جل ذكره : ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ ﴾ .

(١) سورة الصف الآية ١٤

وقال ابن جرير : حدثنا ابن حميد : حدثنا يعقوب القمي ، عن هارون بن عنترة ، عن وهب بن منبه ، قال : أتى عيسى ومعه سبعة عشر من الحواريين في بيت فأحاطوا بهم ، فلما دخلوا عليهم صورهم الله كلهم على صورة عيسى فقالوا لهم : سحرتونا لتبرزن إلينا عيسى أو لنقتلنكم جميعاً . فقال عيسى لأصحابه : من يشتري منكم نفسه اليوم بالجنة ؟ فقال رجل : أنا . فخرج إليهم فقال : أنا عيسى . وقد صورته الله على صورة عيسى . فأخذه فقتلوه وصلبوه فمن ثم شبه لهم وطنوا أنهم قد قتلوا عيسى ، فظنت النصارى مثل ذلك أنه عيسى ، ورفع الله عيسى من يومه ذلك .

قال ابن جرير : وحدثنا المثني ، حدثنا إسحاق ، حدثنا إسماعيل بن عبد الكريم ، حدثني عبد الصمد بن معقل ، أنه سمع وهباً يقول : إن عيسى ابن مريم لما أعلمه الله أنه خارج من الدنيا جزع من الموت وشق عليه ، فدعا الحواريين وصنع لهم طعاماً فقال : احضروني الليلة فإن لي إليكم حاجة . فلما اجتمعوا إليه من الليل عشاهم وقام يخدمهم ، فلما فرغوا من الطعام أخذ يغسل أيديهم ويوضئهم بيده ويمسح أيديهم بثيابه ، فتعاضموا ذلك وتكاهوه فقال : من رد على شيئاً الليلة مما أصنع فليس مني ولا أنا امنه . فأقروه حتى إذا فرغ من ذلك قال : أما ما صنعت بكم الليلة مما خدمتكم على الطعام وغسلت أيديكم بيدي فليكن لكم بي أسوة ، فإنكم ترون أتي خيركم فلا يتعظم بعضكم على بعض ، وليبذل بعضكم لبعض نفسه ، كما بذلت نفسي لكم ، وأما حاجتي التي استعنتكم عليها فتدعون الله لي وتجتهدون في الدعاء أن يؤخر أجلي .

فلما نصبوا أنفسهم للدعاء وأرادوا أن يجتهدوا أخذهم النوم حتى لم يستطيعوا دعاء ، فجعل يوقظهم ويقول : سبحان الله .. أما تصبرون لي ليلة واحدة تعينوني فيها ؟ فقالوا : والله ماندرى مالنا ، والله لقد كنا نسمر فنكثر السمر وما نطيق الليلة سمرأ ، وما نريد دعاء إلا حيل بيننا وبينه فقال : يذهب بالراعي وتتفرق الغنم ! وجعل يأتي بكلام نحو هذا ينعي به نفسه .

ثم قال : الحق ليكفرن بي أحدكم قبل أن يصيح الديك ثلاث مرات ، وليبيعي أحدكم بدرهم بسيرة وليأكلن ثني .

فخرجوا وتفرقوا : وكانت اليهود تطلبه فأخذوا شمعون أحد الحواريين فقالوا : هذا من أصحابه . فجحد وقال : ما أنا بصاحبه . فتركوه . ثم أخذه آخرون فجحد كذلك . ثم سمع صوت ديك فبكى وأحزنه .

فلما أصبح أتى أحد الحواريين إلى اليهود فقال : ما تجعلون لي إن دللتكم على المسيح ؟

فجعلوا له ثلاثين درهما فأخذها ودلهم عليه وكان شبه عليهم قبل ذلك فأخذوه واستوثقوا منه وربطوه بالحبل وجعلوا يقودونه ويقولون : أنت كنت تحيي الموتى وتنتهر الشيطان وتبرئ المجنون ، أفلا تنجي نفسك من هذا الحبل ؟! ويصقون عليه ويلقون عليه الشوك حتى أتوا به الحشبة التي أرادوا أن يصلبوه عليها فرفعه الله إليه وصلبوا ما شئهم لهم فكث سبعا .

ثم إن أمه والمرأة التي كان يداويها عيسى فأبرأها الله من الجنون وجاءتا تبكيان حيث كان المصلوب فجاءهما عيسى فقال : علام تبكيان ؟ قالتا : عليك . قال : إني قد رفعني الله إليه ولم يصبني إلا خير ، وإن هذا شيء شبه لهم . فأمرنا الحواريين أن يلقوني إلى مكان كذا وكذا ، فلقوه إلى ذلك المكان أحد عشر وفقد الذي كان باعه ودل عليه اليهود ، فسأل عنه أصحابه فقالوا إنه ندم على ما صنع فاختنق وقتل نفسه ، فقال : لو تاب لتاب الله عليه ، ثم سألمهم عن غلام كان يتبعهم يقال له يحيى فقال : هو معكم فانطلقوا فإنه سيصبح كل إنسان منكم يحدث بلغة قوم فلينذرهم وليدعهم .

وهذا إسناد غريب عجيب ، وهو أصح مما ذكره النصاري لعنهم الله من أن المسيح جاء إلى مريم وهي جالسة تبكي عند جذعة فذأراها مكان المسامير من جسده ، وأخبرها أن روحه رفعت وأن جسده صلب .

وهذا بهت وكذب واختلاق وتحريف وتبديل وزيادة باطلة في الإنجيل على خلاف الحق ومقتضي الدليل .

وحكى الحافظ ابن عساكر من طريق يحيى بن حبيب ، فيما بلغه ، أن مريم سألت من بيت الملك بعد ما صلب المصلوب بسبعة أيام ، وهي تحسب أنه ابنها ، أن ينزل جسده ، فأجابهم إلى ذلك ودفن هنالك ، فقالت مريم لأم يحيى : ألا تذهبين بنا نزور قبر المسيح . فذهبتا فلما دنتا من القبر قالت مريم لأم يحيى : ألا تستترين ؟ قالت : ومن أستر ؟ فقالت : من هذا الرجل الذي هو عند القبر . فقالت أم يحيى : إني لا أرى أحداً فرجت مريم أن يكون جبريل ، وكان قد بعد عهدها به ، فاستوقفت أم يحيى وذهبت نحو القبر فلما دنت من القبر قال لها جبريل ، وعرفته : يا مريم .. أين تريدين ؟ فقالت : أزور قبر المسيح فأسلم عليه وأحدث عهداً به . فقال : يا مريم .. إن هذا ليس المسيح ، إن الله قد رفع المسيح وطهره من الذين كفروا . ولكن هذا الفتى الذي ألقى شبهه عليه وصلب وقتل مكانه ، وعلامة ذلك أن أهله قد فقدوه فلا يدرون ما فعل به فهم يبيكون عليه فإذا كان يوم كذا وكذا فأت غيضة كذا وكذا

فإنك تلقين المسيح .

قال : فرجعت إلى أختها وصعد جبريل فأخبرتها عن جبريل وما قال لها من أمر الغيضة ، فلما كان ذلك اليوم ذهبت فوجدت عيسى في الغيضة فلما رآها أسرع إليها وأكب عليها فقبل رأسها وجعل يدعو لها كما كان يفعل ، وقال : يا أمه .. إن القوم لم يقتلوني ولكن الله رفعني إليه وأذن لي في لقائك والموت يأتيك قريباً فاصبري واذكري الله كثيراً . ثم صعد عيسى فلم تلقه إلا تلك المرة حتى ماتت .

قال : وبلغني أن مريم بقيت بعد عيسى خمس سنين وماتت ولها ثلاث وخمسون سنة . رضي الله عنها وأرضاها .

وقال الحسن البصري : وكان عمر عيسى عليه السلام يوم رفع أربعاً وثلاثين سنة . وفي الحديث : « إن أهل الجنة يدخلونها جرداً مردأً مكحلين أبناء ثلاث وثلاثين » وفي الحديث الآخر : « على ميلاد عيسى وحسن يوسف » وكذا قال حماد بن سلمة عن علي بن يزيد ، عن سعيد بن المسيب ، أنه قال : رفع عيسى وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة .

فأما الحديث الذي رواه الحاكم في مستدركه ويعقوب بن سفيان الفسوي في تاريخه ، عن سعيد بن أبي مريم ، عن نافع بن يزيد ، عن عمارة بن غزية ، عن محمد بن عبد الله بن عمرو ابن عثمان ، أن أمه فاطمة بنت الحسين حدثته أن عائشة كانت تقول : أخبرني فاطمة أن رسول الله ﷺ أخبرها أنه لم يكن نبي كان بعده نبي إلا عاش الذي بعده نصف عمر الذي كان قبله ، وأنه أخبرني أن عيسى ابن مريم عاش عشرين ومائة سنة فلا أراني إلا ذاهب على رأس ستين . هذا لفظ الفسوي . فهو حديث غريب .

قال الحافظ ابن عساكر : والصحيح أن عيسى لم يبلغ هذا العمر ، وإنما أراد به مدة مقامه في أمته ، كما روى سفيان بن عيينة ، عن عمرو بن دينار عن يحيى بن جعدة ، قال : قالت فاطمة : قال لي رسول الله ﷺ : « إن عيسى ابن مريم مكث في بني إسرائيل أربعين سنة » وهذا منقطع .

وقال جرير والثوري عن الأعشى ، عن إبراهيم : مكث عيسى في قومه أربعين عاماً .

ويروي عن أمير المؤمنين على أن عيسى عليه السلام رفع ليلة الثاني والعشرين من رمضان ، وتلك الليلة في مثلها توفي على بعد طعنه بخمسة أيام .

وقد روى الضحاك عن ابن عباس أن عيسى لما رفع إلى السماء جاءته سبحانه فدنت منه حتى جلس عليها وجاءته مريم فودعته وبكت ثم رفع وهي تنظر وألقي إليها عيسى برداً له وقال : هذه علامة ما بيني وبينك يوم القيامة وألقى عمامته على شمعون ، وجعلت أمه تودعه بأصبعها تشير بها إليه حتى غاب عنها ، وكانت تحبه حباً شديداً ، لأنه توفر عليها حبه من جهتي الوالدين إذ لا أب له ، وكانت لاتفارقه سقراً ولا حضراً وكانت كما قال بعض الشعراء :

وكنـت أرى كالموت من بين ساعة فكيف بين كان موعده الحشر

وذكر إسحاق بن بشر ، عن مجاهد بن جبر أن اليهود لما صلبوا ذلك الرجل شبه لهم وهم يحسبونه المسيح وسلم لهم أكثر النصارى بجهلهم ذلك ، تسلطوا على أصحابه بالقتل والضرب والحبس فبلغ أمرهم إلى صاحب الروم وهو ملك دمشق في ذلك الزمان ، فقيل له : إن اليهود قد تسلطوا على أصحاب رجل كان يذكرهم أنه رسول الله وكان يحيى الموتى ويبرئ الأكمه والأبرص ويفعل العجائب ، فعدوا عليه فقتلوه وأهانوا أصحابه وحسبوهم فبعث فجاء بهم وفيهم يحيى بن زكريا وشمعون وجماعة ، فسألهم عن أمر المسيح فأخبروه عنه ، فبايعهم في دينهم وأعلى كلمتهم وظهر الحق على اليهود وعلت كلمة النصاري عليهم ، وبعث إلى المصلوب فرسع عن جذعه وجيء بالجذع الذي صلب عليه ذلك الرجل فعظمه فن ثم عظمت النصاري الصليب ، ومن هاهنا دخل دين النصرانية في الروم . وفي هذا نظر من وجوه :

أحدها : أن يحيى بن زكريا نبي لا يقر على أن المصلوب عيسى ، فإنه معصوم يعلم ما وقع على جهة الحق .

الثاني : أن الروم لم يدخلوا في دين المسيح إلا بعد ثلاثمائة سنة ، وذلك في زمان قسطنطين بن قسطن بائي المدينة المنسوبة إليه على ما سنذكره .

الثالث : أن اليهود لما صلبوا ذلك الرجل ثم ألقوه بمخشبتة جعلوا مكانه مطرحاً للقامة والنجاسة وجيف الميتات والقاذورات ، فلم يزل كذلك حتى كان في زمان قسطنطين المذكور فعمدت أمه هيلانة الحرائية الفندقانية فاستخرجته من هنالك معتقدة أنه المسيح ، ووجدوا الخشبة التي صلب عليها المصلوب . فذكروا أنه مامسها ذو عاهة إلا عوفي .. فالله أعلم أكان هذا أملا ، وهل كان هذا لأن ذلك الرجل الذي بذل نفسه كان رجلاً صالحاً أو كان هذا محنة وفتنة لأمة النصارى في ذلك اليوم ، حتى عظموا تلك الخشبة وغشوها بالذهب واللآلئ ، ومن ثم اتخفوا الصلبانات وتبركوا بشكلها وقبلوها ، وأمرت أم الملك هيلانة فأزيلت تلك القامة وبني مكانها

كنيسة هائلة مزخرفة بأنواع الزينة ، فهي هذه المشهورة اليوم ببلد بيت المقدس التي يقال لها القمامة باعتبار ما كان عندها ، ويسمون القمامة يعنون التي يقوم جسد المسيح منها . ثم أمرت هيلانة بأن توضع قمامة البلد وكناسته وقاذوراته على الصخرة التي هي قبلة اليهود فلم تزل كذلك حتى فتح عمر بن الخطاب بيت المقدس ، فكنس عنها القمامة بردائه وطهرها من الأخبث والأنجاس ، ولم يضع المسجد وراءها ولكن أمامها حيث صلى رسول الله ﷺ ليلة الإسراء بالأنبياء وهو المسجد الأقصى .

صفات عيسى عليه السلام وشمائله وفضائله

قال الله تعالى : ﴿ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ ۝ ﴾ (١) .

قيل سمي المسيح لمسحه الأرض وهو سياحته فيها وفراره بدينه من الفتن في ذلك الزمان ، لشدة تكذيب اليهود له وافترائهم عليه وعلى أمه عليهما السلام . وقيل لأنه كان ممسوح القدمين .

وقال تعالى : ﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ ۝ ﴾ (٢) وقال تعالى : ﴿ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ۝ ﴾ (٣) والآيات في ذلك كثيرة جداً .

وقد تقدم ما ثبت في الصحيحين : « ما من مولود إلا والشيطان يطعن في خاصرته حين يولد فيستهل صارخاً إلا مريم وابنها ، ذهب بطعن فطعن في الحجاب » ، وتقدم حديث عمير ابن هانئ عن جنادة ، عن عبادة عن رسول الله ﷺ أنه قال : « من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبد الله ورسوله وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته التي ألقاها إلى مريم وروح منه ، والجنة حق والنار حق أدخله الله الجنة على ما كان من العمل » رواه البخاري وهذا لفظه ، ومسلم .

وروى البخاري ومسلم من حديث الشعبي ، عن أبي بردة بن أبي موسى ، عن أبيه ، قال :

(٢) سورة الحديد الآية ٢٧ .

(١) سورة المائدة الآية ٧٥ .

(٣) سورة البقرة آيتا ٨٧ - ٢٥٣ .

قال رسول الله ﷺ : « إذا أدب الرجل أمته فأحسن تأديبها وعلمها فأحسن تعليمها ثم أعتقها فتزوجها كان له أجران ، وإذا آمن بعيسى ابن مريم ثم آمن بي فله أجران ، والعبد إذا اتقى ربه وأطاع مواليه فله أجران » هذا لفظ البخاري .

وقال البخاري : حدثنا إبراهيم بن موسى ، أنبأنا هشام ، عن معمر ، وحدثني محمود : حدثنا عبد الرزاق ، أنبأنا معمر ، عن الزهري ، أخبرني سعيد بن المسيب ، عن أبي هريرة قال : قال النبي ﷺ : « ليلة أسرى بي ولقيت موسى - قال : فنعته - فإذا رجل حسبه قال : مضطرب رجل الرأس كأنه من رجال شنوءة . قال : ولقيت عيسى فنعته النبي ﷺ فقال : ربعة أحرر كأنما خرج من ديماس - يعني الحمام - ورأيت إبراهيم وأنا أشبه ولده به » الحديث .

وقد تقدم في قصتي إبراهيم وموسى .

ثم قال : حدثنا محمد بن كثير ، أنبأنا إسرائيل ، عن عثمان بن المغيرة ، عن مجاهد ، عن ابن عمر ، قال : قال النبي ﷺ : « رأيت عيسى وموسى وإبراهيم ، فأما عيسى فأحرر جعد عريض الصدر . وأما موسى فآدم جسم سبط . كأنه من رجال الزط » تفرد به البخاري .

وحدثنا إبراهيم بن المنذر ، حدثنا أبو ضمرة : حدثنا موسى بن عقبة ، عن نافع ، قال : قال عبد الله بن عمر : ذكر النبي ﷺ يوماً بين ظهري الناس المسيح الدجال فقال : « إن الله ليس بأعور إلا أن المسيح الدجال أعور العين اليمنى كأن عينه عنبة طافية ، وأراني الليلة عند الكعبة في المنام فإذا رجل آدم كأحسن ما يرى من آدم الرجال تضرب لمتة بين منكبيه رجل الشعر يقطر رأسه ماء واضعاً يديه على منكبي رجلين ، وهو يطوف بالبيت فقلت من هذا ؟

فقالوا : المسيح ابن مريم . ثم رأيت رجلاً وراءه جعداً قططاً أعور عين اليمنى كأشبهه من رأيت بآبن قطن . واضعاً يده على منكبي رجل يطوف بالبيت فقلت من هذا ؟ فقالوا : المسيح الدجال » .

ورواه مسلم من حديث موسى بن عقبة . ثم قال البخاري : تابعه عبد الله بن نافع . ثم ساقه من طريق الزهري عن سالم بن عمر قال الزهري : وابن قطن رجل من خزاعة هلك في الجاهلية .

فبين صلوات الله وسلامه عليه صفة المسيحين : مسيح المهدي ومسيح الضلالة ، ليعرف هذا إذا نزل فيؤمن به المؤمنون ويعرف الآخر فيحذره الموحدون .

وقال البخاري : حدثنا عبد الله بن محمد ، حدثنا عبد الرزاق ، أنبأنا معمر ، عن همام بن منبه ، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « رأى عيسى ابن مريم رجلاً يسرق فقال له : أسرت ؟ قال : كلا والذي لا إله إلا هو . فقال عيسى : آمنت بالله وكذبت عيني » وكذا رواه مسلم عن محمد بن رافع عن عبد الرزاق .

وقال أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا حماد بن سلمة ، عن حميد الطويل ، عن الحسن وغيره ، عن أبي هريرة قال : ولا أعلمه إلا عن النبي ﷺ قال : « رأى عيسى رجلاً يسرق فقال : يا فلان .. أسرت ؟ فقال : لا والله ما سرت . فقال : آمنت بالله وكذبت بصري » .

وهذا يدل على سجية طاهرة ، حيث قدم حلف الله الرجل فظن أن أحداً لا يحلف بعظمة الله كاذباً على ما شاهدته منه عياناً ، فقبل عذره ورجع على نفسه فقال : آمنت بالله . أي صدقتك وكذبت بصري لأجل حلفك .

وقال البخاري : حدثنا محمد بن يوسف ، حدثنا سفيان ، عن المغيرة بن النعمان ، عن سعيد ابن جبير ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « تحشرون حفاة عراة غرلاً ثم قرأ : ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ ، وَعَدًا عَلَيْنَا ۚ إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ ^(١) فأول الخلق يكسى إبراهيم ، ثم يؤخذ برجاله من أصحابي ذات اليمين وذات الشمال فأقول أصحابي فيقال : إنهم لن يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم فأقول كما قال العبد الصالح عيسى ابن مريم : ﴿ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ، فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ، وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ * إِنَّ تَعَذُّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ، وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ ^(٢) تفرد به دون مسلم من هذا الوجه .

وقال أيضاً : حدثنا عبد الله بن الزبير الحميدي : حدثنا سفيان ، سمعت الزهري يقول : أخبرني عبد الله بن عبد الله ، عن ابن عباس سمع عمر يقول على المنبر : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم فإنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله » .

(٢) سورة المائدة آيتا ١١٧ ، ١١٨ .

(١) سورة الأنبياء الآية ١٠٤ .

وقال البخاري : حدثنا إبراهيم ، حدثنا جرير بن حازم ، عن محمد بن سيرين ، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة : عيسى ، وكان في بني إسرائيل رجل يقال له جريج يصلي إذ جاءت أمه فبذعته فقال : أجيئها أو أصلي ؟ فقالت : اللهم لا تمته حتي تريه وجوه المومنات . وكان جريج في صومعة فعرضت له امرأة وكلمته فأبى فأثت راعياً فأمكنته من نفسها فولدت غلاماً فقيل لها : ممن ؟ قالت : من جريج فأثوه وكسروا صومعته فأنزلوا وسبوه فتوضأ وصلي ثم أقى الغلام فقال : من أبوك يا غلام ؟ قال : فلان الراعي . فقالوا : أنبني صومعتك من ذهب ؟ قال : لا ، إلا من طين . وكانت امرأة ترضع ابنها لها في بني إسرائيل فر بها رجل راكب ذو شارة فقالت : اللهم اجعل ابني مثله ، فترك ثديها وأقبل على الراكب فقال : اللهم لا تجعلني مثله ، ثم أقبل على ثديها يمسه . قال أبو هريرة : كأني أنظر إلى النبي ﷺ يمض إصبه . ثم مر بأمه فقالت : اللهم لا تجعل ابني مثل هذه . فترك ثديها فقال : اللهم اجعلني مثلاً . فقالت : لم ذلك فقال : الراكب جبار من الحبابرة ، وهذه الأمة يقولون سرقت وزنت ، ولم تفعل . »

وقال البخاري : حدثنا أبو اليان : حدثنا شبيب ، عن الزهري ، أخبرني أبو سلمة ، أن أبا هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « أنا أولى الناس بابن مريم ، والأنبياء أولاد علات ليس بيني وبينه نبي . »

تفرد به البخاري من هذا الوجه .

ورواه ابن حبان في صحيحه من حديث أبي داود الحفري ، عن الثوري عن أبي الزناد ، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة .

وقال أحمد : حدثنا وكيع ، حدثنا سفيان - وهو الثوري - عن أبي الزناد ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : أنا أولى الناس بعيسى عليه السلام والأنبياء إخوة أولاد علات ، وليس بيني وبين عيسى نبي . »

وهذا إسناد صحيح على شرطها ولم يخرجوه من هذا الوجه . وأخرجه أحمد عن عبد الرزاق ، عن معمر ، عن همام ، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ بنحوه ، وأخرجه ابن حبان من حديث عبد الرزاق نحوه .

قال أحمد : حدثنا يحيى ، عن أبي عروبة ، حدثنا قتادة ، عن عبد الرحمن بن آدم ، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « الأنبياء إخوة لعلات ، ودينهم واحد وأمهاتهم شتى ، وأنا أولى الناس بعيسى ابن مريم لأنه لم يكن بيني وبينه نبي ، وإنه نازل فإذا رأيته فاعرفوه ، فإنه رجل مربوع إلى الحمرة والبياض ، سبط كأن رأسه يقطر وإن لم يصبه بلل بين مخضرتين فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويعطل الملل حتي تهلك في زمانه كلها غير الإسلام ، ويهلك الله في زمانه المسيح الدجال الكذاب ، وتقع الأمانة في الأرض حتي ترتع الإبل مع الأسد جميعاً والنور مع البقر والذئب مع الغنم ويلعب الصبيان والغلمان بالحيات لا يضر بعضهم بعضاً فيمكث ما شاء الله أن يمكث ، ثم يتوفي فيصلي عليه المسلمون ويدفونوه » .

ثم رواه أحمد عن عفان ، عن همام ، عن قتادة ، عن عبد الرحمن ، عن أبي هريرة فذكر نحوه . وقال : فيمكث أربعين سنة ، ثم يتوفي ويصلي عليه المسلمون ، ورواه أبو داود عن هذبة ابن خالد ، عن هشام بن يحيى به نحوه .

وروى هشام بن عروة ، عن صالح مولى أبي هريرة عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « فيمكث في الأرض أربعين سنة » وقد بينا نزوله عليه السلام في آخر الزمان في كتاب « الملاحم » كما بسطنا ذلك أيضاً في التفسير عند قوله تعالى في سورة النساء : ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَإِلَٰهِيْمُنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً ﴾ ^(١) وقوله : ﴿ وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ ﴾ ^(٢) الآية وأنه ينزل على المنارة البيضاء بدمشق وقد أقيمت صلاة الصبح فيقول له إمام المسلمين : تقدم ياروح الله فصل . فيقول : لا ، بعضكم على بعض أمراء مكرمة الله هذه الأمة ، وفي رواية فيقول له عيسى : إنما أقيمت الصلاة لك ، فيصلي خلفه ، ثم يركب ومعه المسلمون في طلب المسيح الدجال فيلحقه عند باب لد فيقتله بيده الكريمة .

وذكرنا أنه قوي الرجاء حتى بنيت هذه المنارة الشرقية بدمشق التي هي من حجارة بيض ، وقد بنيت أيضاً من أموال النصاري حين حرقوا التي هدمت وما حولها ، فينزل عليها عيسى ابن مريم عليه السلام فيقتل الخنزير ويكسر الصليب ولا يقبل من أحد إلا الإسلام ، وأنه يخرج من فج الروحاء حاجاً أو معترراً أو لثنتيها ، ويقيم أربعين سنة ، ثم يموت فيدفن فيما قيل في الحجرة النبوية عند رسول الله ﷺ وصاحبيه .

(١) سورة الزخرف الآية ٦١ .

(٢) سورة النساء الآية ١٠٩ .

وقد ورد ذلك حديث ذكره ابن عساكر في آخر ترجمة المسيح عليه السلام في كتابه عن عائشة مرفوعاً ، أنه يدفن مع رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر في الحجرة النبوية ، ولكن لا يصح إسناده .

وقال أبو عيسى الترمذي : حدثنا زيد بن أوزم الطائي ، حدثنا أبو قتيبة مسلم بن قتيبة ، حدثني أبو مودود المدني ، حدثنا عثمان بن الضحاك ، عن محمد بن يوسف بن عبد الله ابن سلام ، عن أبيه ، عن جده قال : مكتوب في التوراة : صفة محمد وعيسى ابن مريم عليهما السلام يدفن معه . قال أبو مودود ، وقد بقي من البيت موضع قبر .

ثم قال الترمذي : هذا حديث حسن . كذا قال : والصواب الضحاك بن عثمان المدني .

وقال البخاري : هذا الحديث لا يصح عندي ولا يتابع عليه .

وروى البخاري عن يحيى بن حماد ، عن أبي عوانة ، عن عاصم الأحول ، عن أبي عثمان النهدي ، عن سلمان قال : الفترة ما بين عيسى ومحمد ﷺ ستائة سنة ، وعن قتادة : خمائة وستون سنة . وقيل خمائة وأربعون سنة وعن الضحاك أربعائة وبعض وثلاثون سنة . والمشهور ستائة سنة ، ومنهم من يقول ستائة وعشرون سنة بالقمرية ، ليكون ستائة الشمسية .. والله أعلم .

وقال ابن حبان في صحيحه : « ذكر المدة التي بقيت فيها أمة عيسى على هديه » : حدثنا أبو يعلى ، حدثنا أبو همام ، حدثنا الوليد بن مسلم ، عن الهيثم بن حميد ، عن الوضين بن عطاء ، عن نصر بن علقمة ، عن جبير بن نفير ، عن أبي الدرداء ، قال : قال رسول الله ﷺ : « لقد قبض الله داود من بين أصحابه فما فتنوا ولا بدلوا ولقد مكث أصحاب المسيح على سنته وهديه مائتي سنة » .

وهذا حديث غريب جداً ، وإن صححه ابن حبان .

وذكر ابن جرير عن محمد بن إسحاق ، أن عيسى عليه السلام قبل أن يرفع وصى الحواريين بأن يدعوا الناس إلى عبادة الله وحده لا شريك له وعين كل واحد منهم إلى طائفة من الناس في إقليم من الأقاليم من الشام والمشرق وبلاد المغرب ، فذكروا أنه أصبح كل إنسان منهم يتكلم بلغة الذين أرسله المسيح إليهم .

وذكر غير واحد أن الإنجيل نقله عنه أربعة : لوقا ومتى ومرقس ويوحنا ، وبين هذه الأناجيل الأربعة تفاوت كثير بالنسبة إلى كل نسخة ونسخة ، وزيادات كثيرة ونقص بالنسبة

إلى أخرى ، وهؤلاء الأربعة منهم اثنان من أدرك المسيح وراءه وهما صتي ويوحنا ، ومنهم اثنان من أصحابه وهما مرقس ولوقا .

وكان ممن آمن بالمسيح وصدقوه من أهل دمشق رجل يقال له ضينا ، وكان مختفياً في مغارة داخل الباب الشرقي قريباً من الكنيسة المصلبة خوفاً من بولس اليهودي ، وكان ظالماً غاشماً مبغضاً للمسيح ولما جاء به ، وكان قد حلق رأس ابن أخيه حين آمن بالمسيح وطاف به في البلد ثم رجمه حتى مات رحمه الله .

ولما سمع بولص أن المسيح عليه السلام قد توجه نحو دمشق جهز بغاله وخرج ليقتله ، فتلقيه عند كوكبا ، فلما واجه أصحاب المسيح جاء إليه ملك فضرب وجهه بطرف جناحه فأعماه ، فلما رأى ذلك وقع في نفسه تصديق المسيح فجاء إليه واعتذر مما صنع ، وأمن به فقبل منه وسأله أن يمسح عينيه ليرد الله عليه بصره ، فقال اذهب إلى ضينا عندك بدمشق في طرف السوق المستطيل من المشرق فهو يدعو لك فجاء إليه فدعا فرد عليه بصره وحسن إيمان بولص بالمسيح عليه السلام أنه عبد الله ورسوله وبنيت له كنيسة باسمه فهي كنيسة بولص المشهورة بدمشق من زمن فتحها الصحابة رضي الله عنهم حتى خرجت .

اختلف أصحاب المسيح عليه السلام بعد رفعه إلى السماء فيه على أقوال ، كما قاله ابن عباس وغيره من أئمة السلف كما أوردناه عند قوله : ﴿ فَأَيُّدَنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَاصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴾

قال ابن عباس وغيره : قال قائلون منهم : كان فينا عبد الله ورسوله فرفع إلى السماء . وقال آخرون : هو الله . وقال آخرون : هو ابن الله .

فالأول هو الحق والقولان الآخران كفر عظيم ، كما قال : ﴿ فَاخْتَلَفَ الْأَخْرَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ ، قَوْلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾

وقد اختلفوا في نقل الأناجيل على أربعة أقاويل ما بين زيادة وتقصان وتحريف وتبديل .

ثم بعد المسيح بثلاثمائة سنة حدثت فيه الطامة العظمي والبلية الكبرى اختلف البتاركة الأربعة وجميع الأساقفة والقساوسة والشمامسة والرهبان في المسيح على أقوال متعددة لا تنحصر ولا تنضب ، واجتمعوا وتحاكموا إلى الملك قسطنطين باني القسطنطينية وهم المجمع الأول ، فصار الملك إلى قول أكثر فرقة اتفقت على قول من تلك المقالات ، فسموا الملكية ودحض من عداهم وأبعدهم ، وتفردت الفرقة التابعة لعبد الله بن أريوس الذي ثبت على أن عيسى عبد من عباد الله ورسول من رسله فسكنوا البراري والبودي وبنوا الصوامع والديارات والقلايات ، وقنعوا بالعيش الزهيد ولم يخالطوا أولئك الملل والنحل وبنات الملكية الكنائس الهائلة ، عمدوا إلى ما كان من بناء اليونان فحولوا محاريبها إلى الشرق وقد كانت إلى الشمال إلى الجدي .

بيان بناء بيت لحم والقمامة

وبني الملك قسطنطين بيت لحم على محل مولد المسيح ، وبنات أمه هيلانة القمامة ، يعني على قبر المصلوب وهم يسمون لليهود أنه المسيح .

وقد كفرت هؤلاء وهؤلاء ووضعوا القوانين والأحكام . ومنها مخالف للعتيقة التي هي التوراة ، وأحلوا أشياء هي حرام بنص التوراة ومن ذلك الخنزير ، وصلوا إلى المشرق ولم يكن

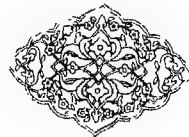
المسيح صلى إلا إلى صحرة بيت المقدس ، وكذلك جميع الأنبياء بعد موسى ، ومحمد خاتم النبيين صلى إليها بعد هجرته إلى المدينة ستة عشر - أو سعة عشر - شهراً ثم حول إلى الكعبة التي بناها إبراهيم الخليل .

وصوروا الكنائس ولم تكن مصورة قبل ذلك ، ووضعوا العقيدة التي يحفظها أطفالهم ونسأؤهم ورجالهم التي يسمونها بالأمانة ، وهي في الحقيقة أكبر الكفر والخيانة .

وجميع الملكية والنسطورية أصحاب نسطورس أهل المجمع الثاني ، واليعقوبية أصحاب يعقوب البراذعي أصحاب المجمع الثالث ، يعتقدون هذه العقيدة يختلقون في تفسيرها .

وهأنذا أحكمها - وحايي الكفر ليس بكافر لاث - على ما فيها من ركة الألفاظ وكثرة الكفر والجهال المفضي بصاحبه إلى النار ذات الشواط فيقولون :

« نؤمن بإله واحد ضابط الكل خالق السموات والأرض كل ما يرى وكل ما لا يرى ، وبرب واحد يسوع المسيح ابن الله الوحيد المولود من الأب قبل الدهور نور من نور ، إله حق من إله حق ، مولود غير مخلوق مساو للأب في الجوهر الذي كان به كل شيء ، من أجلنا نحن البشر ومن أجل خلاصنا نزل من السماء وتجسد من روح القدس ومن مريم العذراء وتأنس وصلب على عهد ملاطس النبطي وتألم وقبر وقام في اليوم الثالث كما في الكتب وصعد إلى السماء وجلس على يمين الأب ، وأيضاً فسيأتي بجسمه ليدبر الأحياء والأموات الذي لافناء لملكه ، وروح القدس الرب المحي المنبثق من الأب مع الأب ، والابن مسجود له وبمجد الناطق في الأنبياء كنيسة واحدة جامعة مقدسة يهولية ، واعترف بعمودية واحدة لمغفرة الخطايا وأنه حي قيامة الموتي وحياة الدهر العتيد كونه .. آمين » .



الفهرس

صفحة

٥	قصة إلباس عليه السلام
١١	أنبياء بنى إسرائيل بعد موسى عليه السلام
١٢	قصة حزقيل
١٥	قصة اليسع عليه السلام
١٧	قصة شمويل عليه السلام
٢٣	قصة داود عليه السلام
٣٥	قصة سليمان عليه السلام
٥٥	أنبياء بنى إسرائيل عليهم السلام بعد داود عليه السلام
٥٦	أرميا بن حلفيا
٥٧	خراب بيت المقدس
٦٥	دانيال عليه السلام
٦٨	عمارة بيت المقدس
٧٠	قصة العزيز
٧٥	قصة زكريا ويحيى عليهما السلام
٨٥	مقتل يحيى عليه السلام
٨٩	قصة عيسى بن مريم عليه السلام
١٠١	ميلاد عيسى بن مريم عليه السلام
١١٨	منشأ عيسى بن مريم عليهما السلام
١٣٣	خبر المائدة
١٤١	رفع عيسى عليه السلام إلى السماء
١٤٨	صفات عيسى عليه السلام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



فروع المعاملات الإسلامية

وحدات تزاول نشاطها وفقاً لأحكام الشريعة الإسلامية بإشراف لجنة من كبار علماء الأزهر

- تقبل جميع أنواع الودائع بالعملة المحلية والعملة الأجنبية .
- تقدم الخدمات المصرفية وتقوم المشروعات وفقاً للنظام المشاركة والمضاربة .
- توفّر نتائج الربح الحلال على عملائها المستثمرين بما أحله الله .

تفرد بإصدار الشهادات الإسلامية ذات العائد المتعبر

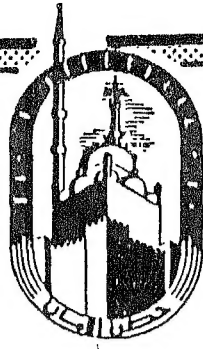
شهادات بنك مصر
للمعاملات الإسلامية
ذات العائد الشهري
بالجنيه المصري والدولار الأمريكي

شهادات بنك مصر
للمعاملات الإسلامية
بالجنيه المصري والدولار الأمريكي

تستثمر أموال هذه الشهادات في مشروعات إسلامية

- يمكن للعميل الحصول على فترض حسن بضمان الشهادة .
 - يحق للعميل حفظ الشهادات في خزائن البنك بالنسبة للعملاء من أصحاب الحسابات الجارية أو الاستثمارية دون تقاضى أجور ايداع .
- يصرف العائد بنفس العملة المشتركة بها في الشهادة من الفرع المنفذ البائع للشهادة أو الفرع الإسلامي المصدر لها .

بنك مصر
فروع
المعاملات
الإسلامية
تعمل على إرساء قواعد الاقتصاد الإسلامي في مصر



مصر للتأمين

أرباح

التأمين المختلط مع الاشتراك في الأرباح

هذا العام

٦٠

جنيهاً سنوياً

ناصر

لكل مبلغ تأمين قدره ألف جنيه

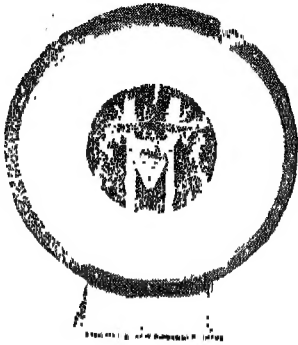


شركة

حبشية



عيد المسيح حبيش وأولاده

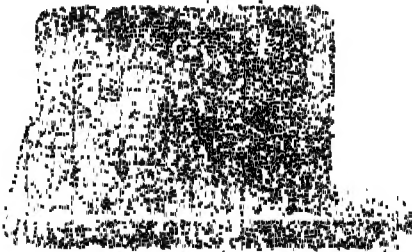


موازين
يسكول

رومانى

أوتوماتيك
بالمؤشر

من ٢٠ كجم إلى ١٠٠٠ كجم



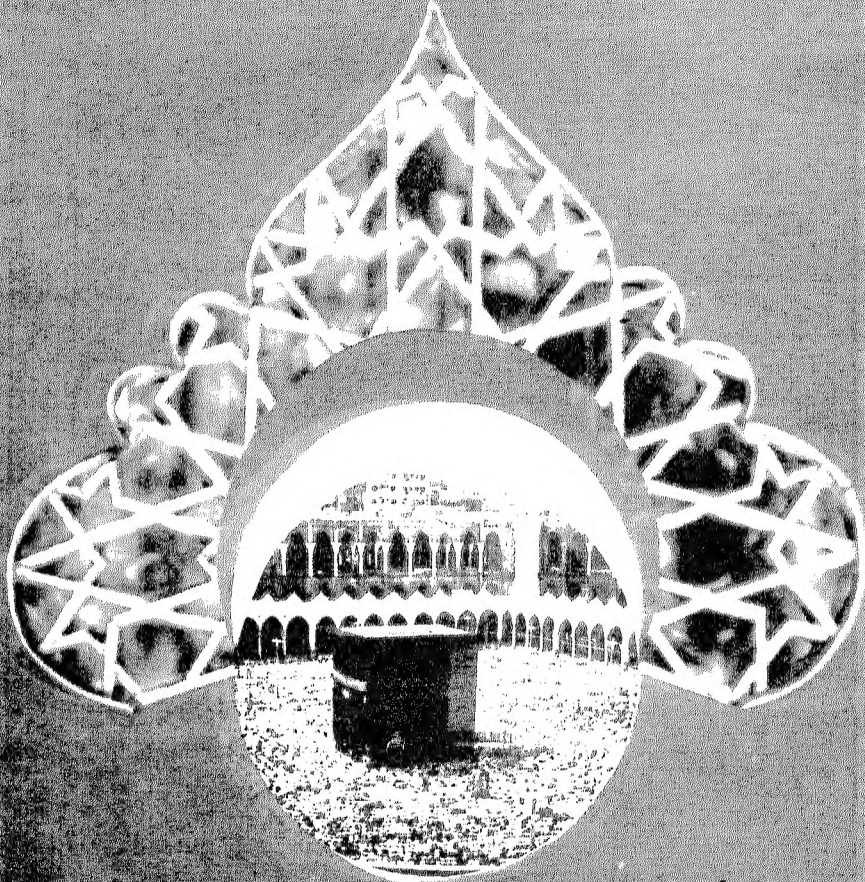
الإدارة والبائع :

١٣ من المطبعة الأهلية / وكالة البائع : ٧٦٢٠٣١ / ٧٦١٦٣١

رقم الإيداع ٣٩٠٧ / ١٩٩٠

مطابع الأوقست
بشركة الإعلانات الشرقية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

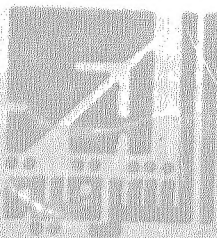


”وَأَقِمُوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ“ مَسْجِدُ اللَّهِ الْمَكِّي

مصر للطيران

القاهرة/ جدة/ القاهرة
يوميًا

مصر للطيران
تتمنى لكم عمرة.. مباركة



استيلم فوينا

بمقدم ٦٦٩٠ جنيها مصرياً

وقسط شهرياً ٢٩٥ جنيها

شقة ٣ وعكالة

بالهضبة الوسطى بالمقطم

طريق الأوتوستراد - مصر الجديدة

العكالي



الإستعلام والتسجيل من ٩ ص إلى ٣ ص

٤٤٦ شارع الأهرام - مجمع نصر الدين - بالجيزة

هاتف ٦٢٣٨٦٧ / ٦٢٣٨٦٨ / ٦٢٣٨٦٩

فاكس ٧٣٦٤١٤ - ٢١٩٥٣ ECCR UN

الثمن ٣٠٠ قرش

مصر - لاؤفت
شركة الاعلانات الشرقية